

الدكتور عبد اللطيف حمزة

أستاذ ورئيس قسم الصحافة
بكلية الآداب — جامعة القاهرة (سابقاً)

أدب المقاتل الصحفي في مصر

المجلد الثالث

إبراهيم الموشلي

صاحب مصباح الشرق

مكتبة الطبع والنشر
دار الفكر العربي



الدكتور عبد اللطيف حمزة

أستاذ ورئيس قسم الصحافة
بكلية الآداب — جامعة القاهرة (سابقاً)

أدب المقاتل الصحفي في عصره

المجلد الثالث

إبراهيم الموشى

صاحب مصباح الشرق

مكتبة الطبع والنشر
دار الفكر العربي

وَلِلَّهِ الْحَمْدُ
شأن الجليل - كنيسة الأرمين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يذكر القراء أنني قدمت لهم في الجزء الأول من هذا الكتاب حديثاً عن ميلاد الصحافة المصرية ، وعن المدرسة الصحفية الأولى في مصر ، وهي المدرسة التي كان من أشهر تلاميذها رفاة الطهطاوى ، وعبد الله أبو السعود ومحمد أنسى ، وغيرهم .

كما يذكر القراء أنني قدمت لهم في الجزء الثاني من هذا الكتاب حديثاً آخر عن شباب للصحافة المصرية ، وعن المدرسة الصحفية الثانية في مصر ، وهي المدرسة التي كان من أشهر تلاميذها أديب إسحاق ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم .

والذي لا يقبل الشك بحال من الأحوال أن الصحافة المصرية على أيدي هؤلاء الثلاثة بنوع خاص قد وضحت معالمها ، واشتد ساعدها ، وقويت شوكتها وأصبحت سلطة قوية في البلاد لها هيبتها ، ولها قيمتها ، ولها قدرتها على توجيه الشعب والحكومة في وقت معاً ، وكان لهذه الصحافة المصرية حينذاك أهداف سياسية قومية ، وأخرى اجتماعية ، وثالثة خلقية ، ورابعة دينية وهكذا .

والذي لا يقبل الشك أيضاً بحال من الأحوال أن الصحافة المصرية حققت كل هذه الأهداف بنجاح تام ، وبحسبنا أن نضرب المثل هنا بالسيد عبد الله النديم ، فقد أدرك بثاقب فكرة ، أو بموهبته كيف طغى سيل الغرب على الشرق ، وكيف أوشكت الحضارة الأوروبية أن تجرف الحضارة الشرقية ،

وكيف عم اتفرنج البلاد حتى كاد يححو التقاليد المصرية والعادات المصرية
ويضعف الإيمان بالخلق الإسلامى نفسه إلى الأبد .

إذ ذاك نهض أمثال النديم نهضتهم الصحفية المعروفة فى التاريخ ، فردوا
بها المصريين إلى أنفسهم ، وأفاقوهم من غشيتهم ووضعوهم فى المكان اللائق
بهم ، وبمجدهم ، وكرامتهم ، وديانتهم ، وكانوا فى كل أولئك من المجاهدين
الصادقين .

معنى ذلك إذن أنه كان فى مصر فى ذلك الوقت طغيان أجنبى ينبغى أن
يقاوم ، وأنه كان فيها شعب قوى مستعد لأن يقاوم .

ومعنى ذلك أيضاً أنه إلى أولئك الزعماء فى الصحافة والأدب والسياسة
يرجع الفضل كل الفضل فى احتفاظ المصريين بشخصيتهم ، ودفاعهم عن
قوميتهم وديانتهم ، وصورتهم لسمعتهم التى كانت على شفا جرف هار ينهار
بها فى نار جهنم .

ومعنى ذلك فى نهاية الأمر أننا نحن المصريين المحدثين من أبناء هذا
الجيل مدينون فى كل ما نلعم به من عزة وكرامة لهؤلاء القادة من الأدباء
والصحفيين والسياسة ، ولأنه لدين كبير يتألف من أشياء كثيرة لا سبيل
إلى حصرها ، ولا قدرة لنا على الوفاء بها .

فنحن مدينون لهم بسلامة لغتنا التى أوشكت على الضياع ، وسلامة ديننا
الذى تعرض لكيد الكائدين له من جبابرة الاستعمار ، وسلامة تقاليدنا
التي أوشكنا أن نتركها جازباً ، وتوثر عليها تقاليد الغرب متبعين فى ذلك
نظرية ابن خلدون التى يقول فيها : وإن المغلوب مولع دائماً بمحاكاة الغالب ،
وأخيراً نحن مدينون لهم بسلامة مصريتنا وكرامتنا التى أوشكنا أن
نهدرها طائعين أو مكرهين ، ونسلمها سلعة رخيصة للبحرل الغاصب .

ألا — ما أعظم هذا الدين الذى فى أعناقنا لأولئك الأبطال ،

وما أخلق شبابنا في مصر والشرق أن يذكر لهم كل ذلك ، وأن يحمدهم عليه ويسير سيرتهم فيه .

وهذا إبراهيم المويلحي يقرأ الباحث ما بقي من آثاره فلا يتردد في النظر إليه على أنه أحد رجال تلك الحلبة ، وبطل من أبطال تلك العصبة أولى اقوة ، وتلميذ نابه من تلاميذ تلك المدرسة الثانية من مدارس الصحافة في مصر ، يدعو بدعوتها ، ويكتب بطريقتها ، ويتبع أنماطها في التفكير والتحرير .

ثم إن إبراهيم - فضلا عن هذا كله كان كاتب الأمير وذلك منذ اختص به إسماعيل ، واصطفاه لنفسه دون الناس أجمعين ليكون صديقه في المنفى ، وداعيته في الصحف .

ومن أجل هذا أصدر إبراهيم عدداً كبيراً من الجرائد في أوروبا ، وكلها على نفقة إسماعيل ، ومن وحيه ، ولخدمته ، ولكنتنا مع الأسف الشديد لم نظفر بعد بواحدة من تلك الصحف المصرية التي ظهرت في البلاد الأوربية ، ولعل بعضها يوجد الآن في بعض نواحي لبنان ، ونحن نأمل أن نحظى بها في يوم من الأيام . وإذ ذاك فقط نستطيع أن نضيف إلى هذا الجزء من كتابنا فصولا جديدة عن صحافة المويلحي في أوروبا ، وعن أغراض هذه الصحافة .

على أننا على كل حال عرفنا كل شيء عن أسلوب إبراهيم المويلحي في الكتابة ، وذلك من خلال جريدته التي أصدرها في مصر ، ونعني بها جريدة (مصباح الشرق) ثم من خلال مقالاته التي كتبها في نقد السلطان عبد الحميد وحاشيته ، وهي المقالات التي جمعها في كتاب له بعنوان (ما هنالك) .

وحين تبين لنا أسلوب هذا الكاتب من خلال مقالاته ، ووقفنا على خصائصه الفنية وميزاته لم نجد ما يحول بيننا وبين الكتابة عنه على هذا النحو ، مادمننا لا نطمح دائماً في الكمال ، ولا نزعم لأنفسنا قدرة على الوصول إلى الكلمة الأخيرة في موضوع ما .

وقد رتبت هذا الجزء على تمهيد وستة فصول . فأما التمهيد ففيه بيان (لحركة التنوير) التي اقترنت بالاحتلال الفرنسي لمصر ، وهو احتلال لم يدم فيها أكثر من ثلاث سنين ، ولكنه ترك في الحياة المصرية والعقل المصري أثراً ليس إلى إنكاره من سبيل . وفي هذا التمهيد بيان كذلك (لحركة المقاومة) التي اقترنت بالاحتلال الإنجليزي بمصر وهو احتلال طال أمده وثقل وقعه ، وساء أثره . وأما الفصول التي يتألف منها صلب الكتاب ففيها حديث عن حياة إبراهيم ، وعن جهوده الصحفية في جريدة مصباح الشرق ، وعن جهوده الأدبية الأخرى في القصة ونحوها ، وعن كتابة (ما هنالك) ، وعن منهجه في الإصلاح ، وعن أسلوبه الكتابي في نهاية الأمر .

ولم أجد ما أختم به الكتاب خيراً من أن أعرض على القارئ طائفة من النماذج التي تمده بصورة صادقة لأسلوب هذا الكاتب وطريقة تفكيره .

(وبعد) فهذا تراث أدبي مصري قريب كان على وشك الزوال ، ولكن الله جلت قدرته وفقنا إلى إنقاذه من الضياع ، حتى لا تكون هناك حلقة مفقودة من حلقات أدبنا المصري الحديث . فله الشكر على ما هدى ، وله المنّة فيما وفق ، وهو أكرم مسئول عن أن ينفع به نابتة هذا الجيل . إنه سميع مجيب .

ولا أستطيع أن أترك هذه المقدمة دون أن أقدم الشكر خالصاً إلى الشاب المهذب السيد إبراهيم المويلحي حفيد المترجم ، وسميه ، فقد أمدنا بحضرته ببعض الوثائق والمواد التي أفادتنا في هذه الترجمة .

عبد اللطيف صهري

مصر بين الاحتلال الفرنسي والاحتلال الانجليزى

او

بين التنوير والمقاومة

في طريق التتوير :

استيقظ المصريون من غفلتهم على أصوات الحملة الفرنسية ، وغمرتهم حيرة كبيرة عند رؤيتها ، وعجبوا كيف أن في الأرض جيشاً هو أقوى من جيش الممالك ، وأن في الأرض علماً غير ما يتلقونه في الأزهر الشريف !

ومضى الفرنسيون يمنعون في إثارة العجب في نفس المصريين ففتح هؤلاء النائمون أعينهم على عجائب لم تدر لهم في بال ، ولا ارتقى إليها خيال ، ولا ظنوا أنهم يعيشون حتى يروا إحداها في يوم من الأيام .

فن مطبعة تطبع الصفحات الكثيرة في ثوان ، إلى صحيفة تنقل للناس مختلف الأخبار ، من أبعد الأقطار ، إلى حياة اجتماعية غريبة يختلط النساء فيها بالرجال إلى معامل عليبة ، هي في نظرهم أدنى إلى السحر والشعوذة ، إلى كثير من أمثال هذه العجائب والغرائب .

ثلاث سنوات قضاها الاحتلال الفرنسي في مصر (من سنة ١٧٩٨ — ١٨٠١) وستة وأربعون عاماً من علماء فرنسا رافقوا الجنرال بوناپرت إلى مصر — بعض هذا في الحقيقة كان كافياً لتغيير نظر المصريين إلى الحياة ، وانبعاثهم إلى آفاق جديدة لا عهد لهم بها من قبل .

وما أقوى تلك اللفتة التي لفت إليها الجنرال بوناپرت أنظار الصفوة من المصريين في ذلك الحين ، يوم أن أنشأ لهم ما يسمى « بالديوان » فأتاح به لمصر والمصريين — لأول مرة في تاريخهم الحديث — فرصة اشتراك الشعب مع ولاته في الحكم .

وما أروع تلك الأفكار السياسية التي سرت كذلك إلى نفوس المصريين عن طريق الفرنسيين ، كفكرة الحرية ، والإخاء ، والمساواة ، والوطن ، والوطنية ، وحقوق الإنسان ، وغير ذلك من الأفكار التي أتت بها الثورة الفرنسية ؛ وإن كان الإسلام قد نادى بالكثير منها قبل ذلك بأكثر من

ألف سنة ، لولا أن نسيها المسلمون ، أو كادوا ينسونها في مصر والشرق ، من طول عهدهم بالحكومات المستبدة التي تعاورتهم ، والتي كان بينها وبين حكومة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده فرق ما بين السماء والأرض ! ثم ما كادت مصر تفيق من غفوتها حتى وجدت نفسها تسلم قيادها مختارة لذلك العبقري ، الذي أخذ بيدها إلى النهوض الحقيقي ؛ ونعني به محمد علي ، ومنذ ذلك الوقت - أو قبله بقليل - كان المصريون قد اهتموا إلى طريق النور ، فرأوا أمامهم طريقاً طويلاً له مراحل معارضة ، وصُور مرسومة ، تعرف بها كل مرحلة من هذه المراحل على حدة . كما رأوا عند كل مرحلة منها مشعلاً كبيراً من مشاعل النهضة الحديثة ، يهدي السائرين ، ويكشف لهم عما في طريقهم من زروع ونبات كريم .

ففي أول هذا الطريق كنت ترى (المشعل الفرنسي) تمسك به أيد فرنسية قوية ؛ هي أيدى علماء الحملة التي أتت مع الجنرال بوناپرت . ولقد كان هذا المشعل الفرنسي ضئلاً رائعاً يهر أعين الناظرين ، ويدمع لمعاناً قوياً على ضفاف النيل ، ويرسل بأشعته إلى مسافات بعيدة !

وفي ثانية من مراحل هذا الطريق الطويل كنت ترى (مشعل محمد علي الكبير) يهدي المصريين إلى منابع الثقافة الأوروبية الحديثة ، ويسلك في سبيل ذلك طرقاً ، منها طريق البحوث العلمية ، ومنها طريق الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، ومنها طريق المدارس الحديثة . وعند هذا المشعل الكبير كنت ترى الرائد الأول للثقافة الأوروبية في مصر ، بل القائد الأعلى لجيش الثقافة بها ، ونعني به رفاعة الطهطاوي وحول هذا الرجل جموع عديدة من جند الثقافة ومحبيها من المصريين ، كل يريد أن يقدم لبلاده أثمن ما يستطيع تقديمه من ذخيرة علمية أو أدبية ، ويتحفها بنفس ما تقع عليه عينه من جوهر العلم والأدب . وفي ثالثة من مراحل هذا الطريق كنت ترى مشعل (السيد جمال الدين الأفغاني) وحوله عدد كبير من مريديه ، وقد أيقظ في أذهانهم معاني الحرية والكرامة الإنسانية ، وغيرهم بالذل الذي ذاقته مصر على أيدي الأمم التي

ملكته وسيطرت عليها . ومن كلماته المأثورة التي كان يخاطب بها الفلاحين من المصريين في ذلك الحين قوله :

« أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت منها ما تسد به الرمق ، ويقوم بأود العيال . فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلوب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ » (١)

فيا لها من صيحات دوت دويًا هائلًا في آذان المصريين ، فحركات ساكنهم وأثارت نائهم ، ونمت في قلوبهم بغض الحقيقى لكل محتل أجنبي .

وفي رابعة من مراحل هذا الطريق كنت ترى (مشعل الجامعة الأزهرية) يجاهد ذبالبته في هتك أستار الظلام الكثيف . وعند هذا المشعل العتيق كنت تلح طائفة من علماء الأزهر الشريف . وقد أخذوا ينفضون التراب المترًا كم على بعض الكتب العربية القديمة بغية بعثها من جديد حتى تأخذ الثقافة الإسلامية القديمة مكانها إلى جانب الثقافة الأوروبية الحديثة .

وفي خامسة من مراحل هذا الطريق كنت ترى (المشعل السورى) وإلى جانبه رجال من سورية أتوا إلى مصر ، وراقتحما فيها ميدانًا لم يزل بعد بكرًا ؛ هو ميدان الصحافة .

ثم في نهاية الطريق يلح الناظر من بعيد علماء مثل الألوان يهتز في شى من الزهو أو الفخر ، ويرمز إلى الحد الذى وقف عنده نفوذ الثقافة الفرنسية فى مصر . وهكذا نستطيع نحن أن ننظر إلى هذه الحركة المباركة التي اشترك فيها

الفرنسيون من جانب ، والمصريون من جانب آخر ، والسوريون من جانب ثالث ، على أنها حركة التنوير . . وهى الحركة التي أيقظت العقل المصرى من سباته ، وأقالته من عثارة ، وأخلت بينه وبين أهواء والنور ، وجعلته يطوى صحائف النوم والكسل ، ويبدأ صحيفة الجد والعمل .

ومنذ ذلك الوقت أصبحتنا أمام عقلية مصرية حديثة الواقع أنها عقلية فرنسية المصدر رغم أن فرنسا تركتنا للاحتلال الانجليزى باعتراضها لانجليزته

بكل الحقوق في مصر . نعم — لقد انتصر نفوذ الثقافة الفرنسية الذي كان قد انتشر في مصر خلال قرن من الزمان على تسلط أجنبي لم تستطع مصر أن تفلت من قبضته إلى اليوم ،^(١) .

في طريق المقاومة

زحفت مصر إلى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وهي تحس لذة هذا الجدل الذي أفاضت فيه منذ مشرق ذلك القرن ، وتستشعر عظمة هذه النهضة التي بدأتها منذ عهد محمد علي . وإنها لماضية في سبيلها ، مسنيقة من نجاحها ، ولذا بالاحتلال الإنجليزي — عقب الثورة العرابية — يدهم البلاد ويزعج العباد . ويتنظر المصريون أن يجلو الإنجليز عن بلادهم في بضع سنوات كما جلا الفرنسيون في مثل هذه المدة . ولكنهم عثا يحاولون ، إذ بالوحش البريطاني ينشب أظفاره يوماً بعد يوم في كل مرفق من مرافق الحياة المصرية بحجة الأخذ بيد المصريين نحو الحضارة الأوربية .

ولكن لكل حضارة من الحضارات محاسنها ومساوئها . ولقد مضى على المصريين حين من الدهر كانوا فيه قد استمتعوا بمحاسن الحضارة الأوربية . وكان لابد لهم كذلك من أن تصيبهم هذه الحضارة بمساوئها ، غير أن شعور المصريين بهذا المساوئ لم يشتد في نفوسهم ، ولم يكبر في قلوبهم إلا منذ عهدهم بذلك الاحتلال البريطاني ، الذي كان مخالفاً في ظروفه كل المخالفة للاحتلال الفرنسي .

هنا أفاق المصريون إفاقة أخرى اتبهوا فيها إلى أنهم أخطئوا في اندفاعهم إلى الأخذ من الحضارة الأوربية ، وإهمال الحضارة الشرقية الإسلامية ، ورأوا أن عليهم أن يحتفظوا بشخصيتهم ، ويعتزوا بقوميتهم وديانتهم ، ويتعاضدوا جميعاً على مقاومة التدخل الأجنبي .

والحقيقة أن هذه الحركة التي سميناهم « حركة المقاومة » سارت في مراحل ثلاث :

(١) راجع مذكرات الحديو عباس حلمي الثاني وانظر ما نشر عنها في جريدة المصري بتاريخ

أولاهما — المرحلة التي ظهر فيها السيد جمال الدين الأفغانى وتلاميذه ، الذين من أشهرهم السيد عبد الله النديم والشيخ محمد عبده . وفى هذه المرحلة كان يعبر عن المقاومة أحسن تعبير وأقومه « مجلة العروة الوثقى » (١) .

الثانية — المرحلة التي ظهر فيها إبراهيم الموبلى والسيد على يوسف ومصطفى كامل ، وقد بدت المقاومة بقوة هائلة على يد الثانى والأخير من رجال ذلك الزعيل ، وكان يعبر عنها أقوى تعبير جريدتان عظيمتان ، هما جريدتا المؤيد وصاحبها على يوسف ، واللواء وصاحبها مصطفى كامل .

الثالثة — المرحلة التي قام فيها سعد زغلول بالثورة الوطنية المعروفة فى تاريخ مصر الحديث بثورة سنة ١٩١٩ . وهذه الأخيرة لا تعيننا كثيراً فى البحث ، لأن وقت الحديث عنها لم يحن بعد .

اندفع المصريون فى هذه المقاومة عقب الثورة العربية مباشرة ، ولذا الأحرار فى أول أمرهم بفرنسا ، وهناك طفقوا يتحدثون إلى العالم الإسلامى كله ، عن طريق جرائدهم التي عكفوا على كتابتها فى مدينة النور ، وإذ ذاك أعانتهم ظروف الاحتلال البريطانى على المضى فى هذه المقاومة ، على النحو الذى يشرحه هذا الجزء من الكتاب والأجزاء التالية له إن شاء الله .

أجل — كان إيمان المصرى بالحضارة الأوربية سائراً فى طريقه إلى النمو والكمال ، وكان سلطان الثقافة الأوربية يزداد فى نفوس المصريين على توالى الأجيال ، وبلغ هذا السلطان أشده فى عهد إسماعيل الذى أثر عنه أنه قال يوماً لوزيره نوبار : « إننى أريد أن أجعل مصر قطعة من أوروبا » .

غير أن هذه الموجة العنيفة — ونعنى بها موجة الافتتان بالحضارة الأوربية سرعان ما تلتها موجة أخرى جديدة ، هى موجة البغض الشديد لهذه الحضارة الأوربية ، بل النظر إليها على أنها السبب الحقيقى فيما أصاب مصر من تدهور خلقى ودينى وسياسى واجتماعى .

وهكذا نجد هذه المقاومة التي بدت من الجانب المصرى ، بل هذه الكراهية التي غذاهما الاحتلال البريطانى ، بل ذلك الشعور بالتبرم الذى نمته السياسة الاستعمارية فى الشرق الإسلامى — نجد كل هذا كافياً لظهور طوائف من المصلحين الصادقين يتلو بعضها بعضاً منذ ذلك الحين . ومن ثم اتخذت هذه الكراهية للإنجليز أشكالاً شتى ، وظهرت فى ميادين متعددة ، ومحيطات واسعة . ومنها المحيط الدينى ، والمحيط الاجتماعى ، والمحيط السياسى ، والمحيط الأدبى . والواقع أن الحديث عن كل واحد منها حديث عنها جميعها . ومع ذلك فسنتقف وقفة قصيرة عند كل محيط منها على حدة .

فى المحيط الدينى

أتى الأوروبيون مصر ، فأروها فى خمول عظيم وكسل مقيم ، وعلموا أن المصريين يعتنقون الدين الإسلامى ، فراحوا يرمون هذا الدين بالجمود ، وذهبوا يحملونه تبعاً لهذا الجبل الذى غرق فيه المصريون والشرقيون ، ثم لم يكفهم ذلك حتى شرعوا يستخرون من هذا الدين وأهله ، وينددون بالشرق وجهله ، وجاهر كثيرون منهم بهذه السخرية فى صحفهم وكتبهم وأحاديثهم الخاصة والعامة .

ثم حلت بمصر كارثة الاحتلال البريطانى ، واصطدم المصريون بالإنجليز فى ظروف شتى ، منها ظروف دنشواى ، وهو الظرف الذى كشف النقاب عن سياسة الاستعمار ، وجاء دليلاً على أن الحكم الإنجليزى فى مصر أضربها فى كل شيء ، وذلك إذا استثنينا جهود الإنجليز فى إصلاح الرى .

إذ ذاك طفق الكتاب الأحرار فى مصر ينتقدون الحكم الإنجليزى بشدة ، ويكشفون عن نيات الإنجليز بصراحة واحدة ، وبذلك أخرجوا صدر الحكومة البريطانية ، وصورها أمام العالم الأوروبى بصورة المستعمر الغاشم والحاكم المستبد .

ويومئذ لم يجد الإنجليز بداً من رمى المصريين بتهمة التعصب الدينى الذى

يخشى منه على حياة الأجانب في مصر ، ويألها من تهمة شنعاء ، وفرية باطلة ، وسياسة خرقاء ، تلك التي سلكها الإنجليز في مصر ، ومن أجلها نجم في الميدان طائفة من الكتاب المصريين الأحرار ، يدافعون عنها وعن الإسلام وعن الشرق ، وكان من أشهرهم : علي يوسف ، ومصطفى كامل ، ولطفى السيد . ولقد كان من الأفكار التي اهتدى إليها المصريون بل المسلمون جميعاً في ذلك الحين ، فكرة الدعوة إلى (مؤتمر إسلامي) ، وهي من الأفكار التي دعا إليها عبد الرحمن الكواكبي في كتابه (أم القرى) ثم وجدت صدى لها ، وميلاً إليها عند السادة البكرية المعروفين بالديار المصرية . وكان أحدهم بالفعل وكيلاً لهذا المؤتمر .

وهنا يجب أن نلفت الأذهان إلى أن الزعامة في مصر إلى ذلك الوقت كانت باقية في أيدي رجال الدين ، من علماء الأزهر ، أو من مشايخ الطرق الصوفية ، والزعامة المصرية كالكتابة المصرية ، كانت في أول أمرها في أيدي الأزهريين من علماء الدين ثم أصبحت في أيدي المدنيين من الحقوقيين والأدباء والصحفيين .

ونشرت الأهرام حديثاً لهذا الشيخ البكري الذي أشرنا إليه ذهب فيه الشيخ إلى أن هذا المؤتمر ديني واجتماعي ، ولكن لاصلة له بالسياسة ، وأن أعضائه سيدعون للبحث في أدوار الأمم الإسلامية ، التي سقطت بعد عز ، وخضعت بعدة قوة ، وأصبحت تشعر شعوراً حقيقياً بحاجتها إلى الإصلاح والترقي (١) .

وعلقت (المزيد) على هذا الحديث فقالت ما معناه .

د ... وأما الجامعة الإسلامية فقسمان : دينية وسياسية . والدينية موجودة بوجود العقيدة الإسلامية ، والسياسة غير موجودة ، ولم توجد ، ولن توجد ، لعدم وجود الرابطة بين الأمم الإسلامية ؛ وهي المصلحة

وذلك أن المسلمين إذا وجدوا جامعة سياسية إسلامية أوجد غيرهم جامعة مسيحية وهكذا ، فتكون المضرة عليهم بسبب ذلك .

معنى ذلك أن الشيخ على يوسف كان يرى ألا عودة إلى الحروب الصليبية ، وإن هذه الحروب اختفت إلى الأبد ، ومعنى ذلك أيضاً أن فكرة الجامعة الإسلامية اقترنت بفكرة المؤتمر الإسلامى ، وكان لهذا الاقتران محل واضح فى أذهان المسلمين فى أول الأمر ، ولكنهم حين أخذوا يقبلون الرأى فى الفكرتين معاً وجدوا أولاهما مستحيلة أو كالمستحيلة ، ووجدوا الثانية ممكنة ومقبولة ، وتخوف الرأى الأوروبى العام أولاً من هذه الفكرة ، ولكن سرعان ما تبين له أن المسلمين لا يعنون بها غير الإصلاح الاجتماعى والإصلاح الدينى . أما الاتحاد السياسى بين الشعوب الإسلامية يومئذ فشىء كان بعيداً عن أذهانهم ، وإن حنت إليه نفوسهم ، وتعلقت به آمالهم .

وفى جريدة المؤيد مقال بعنوان :

« رأى غربى فى الجامعة الإسلامية » كتبه « مسيو لشاتليه » مدير مجلة العالم الإسلامى جاء فيه (١) .

« الحق أن الجامعة الإسلامية ليست ذات وجود حقيقى عند المسلمين ، وإن هذا اللفظ لا ينطبق على المعنى الذى يدل عليه ، وما الجامعة الإسلامية فى الواقع إلا حجة يتوكأ عليها من أخفقوا فى سياستهم من الأوربيين ، أو واسطة لاستدرار الأموال السرية التى تنفقها الخلافة العثمانية ، أو صورة منقولة يدلون بها على حدوث الفتن الأهلية بين المسلمين ، فى حين أن فكرة الجامعة الإسلامية لا تجد لها معنى حقيقياً بين أهل الإسلام وأنهم اليوم أن تنضم كلتهم وهم لم يستطيعوا ذلك منذ ألف سنة ؟ ذلك أن الإسلام قد أنهكت قواه طريقة الحكومات السابقة فى الحكم ، فراح يدخل فى ثورة كثورة فرنسا سنة ١٧٨٩ ، وإذا كان الاسلام لم يوفق حتى الآن إلى

(١) راجع المؤيد عدد ١٥٠٨ سنة ١٩٠٧ .

لميجاد الحرية العقلية بين أهله - وبدونها لا يتأتى له أن يتمتع بحرية اجتماعية — فإنه يستعد لها ، ويهيئ الأسباب والدوافع ، إلى أن قال :

« فالجامعة الإسلامية ملفقة من حيث السياسة مسكوت عنها من حيث المجتمع ، والموجود منها رد فعل طبيعي وضروري في ذلك الوسط الاجتماعي الإسلامي الذي يعوزه الهواء ، حتى لا يقضى عليه انقاضون ، والإسلام يدافع عن نفسه ضد ذلك ، ويستخدم الأسلحة الطبيعية لتنظيم شئون أهله ، وإذنه ليس ثمة جامعة إسلامية في الحقيقة ، بل هناك ثورة تريد الإصلاح والتجديد .

ولقد كان من الوسائل التي تذرع بها المسلمون في المرحلة الأولى من مراحل المقاومة — وهي المرحلة التي تعبر عنها مجلة « العروة الوثقى » ، أصدق تعبير وأحسنه — أنهم عمدوا إلى تطهير معتقداتهم الدينية بما علق بها من البدع والخرافات وما أليها من الأمور التي أوشكت أن تصيب الدين نفسه في قواعده ، ودعوا المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة ، بحجة أنه (لا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله) .

ثم كان من الوسائل التي تذرع بها المسلمون في المرحلة الثانية من مراحل المقاومة — وهي المرحلة التي كانت « المؤيد » و « اللواء » ، تعبران عنها أصدق تعبير وأحسنه — أنهم حصروا جهودهم في الدفاع عن الدين ضد أعدائه الذين رموه بشئ التهم ، وأضافوا إليه كثيراً من النقائص عدواً بغير علم . ومن الحق أن يقال أن الشيخ محمد عبده اضطر في أواخر حياته إلى النزول في هذه المعركة ، حيث التقى بالوزير الفرنسي هانوتو ، ولكن هانوتو كان خصماً شريفاً ومعقولاً ، وكان يحتمل إلى العقل والمنطق في مجادلاته ومقالاته . وكذلك فعل الإمام أنشيوخ محمد عبده ، أما الإنجليز — وهم خصوم الإسلام في هذه المرحلة من مراحل المقاومة — فكانوا يقذفون الإسلام بهذه التهم لغايات سياسية ، أو أقل لأغراض استعمارية يريدون تحقيقها ، ولا تعنيهم الوسائل المؤدية لها .

وهكذا لم يصبح هم الكتاب الأحرار في هذه المرحلة الأخيرة مقصوراً على إصلاح الفاسد من الأفكار والعقائد ، كما كان الحال على ذلك في المرحلة التي سبقتها وإنما أصبح هم أولئك الكتاب الأحرار مقصوراً على تنظيم الدعاية Propaganda للإسلام في مشارق الأرض ومغاربها قصد صيانتها من هجوم المهاجمين ، وسخرية الساخرين ، وسوء نية المستعمرين من الأوربيين ، وكان من أشهر هؤلاء الكتاب الأحرار رجلاً هما : إبراهيم المويلحي وعلي يوسف . أما أولهما : وهو المويلحي - فسرى أنه كان أديباً بطبعه قبل كل شيء ، فاتخذ من الإصلاح الديني أو الدعاية الدينية موضوعاً أدبياً خالصاً . فهو حيناً يكتب في السخرية من العادات الأوربية التي تفشت في البلاد الإسلامية الشرقية ، وحيناً يعرض على قرائه جوانب من الحضارة الأوربية على سبيل الموازنة بينها وبين الحضارة الشرقية ، وحيناً ثالثاً يتهكم على رجال الدين من المسلمين المصريين ، ويرميهم بالتقصير في العمل على نشر دينهم في الآفاق ، كما يفعل المبشرون المسيحيون الذين يتحملون شظف العيش في جهات نائية لاتلائم صحتهم ، فضلاً عن أخلاقهم وطبيعتهم الخ .

وأما ثانيهما : وهو السيد علي يوسف - فقد كان رجلاً صحفياً وسياسياً بطبعه ، فاتخذ من الإصلاح الديني أو الدعاية الدينية موضوعاً سياسياً خالصاً وألبس آراءه الدينية ثوب الدفاع عن كيان مصر السياسي ضد الأوربيين عامة ، والإنجليز بنوع خاص . ونظر هذا الكاتب الأخير إلى موضوع الدفاع عن الدين من زاوية السياسة ، فعالج الأمر معالجة سياسية ، لادينية ، ولا أدبية على النحو الذي ستراه في الجزء الرابع من أجزاء كتابنا هذا إن شاء الله .

في المحيط الاجتماعي :

كان قادة الرأي في مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من المجددين من تلاميذ السيد جلال جمال الدين الأفغاني .

وعلى رأسهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والحاطين في حبله من المصريين المثقفين بثقافة أوربية .

وفي المعسكر الآخر من الحياة المصرية جماعة المحافظين ممثلين في رجال الأزهر والمتصلين بهم من أنصار الرأي السنّي المحافظ، ومع ذلك فقد اشترك الفريقان في الدعوة إلى المحافظة على التقاليد .

ولاشك أن المحافظة ألزم للشعوب في أوقات المحن والكوارث ، وأى محنة كانت أشد على مصر من محنة الاحتلال البريطاني ؟ لقد كان على المصريين أن يتماسكوا في أثناء ذلك كل التماسك ؛ فإن أى قدر من انتهاون في مثل هذه الظروف كان غير مأمون العواقب .

مهما يكن من شيء فعلى كواهل المجددين المعتدلين وقع عبء الإصلاح الاجتماعي . وكان أكثرهم نهوضاً بهذا العبء تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . ومنهم إبراهيم الأنولجى ، وعلى يوسف ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، والشيخ عبد القادر المغربي ؛ وغيرهم .

وهكذا أصبحنا أمام طائفة من تلاميذ الإمام يحاربون الأدواء الجديدة التى ظهرت في المجتمع . وكان بعضها نتيجة لانتشار الحضارة الأوربية الحديثة . وبعضها نتيجة لإهمال المصريين أنفسهم في هذه الحياة الجديدة . ومن هذه الأدواء - على سبيل المثال - ما فشا في مصر يومئذ من عادة المضاربة المالية ، وعادة الرشوة والمحسوية . ومنها كذلك ما اندفع إليه المصريون كذلك من اختلاط الرجال بالنساء ، وما استتبع ذلك من تطور ظاهر في الأخلاق والعادات .

أنكر الرأى العام في مصر كل هذه الأشياء ، كما أنكر اندفاع المصريين إلى تقليد الأوربيين في كل مظهر من مظاهر الحياة العامة والخاصة .

فتلك بيوت الصفوة من المصريين أوشكت أن تكون أوربية لا شرقية ، وهذه ألسنتهم قد أصبحوا يلونها لياً متصلاً بلغة أعجمية لا عربية . وتلك عاداتهم قد أصبحت ولا صلة لها بالعادات الإسلامية .

كل هذه أمور تنكر لها الرأي العام في مصر إلى أوائل القرن العشرين، ثم تلت ذلك موجة ثالثة هي موجة الرجوع إلى الأخذ عن الأوربيين؛ وهي الموجة التي تغشى حياتنا الاجتماعية في وقتنا هذا.

ولقد كان لجريدة «مصبح الشرق» التي يحررها إبراهيم المويلحي جولات موفقة في هذه السيل، كما كان لجريدة «المؤيد» التي يحررها السيد علي يوسف طرق خاصة بها في محاربة العادات الضارة؛ ومنها عادة المقامرة، وانظر إلى هذه الجريدة الأخيرة كيف تنظم الحملات الشديدة على هذه العادة النميمة، من ذلك أنها نشرت في بعض شهور سنة ١٩٠٧ خطاباً هذا نصه:

عطر فتلو ناظر الداخلية:

أنا الموقع اسمي أدناه أضرم صوتي إلى سائر المسترحمين، وإلى فدياه المؤيد، وأتمس من سعادتك إنقاذ الناشئة الوطنية والأمة بأسرها من محلات المقامرة على اختلافها.

الإمضاء

الإسم والشهرة

العنوان

ودعت المؤيد كل غيور على الأخلاق في مصر إلى نزع هذه الأسطر من الصحيفة، وإمضاءها، وإرسالها إما إلى المؤيد، وإما إلى ناظر الداخلية رأساً، واستجاب الجمهور المصري إلى هذه الدعوة حتى أسمع الحكومة صوته، فأخذت الحكومة من جانبها تحارب هذه الدور.

وأما الرشوة فقد فشلت كذلك في موظفي الحكومة، حتى اضطر اللورد كرومر إلى ذكرها مراراً في تقاريره. ومن ذلك ما جاء في تقريره عام ١٩٠٦ «أما بخصوص الرشوة فإني أعرف عدة حوادث اشتكى منها أشخاص، هم غالباً من ذوي الحثييات، وذلك بما فرضه عليهم إنجاز أعمالهم الموظفون

الصغار في نظارة الأشغال العمومية وغيرها من المصالح الحكومية .
وردت المؤيد على اللورد . ولكنه مضى في اتهام المصريين بهذه الجريمة ،
وذهب إلى أن إنشاء وزارة مسئولة أمام مجلس نيابي يمثل أغلبية الأمة ،
مطلب من مطالب الوطنيين في مصر . ولكن يحول دون تحقيقه ما شاع
ينهم من الرشوة ، ومن الميل إلى الدسائس ونحو ذلك من الأمور التي تعطل
الحكومة الدستورية ، وتجعل مهمة الوزارة المسؤولة من أشق الأمور !!
وما دام هذا الداء الاجتماعي قد أصبح في نظر الإنجليز مسألة سياسية ،
فهنأ وجب على الكتاب الأحرار من أمثال المويلحي وعلى يوسف أن
يعنوا بالأمر ، وأن يكتبوا في الرد على اللورد ، وفي ردع المصريين عن
يلجئون إلى هذه العادة القبيحة التي يأخذون بها في تقريره ، ويتخذ منها ذريعة
لحرمان المصريين جميعاً من التمتع بالحكم الذاتي .

ولقد كان لذلك كله صدى في الأدب المصري - كما سيأتي الحديث عن
ذلك - ففي شعر حافظ إبراهيم تسمع شكوى هذا الشاعر الاجتماعي الكبير
من تكاسل المصريين ، وانغماس شبيبتهم في اللهو والمجون ، ومن ذلك قوله :

أفي الأزبكية مثوى البنين وبين المساجد مثوى الآب ؟
وكم ذا بمصر من المضحكات كما قال فيها أبو الطيب
أنا بته العصر إن الغريب يجد بمصر فلا تلعب

وهكذا كان شعراء مصر في ذلك الوقت يتحدثون في أشعارهم عن
التدهور الخلقى على أنه حقيقة واقعة ، ويوازنون بين كسل المصري وجد
الأجنبي ، على أنه من الأمور التي لا بد من علاجها ، والتفكير في إيجاد حل
ملائم لها .

في المحيط السياسي :

طال أمد الاحتلال البريطاني في مصر ، ونسيت الحكومة الإنجليزية

أو تناسست وعود الشرف التي قطعتها مراراً على نفسها بالجللاء الناجز عن هذا القطر ، ولم يبق إلا أن يجاهر المصريون بعدائهم للحتل ، وأن تتخذ المقاومة في المرحلة الثانية شكل حركة وطنية يشترك فيها الجميع ، ويومئذ انقسم المصريون إلى متطرفين ومعتدلين ، ولكنهم لم يختلفوا تقريباً في الغاية التي يهدفون إليها ، وهي إجلاء الإنجليز ، والظفر بالدستور . ومن ثم نشأت الأحزاب السياسية ، وإن كان ظهورها بشكل رسمي قد جاء متأخراً بعض الشيء . وكان من أهم هذه الأحزاب اثنان هما : الحزب الوطني وهو حزب المتطرفين بزعامة مصطفى كامل ، وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، وهو حزب المعتدلين بزعامة علي يوسف (١)

ولم يكن إبراهيم المويلحي متصلاً إلى حزب من هذه الأحزاب التي بدى في تكوينها بعد وفاته . وإن كان في الحقيقة — كما يلوح للباحث — من المصلحين المعتدلين . أو قل أنه كان يعتبر تليذاً للشيخ محمد عبده ، يرى رأيه في الإصلاح ، ويأخذ مثله بنظرية الاعتدال ، ويرى فيه المحقق للغرض . والمهم أنه بعد أن كنا في المرحلة الأولى من مراحل المقاومة — وهي المرحلة التي ظهر فيها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ، أمام حركة تهدف إلى تحرير الشعوب الشرقية ، أو حركة يمكن بشيء من التساهل أن نطلق عليها اسم « الجامعة الإسلامية » أصبحنا في المرحلة الثانية من مراحل المقاومة — وهي المرحلة التي ظهر فيها علي يوسف ومصطفى كامل أمام حركة ضيقة ولكنها متعمقة ، تهدف أولاً إلى استقلال وادي النيل ، وتتخذ لها عبوة من الشعوب الأجنبية التي ناضلت عن استقلالها ، وظفرت بدستورها .

أما إبراهيم المويلحي فكان كصاحبه يدعو إلى استقلال الوطن من جهة ويحفظ بشيء قليل من الهوى والميل إلى الجامعة الإسلامية من جهة ثانية . ومع أن التاريخ يؤيدنا في فهم الحركة الوطنية في ذاتها على هذا النحو

(١) سبق هذين الحزبين إلى الظهور (حزب الأمة) الذي هو أول الأحزاب المصرية .

فإننا نجد اللورد كرومر يقول في بعض تقاريره (١) :

« .. وإذا كان غير صحيح مطلقا أن يقال أن الحركة الوطنية المصرية هي بأجمعها حركة جامعة إسلامية ، فمن المحقق بها أن صفة هذه الحركة وتلك حقيقة اجتبرتها من زمن طويل ، ويراها اليوم ولو أخيراً عدد من الأوربيين المقيمين في مصر إذا رجعوا إلى ما تنشره الصحافة المحلية عن ذلك . وأنه لمن السهل — إذا قضت الضرورة — أن تقدم أدلة عديدة تؤيد هذه الحقيقة ، ومهما يكن الحال فن الواضح أن الجامعة الإسلامية هي عامل مهم في الحياة المصرية يجب الاعتراف به ولو إلى حد محدود . لهذا كان من الضروري أن ندرك معنى هذه الكلمة إذ يطلقون الجامعة الإسلامية للدلالة على اتحاد مسلمي الدنيا بأجمعها ، تعجيز الدول المسيحية ومقاومة لها . ولو نظر إليها بهذا الشكل لوجب بالتحقيق مراقبة الحكومة بواسطة الأمم الأوربية ذوات المصالح السياسية في الشرق ، لأن هذه الحركة يمكن أن تؤدي إلى انفجار حوادث تعصب في أقطار متعددة ، ولقد وجدنا أنفسنا على قيد خطوتين من هذا الانفجار في الربيع الماضي بمصر .. »

هكذا كان فهم الإنجليز — إلى نهاية عهد كرومر — للحركة الوطنية المصرية ، وقد سبق أن تعرضنا لهذا الرأي ، وأيدنا فيه رأى جريدة المؤيد التي قالت إن الجامعة الإسلامية لها وجود فعلي من حيث الدين ، ولكن لا وجود لها مطلقا من حيث السياسة . وسنرى في بعض فصول هذا الكتاب عناية المويلجي بفكرة الجامعة الإسلامية بهذا المعنى ..

وإذا كنا لم ننس في هذا التمهيد أن نوازن بين ماصنعه الاحتلال الفرنسي لمصر ، وما صنعه الاحتلال البريطاني لها ، فينبغي أن نذكر هنا أن الاحتلال الأول على يد الجنرال بوناپرت أبدى رغبة شديدة في مساعدة

(١) راجع تقرير كرومر عنه سنة ١٩٠٦ ، والرائجة له وتايضا بجريدة المؤيد بتاريخ ٥ أبريل ١٩٠٧ .

المصريين في أن يشتركوا في حكم أنفسهم بأنفسهم ، على حين أن الاحتلال الثاني بدأ مقاوماً لمثل هذه الرغبة، فقد كان اللورد كرومر — لسوء حظه وحظ مصر معه — رجلاً استعماريّاً بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى ، فكان لا يستمع — مثلاً — إلى رأى بعض الساسة المعتدلين من الإنجليز في مثل قوله : « عندما ندرك أن مبدأ (مصر للمصريين) ليس دسيّة شيطانية موجهة إلى الإنكليز ، بل هو في الحقيقة نتيجة لا بد منها للبدا العام الذي أحببناه فيهم بتقاليدنا — إذ ذاك نعلم ماهية العمل الشريف المفروض علينا إتمامه في مصر . فقد كان من حسن حظنا أننا بدأنا به . ويكون من حسن حظنا كذلك أن نوصله إلى دوره النهائي — دور الكمال ، إننا إذا سعينا وراء إنصاف مصر — مهما كلفنا ذلك من العناء — فإن عملنا هذا يقيد المصريين برابطة ولاء لنا لا تقدر أشد الحوادث على حل عراه » (١).

في المحيط الأدبي :

ليس شك في أن الأدب كان ظلالاً لجميع هذه الأحداث الدينية والاجتماعية والسياسية . وجاء هذا الأدب بشعره ونثره وصحافته وخطابته معبراً أصداق تعبير عن جميع الأفكار السائدة في مصر في تلك الفترة .

فأما من حيث الدين فقد دافع هذا الأدب المصري دفاعاً حسناً عن الإسلام ؛ وهو الدين الذي أبدى پوناپرت عظيم احترامه له ، سواء أكان صادقاً في احترامه أم غير صادق . على حين أن كرومر نزعت به منازع السياسة الإنجليزية الصلبة إلى أن ينهش أعراض المسلمين ، ويسدد طعناته النجلاء إلى قلب هذا الدين . فتعرض بذلك لسخط المصريين وازدراء الأوروبيين في وقت معاً ، وتصدى للرد على كرومر جماعة من الكتاب من أهمهم صاحب المؤيد ، ثم الكاتب الذي سيستأثر لهذا البحث ؛ وهو إبراهيم

(١) راجع المؤيد — العدد ٥١٧٩ — بتاريخ ٢١ يونيو ١٩٠٧ حيث ترى ملامحها منى . امپو استعبد في: بكلام المستر فریزر بلاير، ومنه العبارة المتقدمة .

المويلحي . وفي فرنسا تصدى للرد على كرومر كثير من الصحف التي سبق لها أن عرفت الشيء الكثير عن الإسلام والمسلمين ، وسبق لها أن درست كل ذلك منذ اللحظة التي وُطئ فيها بونابرت أرض القراعنة . وأكثر من هذا وذاك أن وجدنا بعض الصحف الفرنسية تدافع عن الإسلام وعن حضارة الإسلام ، وتضرب المثل بحضارة بغداد ، ثم حضارة قرطبة ، ثم حضارة مصر ، كما ضربت المثل بتلك الثقافة الإسلامية التي أطلقت الفكر من عقالة في الوقت الذي كانت فيه أوروبا غارقة في بحار من الأوهام والجهالة (١) .

وأما من حيث اللغة العربية فقد اشترك في الدفاع عنها في المرحلة الثانية من مراحل المقاومة كل من علي يوسف والمويلحي ، وغيرهم من كتاب جريدتي المؤيد ومصباح الشرق ووقف الشعراء صفوفاً إلى جانب الكتاب يدافعون عن هذه اللغة ، وطالب الجميع الحكومة المصرية بأن تجعل العربية لغة التعليم الرسمية في جميع المدارس على اختلافها . وإن ينس مؤرخ الأدب فلن ينسى تلك القصيدة الرائعة التي نظمها حافظ إبراهيم دفاعاً عن اللغة العربية . وهي قصيدة يحفظها أكثر المتعلمين في مصر إلى وقتنا هذا ومنها قوله :

رجعت لنفسى واهمت حصاني	وناديت قومي واحتسبت حياتي .
رموني بعقم في الشباب وليتني	عقمت فلم أجزع لقول عداي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي	رجالاً واكفاء وأدت بناتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية	وما ضقت عن آي به وعظاتي
فكيف أضيق اليوم عن وصف آله	وتنسيق أسماء لمخترعات ؟ (٢)

وأما من حيث السياسة فبصرف النظر عن الصحافة نجد الشعر المصري يخوض هذا الميدان . وكان من أسبق الشعراء اشتراكاً في السياسة رجلان هما : إسماعيل صبري وحافظ إبراهيم . ثم انضم إليهما أحمد شوقي بعد ذلك

(١) راجع ترجمة مقال بهذا المعنى في جريدة المؤيد - العدد ٥١٣٩ - ١٣/٤/١٩٠٧

(٢) ديوان حافظ إبراهيم - ص ٢٥٣ .

وقد نظم هؤلاء كثيراً في نقد اللورد كرومر ، وحادثة دنشواى ، ونقد الوزراء المصريين والتعريض بهم ، ونقد السياسة الخارجية ونحو ذلك .

أما إبراهيم المويلحى — بنوع خاص — فقد عمد إلى محاربة الاحتلال الإنجليزى بطريقة أدبية لا سياسية أو صحفية ، وشرع يكتب قصته (موسى ابن عصام) التى أبدى فيها عداوته للاحتلال ، ثم حيل بينه وبين إتمام هذه القصة على النحو الذى سنشرحه للقراء فى كتابنا هذا إن شاء الله .

وأما من حيث المجتمع فقد رأينا كيف تصدت الصحف المصرية لحماية الأخلاق ، وحماية المجتمع نفسه من بعض العادات الضارة ؛ كعادة المقامرة وعادة المضاربة . وعادة الشراب والتهالك على الملاذ ونحو ذلك . كما اشترك الشعر المصرى فى هذا الميدان . وسمعنا شاعراً مصرياً كحافظ إبراهيم يخاطب (الأزبكية) فى شعر له فيقول :

كم وارت غض الشباب رميته بغرام راقصة وحب هلوك
ألبسته الثوبين فى حالهما تيه الغنى وذلة المفلوك (١) .

على أن مؤرخ الأدب المصرى الحديث لا يستطيع أن يهمل فى بحث له طويل أو قصير ذكر «الصالونات الأدبية» أو تلك الأندية الأرستقراطية التى كانت تجذب إليها صفوة المصريين من كتاب ، وشعراء ، وخطباء ، وسياسيين ، وعلماء ، ومعلمين ، وصحفيين ، ومهندسين . حيناً يجمعهم (صالون الأميرة نازلى فاضل) وحيناً يجمعهم (صالون إسماعيل صبرى) ، وحيناً يجتمعون فى (منزل على باشا مبارك) . وحيناً يجتمعون فى (منزل سعد باشا زغلول) ، وحيناً فى (منزل لطيف باشا سليم) وهكذا .

على أن صالون الأميرة نازلى فاضل كان أهمها جميعاً ، وكان أشدها

تأثيراً في الحركة الأدبية والحركة السياسية . فمن حيث الأولى كان منتدى هذه الأميرة منزل الوجى بالقياس إلى أكثر الشعراء والكتاب الذين اختلفوا إليه في ذلك الوقت ، ومن حيث الثانية كان هذا النادي مولد الحزب الوطنى الذى كان يضم إليه صفوف القوم في مصر ، ومعهم رؤساء الوزارات المصرية ؛ كشریف ورياض وغيرهما ، وأعيان البلاد كسلطان (باشا) ولطيف سليم (باشا) ، وشاهين (باشا) . وعمر لطفي (باشا) وراغب (باشا) وغيرهم ممن تألفت منهم هذه الجماعة التي عرفت بالحزب الوطنى .

ولا يستطيع مؤرخ الأدب أن ينسى كذلك (دار المؤيد) وغيرها من دور الصحف الأهامة في مصر في ذلك الوقت ؛ كالأهرام ومصباح الشرق . وفيها أى في هذه الدور كان يجتمع برئيس التحرير خليط عجيب من المستنيرين . وإذ ذاك يتطرق الحديث ينهم إلى مسائل شتى في الأدب والاجتماع والسياسة والتعليم والاقتصاد والأخلاق ونحو ذلك وناهيك بعظم الأثر الذى تتركه هذه الأحاديث في نفوس سامعيها عما لا يدع مجالاً للشك كذلك في فائدتها لجميع هذه المرافق التي أشرنا إليها .

وإلى جانب (الصالونات) الأدبية الأرستقراطية كانت ثم (صالونات) ديمقراطية . ونعني بهذه الأخيرة ما كان يجتمع هنا وهناك من جماعات اناس الذين يتحلقون كل ليلة على أبواب الحوانيت العامة . فهذه حلقة أدبية بجانوت بزاز ، وهذه حلقة أخرى بجانوت كواء أو عطار أو نساج وهكذا . وفي تلك الحلقات كنت ترى الشيخ الأزهرى إلى جانب الفتى العصرى إلى جانب الشاعر أو الكاتب المغمور ، إلى جانب الأديب المشهور ، أو العالم الكبير . وجميعهم يتحدثون في شتى الأمور السياسية والاجتماعية والدينية والأدبية حديثاً طلقاً من القيود ، محبباً إلى النفوس ، باعثاً على اللذة المغنوية والفنية .

الحق أن القرن الماضي في مصر قد أتاح لابنائته من سعة الوقت مايسمح

لهم باقتناص هذه اللذائذ التي تتحدث عنها ؛ وهي اللذائذ التي حرمت منها الجماعات في عصرنا هذا - عصر الازدحام ، وعصر الآلة ، وعصر السرعة .

كتاب عهد الاحتلال :

والخلاصة التي نريد أن نخرج بها من هذا التمهيد هي أن يقظة المصريين في القرن الماضي اتخذت لها طريقين هما : طريق التنوير ، وطريق المقاومة بعد انتوير . . أما أولهما فبدأ بالاحتلال الفرنسي لمصر ، وأما الثاني فبدأ بالاحتلال البريطاني لها .

وهذا الكتاب يتناول حول البحث في شخصية من شخصيات الدور الثاني ؛ ونعني به دور المقاومة ، بل في المرحلة الثانية من مراحل هذا الدور الأخير وهي المرحلة التي قوى فيها سلطان الإنجليز ، وحكموا فيها البلاد المصرية حكماً يوشك أن يكون مطلقاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى .

والحق أنه وسط هذه الظروف التي شرحنا جانباً منها ، وضجيج الحوادث التي أشرنا إشارة عابرة إلى أهميتها منها نشأت طائفة حديثة من الكتاب وقادة الرأي في البلاد ، واتخذوا الصنف مجالا لأفلامهم ، وميداناً لعرض أفكارهم وكان لهذه الأحداث كلها صدى في نفوسهم ، ووقع عظيم في أذهانهم ، وكان من نتيجة هذا التأثير ما خلفه لنا أولئك القادة والكتاب من ثروة أدبية وصحفية طبعت بطابع السخط على الاحتلال البريطاني ، وطابع الثورة على أوروبا وما يرد منها . وقد علمت من جميع هذه الأحاديث أنه كان من أشهر أولئك الكتاب ثلاثة يصح أن تطلق عليهم اسم (كتاب عهد الاحتلال) وهم : إبراهيم الميличи ، والسيد علي يوسف ، ومصطفى كامل .

ما أول الثلاثة فهو عدو الحضارة الأوروبية في أي شكل من أشكالها . وأما الثاني فهو نصير الخديو عباس الثاني وعدو اللورد كرومر بوصفه جبار الاحتلال البريطاني .

وأما الثالث فهو مشعل الحركة الوطنية وزعيمها ، وهو داعية مصر في أرجاء العالم المتمدن والمدافع عن حقوقها .

والأول وهو المويلحى أدناهم جميعاً إلى الأدب ، وأقربهم جميعاً إلى محيطه ، وأكثرهم جميعاً تهيؤاً له ، وقد جاء أسلوبه في الكتابة أدبياً أكثر منه صحفياً .

والثاني : وهو على يوسف أدناهم جميعاً إلى الصحافة ، وأقربهم جميعاً إلى محيطها ، وقد جاء أسلوبه صحفياً أكثر منه أدبياً بهذا المعنى .

وأما الثالث : وهو مصطفى كامل — فهو خطيب مصر السياسى ، وزعيمها الوطنى ، وداعيتها القوى ، وقد أثر كل ذلك فى أسلوبه تأثيراً واضحاً ، فجاء أسلوبه حماسياً لا أكثر ولا أقل .

هؤلاء إذن هم كتاب عهد الاحتلال فى مصر ، وقد خصصنا كلامهم فى كتابنا (أدب المقالة الصحفية) بجزء . وهانحن أولاء نقدم للقراء الجزء الخاص بالمويلحى ، راجين أن تقدم لهم فى نفس الوقت جزءاً خاصاً بعلى يوسف ، وآخر خاصاً بـ مصطفى كامل ، والله الموفق .

ابراهيم الموشى

١٨٤٤ - ١٩٠٦



الفصل الأول

حياة إبراهيم المولحي

لئن افتخر الجيل الذي نحن من أبنائه بالكثيرين ممن تخرجوا في المدارس والجامعات ، لقد كان من حق الأجيال التي سبقتنا في القرن الماضي أن تفخر بالكثيرين من أصحاب المواهب الخاصة ، ممن لم يتخرجوا في جامعة ولا مدرسة . ولئن افتخر الجيل الحاضر بهذه المؤسسات الكثيرة كالمعاهد والجامعات ، لقد كان من حق الأجيال السابقة في القرن الماضي أن تفخر بالمجالس الأدبية، سواء ما كان منها أرسقراطيا كمجلس الأميرة نازلي،^(١) ومجلس البارودي ، ومجلس إسماعيل صبرى ، وما كان منها شعبيا ديمقراطيا ك هذه الجماعات التي كانت تنحلق دائما حول التجار على اختلافهم من زار وكواء وعطار ونحو ذلك .

وكما كانت المجالس الأدبية ، الأرسقراطية ، تجذب إليها من شيوخ الأدب بعض سرارة انقروم وبعض اشباب المثقف ، فقد كانت الحلقات الأدبية الشعبية تجذب إليها أخلاطاً من شيوخ الأزهريين ، وبعض المتعطشين من اشباب إلى الظهور في عالم الأدب ، أو النبوغ في ميدان الشعر والخطابة والكتابة . وكان هؤلاء هؤلاء يجدون في هذه المجالس الصغيرة من اللذة والمنتعة ما يصرفهم ، ويصرف التجار معهم حتى عن العمل الذي يكسبون منه العيش . ألم نقل عن « عبد الله النديم » أنه كان يعيش هذه المجالس الأدبية

(١) الأميرة نازلي هي كريمة مصطفى فاضل (باشا) أخى الحديو إسماعيل وكان يختلف إلى صالونها الأدبي كثيرون من هبة القوم ومنهم على سبيل المثال سعد زغلول ، وأحمد زور ، وقاسم أمين ، وإبراهيم الملباوى والسيد أحمد الحنفى المحامى والمولحي الكبير والصغير وغيرهم .

على اختلاف درجاتها؟ وأنه أفاد منها شيئاً ليس إلى إنكاره من سبيل ؟
وهذا الذى قلناه عن النديم نقوله الآن عن إبراهيم المويلحى .

انحدر هذا الفقى من أسرة سنتحدث الآن عنها . وكان له أخ أصغر
منه يسمى عبد السلام ، وكان أبوهما السيد عبد الخالق المويلحى يريد أن يجعل
من إبراهيم تاجراً . ومن عبد السلام أديباً أو عالماً ، فبعث بهذا الأخير إلى
الأزهر ، وترك إبراهيم - لأنه الكبير - فى متجره الذى كان يعمل به
فى تجارة الحرير ، ولكن القدر حكيم أراد غير ذلك . فخرج عبد السلام
من الأزهر واحترف التجارة ، ولم يلتحق إبراهيم بالأزهر وازم المتجر ،
ولكنه تلمذ لحسن حظه وحظ الأدب والصحافة على عطار كان له حانوت
بجوار متجر السيد عبد الخالق المويلحى والد صاحب الترجمة ؛ وكان هذا
العطار عالماً فى الفقه واللغة والأدب وغير ذلك من علوم الأزهر . ومن
نواد ما حكى عن المويلحى فى صلته بهذا العطار العالم أنه كان إذا أصبح
الصباح وذهب لفتح متجر أبيه بقى فيه لحظات قصيرة ريثما يأتى جاره العطار
وإذا ذاك يجلس إليه إبراهيم ليتلقى عنه دروساً فى الأدب والنحو والبلاغة ؛
وكان الفقى يعلم أن ذلك لا يرضى أباه ، فكان يحتاط الأمر ويكل إلى بواب
اسمه « على الأشمونى » ليقف على قارعة الطريق ، حتى إذا رأى السيد
عبد الخالق مقبلاً من بعيد أمرع فأخبر إبراهيم ، ليرك أستاذة العطار على
عجل ، ويعود إلى المتجر متظاهراً بالشغل به طيلة الوقت !

أسرة المويلحى :

بيت المويلحى من البيوتات القديمة فى مصر وهو ينتمى إلى الحسن
والحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام ، وقيل أن هذه الأسرة نزحت
إلى « المويلح » وهى بلدة فى جزيرة العرب على شاطئ البحر الأحمر سنة ٥٠ هـ .

(١) أطلقى حضرة إبراهيم (أندى) المويلحى على سورة شمسية المحضر تبينت فيه كل
ما ذكرته .

للهجرة . وبقى أفراد هذا البيت يتولون أمر هذا الثغر مدة كبيرة من الزمان حتى أصبحت الجزيرة العربية تابعة للدولة العثمانية ، واتخذ السلطان سليم من أبناء هذه الأسرة وكلاء عنه في بلدة « المويلح » . ومنذ ذلك التاريخ اشتهرت أسرة المويلحي باسم « أسرة الوكيل » . وقيل أيضاً أن الجد السادس عشر لهذه الأسرة ، وهو السيد محمد أبو السرور ، شيد قلعة في « المويلح » لحمايتها ولإيواء الحجاج المارين عليها ولإطعامهم في طريقهم إلى الكعبة . ثم في عام ١١٨٠ هـ رأينا حاكم المويلح ، وهو يومئذ السيد مصطفى حفيد السيد أبي السرور الذي سبق ذكره يطلب من السلطان أن يعث إليه بأمرائه الأوجاقات السبعة وقضاة الشرع ليشهدوا - حسب العادة والعرف - إذ ذاك - بما تم في القلعة من ترميمات ، فجاءوا إليها وشهدوا كل ذلك وقدروا نفقاته ، وكتبوا به سجلاً رفعوه إلى السلطان ، وكان هذا الأمير ونعني به السيد مصطفى المويلحي الوكيل يتاجر فوق ذلك في الحرير ، وقد أسس له عام ١٧٧٥ م وكالة مشهورة بصناعة هذا النسيج بمدينة القاهرة ، تاركا أمر إدارتها إلى ابنه السيد أحمد المويلحي ، ويقال أنه منذ ذلك التاريخ انقسمت أسرة المويلحي قسمين :

قسم ظل يحكم ثغر المويلح ويقال أنه لم يزل هذا الثغر إلى اليوم ، وقسم أتر الديار المصرية بالرحلة إليها والإقامة فيها ، فبقى هناك حتى تولى عرش البلاد محمد علي (باشا) الكبير عام سنة ١٨٠٥ م . ومنذ ذلك التاريخ نشأت صلة قوية ، وصداقة متينة بين هذه الأسرة وبين والى مصر وبعض رجاله سنتحدث عنها ، ووجدنا بالفعل بين أفراد هذه الأسرة رجلاً اسمه إبراهيم المويلحي وهو ابن السيد أحمد المويلحي وجد إبراهيم المويلحي صاحب الترجمة ، وقد اتصل بحبيب أفندي كتحدا محمد علي واتخذ السكتة كاتباً له ، وكان لإبراهيم ولع بالأدب عظيم ، وعناية باللغة كبيرة ، ويحكى أن السيد أحمد المويلحي كان يحكم ثغر « المويلح » بعد أبيه السيد مصطفى وذلك في الوقت الذي جهز (٣ م - أدب المقالة العصفية ج ٢)

فيه محمد علي الكبير حملته المشهورة لمحاربة الوهابيين سنة ١٨١١ م ، وحين نجحت الحملة في تسكين فتنة الوهابيين وطردهم من ثغر « المويلح » ، وذلك بفضل المعونة التي قدمها السيد أحمد ، وصلت الأنباء إلى « محمد علي » بمصر فسر بها كثيراً ، وكتب بها إلى السلطان وطلب منه الإبقاء على السيد أحمد المويلحي وكيلا عنه في ثغر المويلح ، فوافق السلطان على ذلك .

ثم في ١٨١٢ م أتى السيد أحمد لزيارة ابنه إبراهيم في مصر ، فوجد الوالي مشغولاً بتجهيز حملة أخرى إلى الحجاز ، وسمع أنه بحاجة في هذه المرة إلى ستائة كيس من المال ، فتحركت في نفس السيد أحمد أريحية عربية حملته على أن يدفع هذا المال كله إلى محمد علي ، فقبل الوالي منه ذلك شاكراً ومحتسباً له ولأسرته هذا الجليل .

وتوفي السيد أحمد المويلحي سنة ١٨١٣ م فامر محمد علي بدفنه في مسجد الإمام ، وتولى ابنه إبراهيم تجارة أبيه في الحرير ، وأثمرت تجارته ونمت وجلبت له ولأسرته المال الوفير . ثم إن محمد علي لم ينس لأبيه ذلك الصنيع فعينه في سنة ١٨٢٧ م عضواً في مجلس فصل دعاوى بين التجار .

وتوفي السيد إبراهيم ، تاركاً ابنه السيد عبد الخالق في سن الستين ، وبقى السيد عبد الخالق يتولى تجارة أبيه وحده في الحرير ، وهي تزداد في يده نماء وإثماراً ، حتى رزق بولديه إبراهيم وعبد السلام . وبقى هذان الأخوان في رعاية أبيهما ، وكان ظن أبيهما — كما قلنا — أن يكون إبراهيم وهو الأكبر - تاجراً وعبد السلام عالماً ، ولكن شاءت الأقدار أن تخالف هذا الظن ، وأن تظهر في إبراهيم ميول أدبية قوية لم يستطع مقاومتها ، ولم ير بدأ من الاتصال لأجلها بحانوت العطار ، الذي قلنا أنه كان يحفظ كثيراً من علوم الأزهر ، وأخذ عنه إبراهيم شيئاً غير قليل من هذه العلوم التي منها البلاغة والأدب والنحو والعروض .

سيرة ابراهيم المويلحي الخاصة :

توفي السيد عبد الخالق سنة ١٨٥٦ م تاركا لابنيه عبد السلام و ابراهيم ثروة كبيرة ، كان خليقاً بهما أن يحتفظ بها ، ولكنهما أضاعا جانباً كبيراً منها في المضاربات المالية التي فتن بها ابراهيم بنوع خاص ، وكانت مصر حديثة عهد بهذه المضاربات التي كانت تبهر الناس بسرعة ما تفجؤهم به من الإثراء ، قال إليها الكثيرون من سراة مصر في هذا الوقت وأضاعوا فيها ثروتهم ، وأصبحت بيوتاتهم كأن لم تغن بالأمس ، وكان ابراهيم من هؤلاء الذين لا يقنعون بما في يدهم من الغنى ، فراحوا ياتمسسون أكثر منه بهذه الطرق ، واتسعت تجارة هذه الأسرة في الحرير بعد وفاة السيد عبد الخالق المذكور ، واشتهر بها أمر ابنه ابراهيم حتى أصبح عضواً في مجلس التجار ، فعضواً في مجلس مصر الابتدائي ، غير أن ذلك كله لم يصرف ابراهيم عن الأدب برغم أن الأدب كان يومئذ مهنة الفقراء . وأخذ يتصل بكثير من كبار الأدباء ، واشترك مع أحدهم إذ ذاك واسمه عارف (باشا) في تأسيس «جمعية المعارف» وغرضها نشر الكتب القيمة وتقرئها للقراء بصورة ملائمة ؛ وكان تأسيس هذه الجمعية سنة ١٨٦٨ م. ثم أنشأ المويلحي لهذه الجمعية مطبعة عرفت كذلك باسم «مطبعة المعارف» وقامت هذه المطبعة بنشر طائفة صالحة من الكتب أهمها «قاموس تاج العروس» ورسائل بديع الزمان ، وسلوك الممالك، وألف باء ، وكتاب أسد الغابة ، ومحاورات الأدباء والشعراء والبلغاء ، وهكذا كان لهذه الجمعية شأن يذكر في تاريخ النهضة العلمية الحديثة ، ولجأة رأينا ابراهيم المويلحي يتجه بعد ذلك إلى الصحافة ، وكان أول ما فعله من ذلك إصدار جريدة «نزهة الأفكار» بالاشتراك مع أحد الأدباء المشهورين إذ ذاك وهو عثمان جلال . ولم يكن لمصر من الجرائد الشعبية يومئذ غير جريدة «وادي النيل» لصاحبها أبي السعود . غير أنه ظهر أن جريدة «نزهة الأفكار» كانت من الخطورة على الرأي العام بحيث أشار شاهين (باشا)

يوئذ على الحكومة بتعطيلها خرفا من جرأة كاتبها ، ولذلك رأت الحكومة القائمة أن تصدر أمرها بتعطيل هذه الجريدة ، ولم يكن قد صدر منها غير عديدين لا ثالث لهما . ومن ثم ترك إبراهيم العمل في الصحافة هذه المرة مكرها ، وطفق يقضى وقته بعد ذلك في مضاربات « البورصة » التي لم تلبث كما قلنا أن استنزفت ثروته وثروة العائلة ، وكانت في نظرنا دليلا على مزاج هذا الأديب ، وهو مزاج سريع التقلب إلى درجة تلفت نظر المؤرخ كما سترى ذلك بعد .

وكادت هذه الأسرة العريقة تتعرض للتلف لولا يد إسماعيل العظيم الذى ذكر لهذه الأسرة فضلها القديم ، ورأى أن يستدعى الآخرين عبد السلام وإبراهيم فتلا بين يديه فقال : من منكما الأكبر ؟ فقال إبراهيم : عبدكم يا مولاي فسأله : كيف تسير أعمالكما التجارية بعد موت أيكما ؟ فقال إبراهيم : إن عليها عند عبد السلام لأنى انقطعت للعلم والأدب ، فالتفت الخديو إلى عبد السلام فتقدم وبسط الحالة التجارية والمالية . وهنا تناول الخديو ورقة وخط فيها بيده الكريمة سطرين وناولها إبراهيم ليسلمها لرئيس الديوان^(١) وخرج الآخرين من حضرة إسماعيل ، وإذا بأحدهما وهو إبراهيم عضو فى مجلس الاستئناف براتب شهرى قدره أربعون جنيهًا ، وإذا الثانى وهو عبد السلام فى يده إذن بمبلغ أربعة آلاف جنيه أصلح بها حال تجارته ، ونهض بها من عشرة وعشرة أسرته .

ولم يكتف إسماعيل بذلك ، بل أنعم على الآخرين الشقيقين بالرتب والنياشين ، وأصدر أمره لسيدات القصر ألا يلبسن غير الحرير الذى تنتجه مصانع المويلحى . ثم أمر كذلك بإعداد كميات كبيرة من هذا الحرير فأرسلت إلى معرض فينا فى تلك الأيام ، ومنذ ذلك الوقت اشتدت الصلة

(١) انظر مقالا لإبراهيم (أفندى) للميلحى بالعدد ٢٤٩ من مجلة الرسالة بالقاهرة .

بين الخديو إسماعيل وأسرة المويلحي ، ووطن إبراهيم نفسه على الإخلاص ما عاش لهذا الوالى ولأولاده من بعده .

وبقى إبراهيم فى العمل الحكومى الذى عينه فيه الخديو إسماعيل حتى دب نزاع بينه وبين حيدر يكن (باشا) رئيس مجلس الاستئناف انتهى باستقالة إبراهيم من هذا العمل وتفرغه بعد ذلك للأدب .

غير أن الخديو إسماعيل عوض إبراهيم عن ذلك بإعطائه « مصلحة تمتع » المشغولات والمنسوجات على سبيل الالتزام — أعنى الاحتكار على الطريقة المتبعة إذ ذاك — وحدث بعد ذلك أن سقطت وزارة نubar وتلتها الوزارة الوطنية برئاسة شريف (باشا) ، وكان على هذه الوزارة الوطنية أن تفكر فى وضع الدستور ، فاختير إبراهيم المويلحي للاشتراك مع السيد البكرى فى وضع اللائحة الوطنية لتأسيس مبادئ الحكومة الدستورية ، فوضعها يريث وقدمها لأولى الأمر .

ثم وقع اختيار راغب (باشا) ناظر المالية بعد ذلك على إبراهيم ليكون كاتم سره فى نظارته ، وصادف هذا الاختيار قبولا حسناً فى قلب إسماعيل الذى لم يكتف بذلك حتى عين إبراهيم ناظراً للقلم العربى بهذه النظارة ، وإذ ذاك أظهر المويلحي من النشاط والمقدرة ما جعل راغب (باشا) يحيل إليه كذلك النظر فى قلم العرضحالات مع ملاحظة قلم (تركى المالية) . وفوق هذا كله عينه راغب (باشا) عضواً فى مجلس تسديد الديون السائرة .

إبراهيم المويلحي والخديو إسماعيل :

ثم حدث ما حدث ، من تنازل الخديو إسماعيل عن العرش سنة ١٨٧٩ ، ومن سفره إلى إيطاليا واختياره مدينة « نابلى » للإقامة فيها . وإذ ذاك تطرّع إبراهيم بالسفر إليه فى هذا المنفى تاركاً جميع مناصبه الحكومية التى كان يشغلها فى مصر . وهناك فى إيطاليا كتب إبراهيم صمحة جديدة من

كتاب حياته . هي صفحة الولاء والإخلاص لصديقه إسماعيل . وكان إسماعيل في محتته هذه محتاجاً لشئين لا ثالث لهما : أما الأول فصديق يثبته شكواه ويستشير به في كثير من الأمور ، وأما الثاني فصديقة يزود بها عن نفسه ضد السلطان ، وضد الأجانب ، وضد الصحفيين من المصريين عن تعرضوا لنمته ونقده في داخل مصر وخارجها ، وكان من أشد أولئك الصحفيين على نفس إسماعيل ذلك انصحني الإسرائيلي المعروف باسم يعقوب بن صنوع . ولقد وجد إسماعيل في صديقه إبراهيم ذلك الزميل الذي يحقق له هذين الغرضين ، فاتصل الود بينهما ، وأنس كل منهما إلى الآخر ، ووثق به كل الثقة ، وتحدث الناس بهذه الصلة الحميدة في المجالس وفي الصحف ، وبقى إبراهيم ينظر إلى صديقه العظيم « كيف يضيئه الأمل ، وكيف يقعده الملل ، وكيف يصعده ذاك فوق رموس سكان النجوم ، وكيف ينزله هذا تحت سكان النجوم »^(١) . فيتأثر لذلك تأثراً يرتعد له جسمه ، ويخفق له قلبه ، ثم لم يزل إبراهيم لصاحبه الكبير « حتى حشره في زمرة أصحاب الصحف ، فعوضه الله عن العرش الضائع بأحرف المطابع وعن التشرع بالزقريع ، وعن الورق بالورق ، وعن العيد الطائعين بالمشتركين ، وعن التمثيل بالتحصيل ، وعن اقرارات بالمقالات ، وعن حفلة الرقص بآلة القص ، ونقله من التدبير إلى التحجير ، ومن أطل الله عمر الملك العظيم إلى يا أبا شادي أدر ما كينة التخريم ، فسبحان من وضع الأشياء موضعها . وفرق العز والإذلال تفريقاً .

وهكذا وجد إسماعيل راحته في النقي في صديقه المويلحي ، ثم في هذه الصحف التي كانت من إيماء إسماعيل ومن إنشاء إبراهيم ، ومن هذه الصحف صحيفة يقال لها « الخلافة » ، وأخرى باسم « الاتحاد » ظهرت سنة ١٨٨٠ م

(١) من مقال بجريدة الصاعقة عدد ٥٢ بتاريخ ١٨ فبراير سنة ١٩٠٦ لصاحب الجريدة للذكورة أحمد فؤاد .

ولكن لم يصدر منها أكثر من ثلاثة أعداد ، جاءت كلها نقداً لا ذعاً لسياسة الدولة العلية ، ولقد أزعج هذا النقد الالاذع اسلطان عبد الحميد بالآستانة ، فبعث إلى سفيره بإيطاليا أن يندل أقصى الجهد في أن يكف المويلحى عن هذا النقد .

ومرضت إحدى الأميرات من زوجات إسماعيل بمرض الروماتزم وأشار عليها الأطباء بالاستشفاء في مدينة «بروسة» من مدن تركيا ، فتحير إسماعيل في الأمر ، واستشار فيه صديقه وأمينه إبراهيم ، فأشار عليه يومئذ بأن يبعث إلى السلطان برسالة يستعطف فيها أمير المؤمنين حتى يأذن للأميرة المريضة بالإقامة في هذه المدينة . وتولى إبراهيم بنفسه كتابة هذه الرسالة وإليك طرفاً منها :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، وخليفة رسول رب العالمين ، أطال الله بقاءه ، وجعلني من كل مكروه فداءه ، من عبد اكتشفه حرمان الرضا من ولي نعمته ومالك ناصيته ، فساعته شهر ، وليلته دهر ، وعبرته نهر ، وإني أتضرع إلى مقام خلافتكم العظيمة ، وسلطتكم الكبرى ، متوسلاً بجناب صاحب هذه الرسالة — صلى الله عليه وسلم — أن يلحظ ما أعرضه لدى سدتكم الملوكية بعين الرضا ، ولو أن العذر لإقرار بالذنب لآلات الصحائف أعذاراً ، ولعرضت التوبة ليلاً ونهاراً ، وهبني يا أمير المؤمنين جئت بكل ذنب ، أليس في سعة عفوك وساحة إخوانكم ما تغفر به الذنب ؟ وأما أمير المؤمنين أعلی نظرأ أن يؤخذ بقول وهو إلفك الوشاة ، أو يعاقب بكلام وهو بهتان السعاة ، من الذين اتخذوا حرفة أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، بعد أن أفنيت حياتي بهذا البيت المعمور في خدم خدمتها ، وأوامر أطعتها ، وراهي امتثلتها ، وموالاة جعلتها شرطاً سادساً لديني ومعتقدي ، واتباعاً لقوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

ثم قال : وإن أذكر أمير المؤمنين ، والذكرى تنفع المؤمنين ، بقوله تعالى « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » .

وإن بين جلالكم وبين رعيتكم — وهذه المريضة فرد من أفرادهم — الرحم الدينى الذى هو أولى بوجوب الصلة من رحم السنين ، قال تعالى « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » — أى واتقوا الله فى إخوانكم فى الدين برعاية عهودهم ، وحفظ حقوقهم ، فعلينا أن الأخوة الدينية تقتضى مزيد الشفقة والرحمة ، ولا معنى للرحمة والشفقة ، إلا أن تنقذ المؤمن من المهالك ، وتؤمنه من المخاوف ، وتخلصه من الآفات وأن توصل إليه الميراث ما استطعت ، ولا يكمل عند الله الإيمان حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه ، ولو شاهد أمير المؤمنين هذه المريضة المسكينة وهى سائلنى بماذا أجاب الخليفة ؟ أيرضى أمير المؤمنين أن أقول لها قد أخشى عن الإنجاب وهو تصرح بهتك الحجاب أو الموت — كبرت كلمة تخرج من الأفواه فإذا قالت « فأين الدين والإيمان ؟ والحديث وقرآن والعدل والإحسان فلا مساغ يا أمير المؤمنين للجواب .

يا خليفة رسول الله ، هذه فرد من أفراد رعيتكم ، وقال صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكل مسئول عن رعيتيه » فالتمس من أعتاب مولانا المعظم أن يصدر أمره العالى بما يوافق شفقتة وإرادته ، وأن يعفو عن عبده ، وإنى لممثل لجميع أوامر مولانا أمير المؤمنين أعدها فرضاً واجباً ، فإن الحياة والله لا تصفو لعبد سدتكم وفى التصور أن ولى نعمته مغض عنه ، وأنا واقف على البعد ألتقى أوامركم بفريضة الامتثال ، فإن لم يصادف تضرعى ودعائى قبولا فإنى أخشى أن هذه المريضة وهى فى الاحتضار تمد يدها بكتاب الله تعالى قائلة « بينى وبين أمير المؤمنين هذا الكتاب ، العزيز فى الدنيا والآخرة والأمر لله من قبل ومن بعد » (١) .

سافر إبراهيم بعد ذلك عام ١٨٨٤ ، إلى باريس حيث أصدر العدد الرابع من جريدة الاتحاد ، التي كان يرعاها الحديو إسماعيل . وكانت لهجة إبراهيم في هذا العدد قاسية على السلطان . نطلب هذا عن طريق سفيره في باريس إلى الحكومة الفرنسية نني إبراهيم من فرنسا . ولا ندرى لماذا بادرت الحكومة الفرنسية بتلبية طلبه . وإذ ذاك انبرى لنقد وزير الداخلية أحد المحامين الفرنسيين .

ونشر المحامي نقده هذا في جريدة « الفيجارو » الفرنسية عدد ٣٣٣ سنة ١٨٨٤ واختتمه بقوله « إني أسأل بصراحة المسيو « ولدك روسو » عن الضرر الذي يسببه إبراهيم (بك) في باريس . أم هل نقدر بلدنا الجمهوري حق الإقامة فيه ، وأضحى غير قادر على منح الضمان الكافي للحكوم عليه سياسياً . وإلا فما هو الأمان الذي يمكن أن يجده عندنا كل غريب نقدر حتى التمتع بمصالح بلده ؟ ألا يظن حضرة وزير الداخلية أنه من السذاجة أن تنال بسهولة وبدون محاكمة إبعاد صحفي فرنسي غير راض عن سياستنا الحالية من اسطنبول أو لندرة مثلاً لأنه يصدر جريدة عدائية هناك ؟ إن اقْبص على إبراهيم (بك) وتفيه بدون محاكمة لا يعد فقط عملاً استبدادياً ، بل أمراً منكراً ربما يستحق الاستجواب عنه في البرلمان^(١) .

أبحر بعد ذلك إبراهيم إلى لندن بدعوة من السيد « جمال الدين الأفغاني » ، فعرض عليه أن يشترك معه في تحرير جريدتي « العروة الوثقى » و « ضياء الخافقين » كما اشتركا في الدفاع الحار عن الشرق والإسلام ولم يكتف إبراهيم بذلك بل أنشأ هناك لنفسه جريدتين جديدتين ؛ وهما جريدة « الأنباء^(٢) » وجريدة « عين زبيدة » .

(١) انظر مقالا لإبراهيم (أفندي) للوياحي بالعدد رقم ٢٥٠ من مجلة الرسالة بالقاهرة .
(٢) ورد في جريدة الكوكب لصاحبها عمود زكي العدد ١٨ بالسنة الخامسة بالقاهرة أن جريدة الأنباء ظهرت في نابولي . أما جورجى زبدان وعيسى اسكندر الملووف فرويا أنها ظهرت في باريس .

ولسنا ندرى لماذا اندفع إبراهيم فيها اندفاعاً ظاهراً إذ ذلك في إظهار ولائه للسلطان عبد الحميد . وحين وصلت الأخبار إلى مسامع السلطان ، سر لها سروراً عظيماً . وأظهر الرضا عن خطة إبراهيم في نقده الشديد لسياسة الإنجليز وعلى رأسهم « غلادستون » . ومن ثم فكر السلطان في استدعاء المويلحي إلى الآستانة ؛ ولكن المويلحي ارتاب أولاً في هذه الدعوة ، ورأى أن يبعث بابنه محمد لكي يكشف له عن جلية الأمر ، فذهب محمد إلى الآستانة وتبين له أن السلطان صادق في هذه الدعوة التي وجهها إلى أبيه ، فكذب إليه يطمشنة على ذلك ، ويتعجل حضوره .

إبراهيم المويلحي في الآستانة :

ومثل إبراهيم بين يدي السلطان الذي أكرمه ، وتلقاه بالإنعام والبشر والبشاشة ، ثم عينه عضواً في مجلس « أنجمن المعارف » وكان رئيسه يومئذ « منيف باشا » الذي وصل إبراهيم بكبار رجال العلم بالآستانة ومنهم الشيخ « أنشفيطي » وهناك في الآستانة تعرف المويلحي كذلك إلى إبراهيم (بك) أدهم ، صاحب جريدة الحقائق ، وأخذ على عاتقه وصف المواكب السلطانية على صفحات هذه الجريدة ، وذلك في كل مرة يخرج فيها السلطان للصلاة . وهناك مثلاً من إنشائه ، يصف موكب صلاة الجمعة في الآستانة قال : ما يقصر في يوم افتتاحه ، أستغفر الله ، بل ما سعد قادماً من انقادسية ولا المعتصم من عموريه ، أملاً للقابو مهابة ، ولا للعيون بهاء ، من رؤية جلالة السلطان في موكب يوم الجمعة قبل الظهر بساعتين ، ترد العساكر رجالاً وفرساناً من أطراف الآستانة إلى « بشكطاش » عشرة آلاف أوزيدون ، فينتظرون في طريق السرايا السلطانية صدور الإرادة السنية بتعيين المسجد ، وهي طريقة جارية إلى اليوم ، وإن كان المسجد الحميدي قد اختص بصلاة جلالته دون سواه ، فإذا صدرت الإرادة اجتمعت العساكر في ساحة المسجد أمام باب السراي ، واصطففت صفوفاً مضاعفة

بعضها وراء بعض ، وفي هذه الأثناء تتسابق مركبات المشيرين ، والوزراء والمشايخ ، والأجانب من السفراء وغيرهم فيجلس السفراء ومن كان معهم من عليّة القوم الوافدين على الأستانة في قاعة « الجيب الهيونى » انطلة على تلك الساحة ، التى لا يسمع السامع فيها قيلا ولا صهيلا إلا صليل الأسياف ، وترديد الأنفاس ، هيبة وإجلال ، وانتظاراً واستقبالا لإشراق نور الحضرة السلطانية فإذا حان وقت الصلاة أشرقت المركبة السلطانية المذهبة كالشمس ضياء ، من مطلع السراى التى تحمل الإمام نائب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويجلس أمامه الغازى عثمان (باشا) والمشيرون ، وكبار رجال الدين حافون من حول المركبة مشاة خشع الأبصار ، ترهقهم ذلة من جلال تلك العظمة الإمامية ، وهم فى غير هذه الساعة أكسرة الزمان ، وقياصرة الرومان كبراً وجبروتاً ، كلهم فى أمواج الملابس الذهبية يسبحون ، وعلى صدورهم نياشين الجواهر تخطف الأبصار وتأخذ بالألباب إلخ » (١) .

وشاءت الأقدار أن يقيم إبراهيم فى الأستانة عشر سنوات ، شق على جواسيس تركيا فى أثنائها أن يصفوا له العيش ، وأن يظل صديقاً للسلطان ، أثيراً عنده ولو فى انظاره ، وترصد هؤلاء الجواسيس لإبراهيم حتى علموا أنه يكتب جريدة « المقطم » فى مصر بين حين وآخر ، وأن موضوع المقالات التى يكتبها فى الجرائد المصرية نقد لاذع لسياسة « الباب العالى » وتعريض ظاهر بها وأبلغوا ذلك كله مسامع السلطان ، فبعث إلى الشرطة لتقوم بتحقيق الأمر ، واستطاع ناظر الضبطية أن يلقي القبض على إبراهيم ، وتصادف أن كان بيده فى هذه اللحظة مسودة مقالة من هذه المقالات التى ينتقد فيها السلطان فأسقط فى يده ، ونغار من نافذة الحجرة التى ألقى عليه القبض بها ، فرأى ديكا خارج النافذة فأسعفته بديهته إذ ذاك بحيلة

(١) انظر جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر الجزء الثانى

ص ١٠٧ الطبعة الثالثة .

تخلص بها من المقال الذى بيده ، وذلك أنه أخذ يمزق الورق التى كتب بها المقال قطبا قطبا ، وأخذ يلوك كل قطعة منها بلسانه لو كان شديداً حتى يجعل منها شبه الحبة التى يلقى بها إلى الديك فيلتقطها قطعة قطعة ، حتى أتى على نهايتها . والعجيب أن هذه الحيلة التى نجح بها إبراهيم جازت على رجال التحقيق ، واقتنع هؤلاء ببراءته ، وبلغ ذلك سمع السلطان فأظهر الرضا على إبراهيم من جديد ، وأنعم عليه يومئذ بالرتبة الأولى من الصنف الثانى وصاحبها يلقب « بسعادتو أفندم » ، وهى توازى رتبة الميريهيران الملكية التى يلقب صاحبها بلقب باشا . وهكذا كان إبراهيم يخدع السلطان عن نفسه طول هذه المدة ، ولكن السلطان فيما يظهر كان لا يرى بأساً فى هذا الخداع وكأن السياسة أملت عليه ذلك . وحدث أن أتى الخديو « عباس الثانى » إلى الآستانة لزيارة السلطان لعرض الشكر والعبودية على أعتاب الخلافة السنية ، وأحب إبراهيم وهو الصديق القديم للأسرة الحاوية أن يزور هذا القادم من رجالها إلى الآستانة وهو الخديو عباس ، ولكن حيل بينه وبين هذه الزيارة التى كان يترقبها ، فقد أبى بحتن الكبراء من حاشية عباس أن يصلوا بينه وبين إبراهيم . وهو الرجل الذى تجرى فى عروقه محبته للبيت الحار ، وهى محبة قديمة ورثها عن آبائه وأجداده منذ تولى محمد على الكبير عرش مصر . واشتد غضب إبراهيم لهذه الحادثة ، وكاد يتهيز من الغيظ ، وفكر من لحظته فى حيلة عجيبة يفسد بها على القوم أمرهم ، ويحرمهم بها ثمرة الحجى ، إلى الآستانة والتشرف بلقاء السلطان بها ، فأمسك بالقلم وخط مقالا زوره تزويراً على لسان حاشية الخديو « عباس الثانى » وبعث به إلى جريدة المقطم فى مصر ، وعهد « إبراهيم » فى مقاله هذا إلى أن يصور معية عباس بصورة الناقلين على الحالة فى مصر ، والفرحين إلى السلطان أن ينقذ مصر والإسلام من براثن الاستعمار ، وجاء فى هذه الرسالة المختلفة قوله :

هذه مصر أيد الله بك مقام الخلافة، وثبت بك أركان السلطنة ، ونصرك

النصر الوشيك ، فريدة التاج العثماني والقسم الأكبر من السلطنة السنية ، والطريق الأعظم إلى الحرمين الشريفين ، قد أصبحت تمديد الفرع الصارخ إلى عظمتك ، وتُنظر كالمغشى عليها من الموت إلى حياتها في يدك الكريمة ، فامن عليها بالحياة يا أمير المؤمنين ، وخلصها من تجاسر على حوزة الإسلام بلا حجة ولا قوة ، وفي يد جلالتك الحجة والقوة ، وهذه أرواحنا رهينة ثلاثة أحرف من عظمتك ، فرنا بما تريد لنخلص الإسلام المتخبط في تلك الأشرار ، وقد بقينا يا أمير المؤمنين سنين عدة معلقين لا ندرى أنحن تحت حكم الخلافة والسلطنة انسنية فطمئن قلوبنا ، أم تحت حكم هذا الذي دخل في يوم على وعد أن يخرج في غده فبقى إلى الآن تخفق راياته على مساجد المسلمين في بلدهى عش الأولياء ، ومرقد آل البيت النبوى ، ومجد جدك السلطان سليم خان ... إلخ .

فالآن وقد وفدنا على دار الخلافة مع سمو وكيالك المطبوع على محبة جلالتك ، المفتخر بنظرات الرضى عليه من الطاف عظمتك ، الواقف مرقف السمع والطاعة لأوامرك ، راجين من السدة السنية إجراء الوسائل الفعالة لإخراج هذا الداخل على وطننا ، وإبعاده عن الأراضى المقدسة التى بدأبون على التدخل فيها فإنهم إذا استمروا — لا قدر الله — فى البقاء بمصر سهل عليهم الدخول فيها وفى غيرها لطبيعة الموقع . ونسأل الله أن يؤيد جلالة مولانا الخليفة الأعظم وينصره على الباغين (١) .

كان من نتيجة هذه المقالة السيئة أن ثارت ثائرة الحكومة الإنجليزية، وذهب سفيرها فى تركيا لمقابلة السلطان ، وسأله بم جاب معية الخديوى عباس ؟ وكادت العلاقات السياسية تتوتر بين البلدين ، لولا أن فكر السلطان يومئذ فى عمل يثبت به لانيجلترا أنه لا يوافق على شىء مما جاء فى المقال ، وكان من نتيجة هذا العمل أن امتنع السلطان عن جميع الإنعامات التى كان ينوى منحها

(١) راجع المصدر السابق ص ٦٦٠ من مجلة الرسالة العدد ٢٥٠

حاشية الخديوى عباس ، وذلك فى الحفل الذى أقامه لاستقبال « الخديوى عباس فى قصر يلدز. وهكذا نجح إبراهيم بهذه الحيلة — وإن كانت سيئة — فى أن ينتقم لنفسه انتقاماً سريعاً من حاشية الخديو . بل هكذا كان من أخلان المويلحى الماهرة فى تدير المسكائد ، والحنق فى حبك المؤامرات . والأخبار الدالة على هذا كثيرة . وكلها ناطقة بذكاء الرجل وحرصه على الانتقام ، وإن القارىء لمذكرات أحمد شفيق (باشا) ليقع فى ثناياها على شتى من هذه الملاحظات . كتب شفيق (باشا) يقول : قد كان الخديو (يريد « عباس الثانى ») مستاء من دسائس إبراهيم (بك) المويلحى ومن تقاريره التى كان يرسلها « للمايين » ، وكنت قد أشرت على سموه أن الطريقة الوحيدة لراحته أن يقترح سموه عليه اصطحابه مع حاشيته ، وعمل اللازم عند الوصول إلى الأستانة لإبقائه بها ، وعندما أراد الخديو الرجوع إلى مصر ذكرت تحسين (بك) بحجز المويلحى ، فرد على بأن السلطان إن رأى حجزه وهو قد حضر فى كنف الخديو يكون مدعاة للنقد ولا يليق بمقام سموه ، ولذا ترك ليعود مع جنابه .

لسنا نريد بذكر هذه الصفة أو غيرها من صفات المويلحى أن نشوه سمعته ، أو ننقص من قيمته ، وإنما المؤرخ الأدبى يحرص على تصوير الكاتب أو الشاعر لا كما تفعل آلة التصوير الشمسى ، ولكن كما تفعل الأشعة السينية حين تنفذ إلى العظام والأعصاب وتخترق الشرايين والأوردة ، وغرض المؤرخ فى ذلك هو إحداث الصلة بين الأديب وبين ما يصدر عنه من أدب . ولم أذهب بعيداً فى هذا الموضوع ؟ ألم يكن ابن خلدون على شهرته من أمهر رجال التاريخ الإسلامى فى الدسائس والمسكائد ، ألم يكن ينحدر من أسرة معروفة فى التاريخ بهذه الأوصاف ؟ بلى ، ومن أجل ذلك استطاع ابن خلدون أن يفلسف التاريخ الإسلامى ، وأن يكتب وهو رجل لم يقرأ كثيراً فى كتب الفلسفة كتابه « المقدمة » وهو الكتاب الذى طغت شهرته على الكتب التاريخية التى كتبها .

المولى يعزى يعود الى مصر :

ولم يجد إبراهيم بعد ذلك بداً من العودة إلى وطنه مصر ، والنجاة بنفسه من هذا الجو الخائف في تركيا ، فوصل إلى مصر في غضون عام ١٨٩٥ م واستراح الرجل في بلده من وطأة الجواسيس الذين أحاطوا به في الآستانة ، واستنشق في مصر نسيم البساطة التي كان محروماً منها طول إقامته بالقرب من « الباب العالي » ثم أخذ ينشر بين الحين والحين مقالاته الانقادية التي كتبها على صفحات المقطم ، ووصف فيها حياة القصور السلطانية بالآستانة ، وكشف اقناع عن الدور الخطير الذي تلعبه الجاسوسة داخل هذه القصور ، وكان إبراهيم لا يحسر على إمضاء هذه المقالات باسمه الصريح ، وإنما كان يوقع تحت هذه المقالات باسم أحد الفضلاء ، ثم بدا له أن يجمع هذه المقالات النقدية في كتاب جعل عنوانه « ماهنالك » ولم يجرؤ أن يجرر باسمه كمؤلف لهذا الكتاب ، بل قال إن مؤلفه « أديب فاضل من المصريين » وعلم السلطان بأمر هذا الكتاب فبعث إلى سفيره في مصر بأن يجمع كل النسخ التي طبعت منه ، فأذن السفير لأمر السلطان عبد الحميد ، كما أذن له إبراهيم ، وجمع بنفسه نسخ هذا المؤلف الصغير ، وسلمها إلى السفير خلا نسخاً قليلة كانت قد تسربت من قبل إلى بعض أصدقائه وسنعرض للقارئ بعض نماذج من هذا الكتاب عند الكلام عن الأساليب الصحفي لمؤلفه .

وكان إبراهيم صحفياً بطبيعته ، لا يستطيع أن يحبس قلبه عن الكتابة ولا يقوى على العيش بعيداً عن الصحافة ، من أجل ذلك فكر سنة ١٨٩٨ في إنشاء جريدة أسبوعية أدبية سياسية سماها « مصباح الشرق » وسيعرف القارئ أن هذه الجريدة الأخيرة كانت تنشر فيها بعض الفصول الأدبية التي أغوت كثيراً من القراء ، فكافوا ينتظرون صدورها بفارغ الصبر ، وكانت تنفذ جميع أعدادها يوم إصدارها ، بحيث يشق على الناس العثور

على نسخة منها في اليوم الثاني ، وظل إبراهيم يصدر هذه الجريدة حتى وقف عن إصدارها فجأة سنة ١٩٠٣ .

وإلى إبراهيم المويلحي كذلك تنسب جريدة أخرى اسمها (المنشكاة) كان يصدرها باسم ابنه السيد خليل (بك) المويلحي وصديقه حمدي (بك) يكن ، إلا أنه لم يصدر من هذه الجريدة غير أربعة أعداد فقط ، احتجبت بعدها سنة ١٩٠٥ عن أنظار الجمهور .

أفكار المويلحي :

ومهما يكن من شيء فكل من يقرأ سيرة هذا الرجل يستطيع أن يستخلص منه صورة لخلق وأخرى لعقاه . ولقد يكفيناهما أن نمتنع أيدينا على الخطوط العامة لهاتين الصورتين ، ولا نريد من ذلك إلا ما يريده الناقد الأدبي حين يتعرض لشخصية شاعر أو كاتب خطيب ، فيحل ما أمكنه هذه الشخصية إلى عناصرها ويقربها إلى أذهان الجمهور .

وأول ما يلفت نظر القارئ لسيرة المويلحي أنه كان رجلاً كثير التقلب إذ كان نبياً لمشاعره ، وكان يصدر في حياته دائماً عن عاطفته أكثر مما يصدر عن عقله وتفكيره ، يحب فيبلغ من الحب أقصاه ، ويغض فيبلغ من الغضب أقصاه ، ويمكر فوق ذلك بالرجال ، ويكيد لهم فيبلغ من المكر أو الكيد أقصاه ، وربما كان لا يفهم من كلمة السياسة والدهاء غير هذا المعنى ، ولا شك أن هذا الخلق كان خير عون للمويلحي على أن يكون أديباً سياسياً . ذلك أن الأديب رجل يستجيب لعواطفه أولاً ، وأما الفيلسوف فرجل يستجيب لعقله أولاً ، وما كان المويلحي فيلسوفاً . ولكنه كان أديباً لا أكثر ولا أقل .

وكان إبراهيم رجلاً كثير التقلب ، ومن يدري لعل لهذا الخلق بعض الصلة بتهافت المويلحي على المضاربات المالية : يربح فيها حيناً ويخسر فيها

أحياناً، حتى أجهزت هذه المضاربات على ثروته و ثروة أسرته ، ومن المحقق أن كان لهذا الخلق أثره كذلك في حياة إبراهيم الصحفية ، فقد رأينا أنه لا يكاد ينشئ صحيفة من الصحف الهامة حتى يعطلها بعد إصدارها العدد الثاني أو الثالث أو الرابع منها ، ثم يترك العمل بهذه الصحيفة مختاراً لا يجبراً على تركها بأمر من أوامر الحكومة ، وسنرى أن الفرق عظيم جداً من هذه الناحية بين رجل كالويلحى ورجل كالشيخ على يوسف .

وانظر إلى جورجى زيدان يصف هذه الناحية من أخلاق المويلحى بقوله « فترى المترجم رحمه الله قد تقلب في أعمال مختلفة ، بين تجارة وخدمة في الحكومة ، وإنشاء المطابع والجراند ، ونشر الكتب وغيرها وهو دون الثلاثين من العمر ، ولم ينل كل مرامه من واحد منها مع اقتداره وذكائه ، ولعل السبب في ذلك لجأته في استثمار عمله قبل أن ينضج ، وعدم ثباته في خطة واحدة ، لأنه لو ثبت في التجارة مثلاً ولم يرغب عنها في خدمة الحكومة لكانت تجارته من أوسع التجارات ، ولو ثبت في الخدمة ولم يعدل عنها إلى الصحافة والطباعة لكان من أكبر أصحاب المناصب ، ولو ثبت في الصحافة إلى الآن لكانت صحيفته من أكبر الصحف وأهمها ، ولكنه لم يستقر على حال ، والأذكياء الذين لا يثبتون على حال ولا في عمل إنما يكون سبب تقلبهم الرغبة في النجاح السريع ، يريدون الطلوع إلى الأوج دفعة واحدة ، فإذا استبطأوا الوصول إلى قمة النجاح في عمل تركوه وانتقلوا إلى سواه ، فيأول ذلك الأكثر إلى ضياع العمر في بناء القصور بالهواء ، ولو ثبتوا في عمل واحد مهما يكن نوعه لكفاهم مؤنة الشكوى من معاكسات الزمان (١) . الخ .

على أن «إبراهيم المويلحى» على تقلب مزاجه وقله ثباته كان ذا عزيمة قوية لا يحول بخاطره رأى إلا لحق به التنفيذ على الفور . وليست حياة المويلحى

(١) انظر جورجى زيدان : تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر الجزء الثاني

الطبعة الثالثة ص ١١٠ .

فى الواقع غير سلسله من هذه الخواطر التى ترد إلى ذهنه وتنتقل بسرعة البرق إلى حين الفعل . وقد أورد صاحب الصاعقة من أمثلة هذه العزيمة الصادقة كثيرآ مما يتصل بعلاقة إبراهيم المويلحى بإسماعيل ، وما يتصل بالحلول التى كان يقترحها ليخرج بها إسماعيل من مأزق مالى أو سياسى .

فى الرجل بعد هذا كله ميل إلى ضرب من الاعتزاز بالنفس ، ربما كان ضرباً من الكبر والاستعلاء ، وربما كان ضرباً من سرعة الغضب وحدة المزاج ، وربما كان ضرباً من الانتقام ، وربما كان ضرباً من الفكاهة المبررة والسخرية الغليظة ، وربما كان مزاجاً من جميع هذه الأشياء ، فما روى من ملحه فى شبابه « إنه مر وهو راكب حماره على حسن (بك) مذكور وكان فى ذلك الوقت الشيخ حسن وحاقوته فى الحجاز ، فسلم عليه فلم يقم له ، فمضى فى حاجته ، ثم عاد بعد قليل ونادى عليه . فلما جاء طلب إليه أن يريه ما عنده من فناجيل القهوة ، فأتى له بما أراد فصار يقلبها فى يده ، وسأله عن ثمن كل صنف إلى أن سأله عن قوع منها فقال له بقرش فرمى به فى الأرض فكسر وأخرج من كيسه القرش وأعطاه إياه ثم قال : « إن الذى يقيمه قرش ويقعده قرش لا يجوز له أن يتعالى على الناس فأخجله ومضى (١) » .

وما حكاه السيد رشيد رضا من فكاهات المويلحى ما قد يكشف لنا عن طويته قوله (٢) « وكان إبراهيم (بك) المويلحى يغیظه من محمد عبده أن يقول فى مقالاته المؤنقة « مش بطل » فضرب له المويلحى مثلاً يرم عن غیظه منه قال « لو أن رب العالمين جلس على عرشه يوم القيامة تحف به الملائكة المقربون وعن يمين عرشه الأنبياء المرسلون ومن روائهم جميع البشر ، ويلهم جميع أفرع المخلوقات من الجن والشياطين والبهائم والوحش والطير ثم قيل للشيخ عبده ما تقول فى هذا المنظر لما زاد على قوله « مش بطل » .

(١) جريدة الصاعقة عدد ٥٢ بتاريخ ١٨ فبراير سنة ١٩١٦ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ص ٦٩٤ .

والخلاصة أن إبراهيم المويلحي كان رجلاً عصامياً في الأدب ، لم يتخرج من مدرسة ولا من جامعة ، ولا عرف أنه حضر بانتظام على مجموعة من كبار الأساتذة ، وذلك بالطبع فيما خلا العطار الذي أخذ عنه شيئاً من العلم الأزهرى في أثناء الطفولة ، وفيما خلا الشيخ جمال الدين الأفغانى الذى لا بد أن نفترض أن المويلحي حضر عليه بعض الدروس في أثناء الشباب وبعض الكهولة ، وذلك من حيث تكوينه الأدبى والعقلى ، وأما من حيث أخلاقه الشخصية فقد رأيت أن إبراهيم كان رجلاً ذا دعاية رفيعة تظهر من ثنايا أحاديثه ، ودعاة غليظة تظهر من بعض تصرفاته ومعاملاته ، وكان رجلاً يحب الانتقام ، قوى العزيمة حاد المزاج ، حاد الذكاء ، واسع الحيلة سريع البديهة ، يكاد يسبق ذهنه إلى النتيجة عند بدء المقدمة على حد تعبيره هو فى وصف أخلاق المصريين . ثم أن المويلحي كان كما رأينا نهائياً للفرص ، يعرف كيف ينتفع من كل فرصة تمر به ، ويعرف كيف يخرج من كل مأزق يوضع فيه ، ومعنى ذلك أن إبراهيم كان تاجراً فى أخلاقه بكل ما تتسع له هذه الكلمة من معنى .

وما كان أشد ما يحب إبراهيم المال ويسعى للحصول عليه ما وسعته الحيل فى ذلك ، أحصى السكونت « غليب طرازى » الجرائد التى تنسب إلى المويلحي وذكر منها جريدة الخلافة فقال أنها صحيفة سياسية أسبوعية دينية صدرت سنة ١٨٧٩ باللغتين العربية والتركية فى مدينة « نابلى » ، وقد نشرها إبراهيم (بك) المويلحي للمسافر بصفته كاتباً لإسماعيل (باشا) بعد خلعه من سرير الخديوية المصرية ، وكان المويلحي يذيع على صفحات الجريدة أن مقام الخلافة عند المسلمين يتسلسل من أصل عربى ، وأنه انتقل بلا حق إلى آل عثمان سلاطين الأتراك ، وكان يقول أن خديوى مصر أولى من سواه بهذه الكرامة الدينية ، لأن مصر كانت مقراً للخلفاء فى سائر الزمان ، فاضطرب السلطان عبد الحميد لذلك وخاف من امتداد هذه الفكرة بين الأمة العربية الإسلامية التى يتألف منها القسم الأكبر من سكان السلطنة العثمانية . فأوعز إلى سفيره

في باريس أن يسعى في تعطيل الجريدة المذكورة بالوسائل الفعالة قبل أن تنشر خبرها بين المسلمين، واتفق أن الدكتور «لويس صابونجي» كان موجوداً حينئذ في عاصمة الفرنسيين، فأشار على السفير العثماني بأن أفضل وسيلة لبلوغ الغاية المقصودة هي إغراء المويلحي بالمال فتتبع السفير نصيحته وتوقف المويلحي عن نشر جريدته بعد صدور العدد الأول والثاني^(١). وهكذا كان المويلحي يقف حيناً في صف الخديو، وحيناً في صف الباب العالي، مرة يناصر صديقه عباساً وأخرى يعتمد على الدس عليه لدى السلطان، وهو في أكثر هذه المرات مشغول بالمال وحده قبل كل شيء.

المويلحي ومحمد عبده :

ومجدثنا تاريخ الأستاذ الإمام لمؤلفه الشيخ رشيد رضا أن الخديو عباس احتاج إلى قلم المويلحي في محاربة الشيخ محمد عبده، وانهز لذلك فرصة الفتوى الترنسفالية^(٢) فرد الشيخ رشيد رضا على هجمات المهاجمين للشيخ محمد عبده بقوله :

هي الترنسفالية التي هاجمتها السياسة الخديوية بأقلام كتابها المأجورين وشيوخها المداهنتين، فانكسرت دولة المال والرتب والنياشين، وفازت دولة العلم والدين، وكان انتصر لكتابها المخلصين . وقد تقدم ذكر هذه المسألة وما قاله لي الشيخ محمد توفيق البكري من أعداد سمو الخديو لحملة من فرسان الكتاب للهجوم على المفتي — يريد محمد عبده — في تنفيذ هذه الفتوى، واحتقاري لهذا التنفيذ، ولم يلبث أن ظهر نسخة قوله وصدق قولي، واحتقاره لهذا الكتاب وكرههم لا يقام لهم وزن في هذا الموضوع، فقد كتبوا وكتبنا فكنا نحن الغالبين في العلم، وكانوا هم الراجحين في الجهل حتى أن إبراهيم (بك) المويلحي لم يجد ما يرد به على صاحب المنار إلا مثل

(١) فيليب طرازي : تاريخ الصحافة العربية الجزء الثاني ص ٢٦٤ وما بعدها .

(٢) أتى الشيخ محمد عبده بتحليل لحم الحيوان الذي يذبحه الترنسفالون ضرباً بالباطلة وقال أعداؤه بل حرام لأنه هو الموقودة التي نهى عن أكلها القرآن، وأحدثت هذه الفتوى ضجة فظيفة في مصر .

ما كتبه في تهيج العامة عليه في حكايته بقول المفسرين في قوله تعالى
« سار يكم دار الفاسقين » .

إنها مصر في عهد موسى وأمثاله (١) .

وبما حكاها السيد رشيد رضا من فكاهات المويلحي كذلك، قوله : « وكان
إبراهيم (بك) المويلحي يعيظه من محمد عبده أن يقول في مقالاته المؤنقة
« مش بطل ، فضرب المويلحي مثلاً ينم عن غيظه منه قال :

« يقول الكاتب ، أن الشيخ وضع الأصل وأن أباه كان صغيراً في
إحدى القرى وأن الشيخ كان غلاماً فقيراً ، لا يملك فقيراً ، وكان يقتات في
الأزهر بقشر الفول والبطيخ ، ويلبس القميص على اللحم ، ويبيت وسط
المجاورين في الصحن ، ثم هو ينتحل الآن لنفسه محتداً نبيلاً ، ويبتا كبيراً ،
ويستز ذلك الأصل المنحط ، والفقر المدقع ، بتغاليه في تعاليه ، وتطاوله
وتباهيه ، وتعالیه عن أصله وتناسيه ، وتنأيه في زهوه وتفانيه ، وتصغير
خذه للناس وتجافيه ، وتصغير كل ما يراه كبيراً ، وبتحقير كل ما يراه عظيماً :
فلو رأى العرش وحملته ، ورب العزة والملوك ، وإله الجبروت
والرحموت ، والملائكة وصفوفهم ، والأنبياء ووقوفهم ، والجن وخشوعهم
والجبابرة وخضوعهم ، والمصطفى ولواء الحق في يده ، والشفاعة من بعض
مدده ، والجنة وقصورها ، وولداتها وحورها ، وأزهارها وأنهارها ، وأشجارها
وأطيافها ، والجحيم وشواظها ، والأمم واتعاطها ، والصراط والميزان ،
والشمس والقمر يسجدان ، وسأله سائل عما رأى ، لقال ، وهو مصر الخد
زهوا ، ومتفكك الأعضاء : « مش بطل ! »

عام الكف أو صفوة من الأدب السامر في مصر :

« كانت بين المويلحي وعلى يوسف ملاحاة ومهاترات ، لا ندرى لها سبباً

غير المنافسة الصحفية بينهما ، وحدث أن التقى محمد الميلى على نجل إبراهيم
بىرى من سرقة مصر اسمه « محمد نشأت » وكان لقاؤهما فى حانة « دركوس »
من حانات القاهرة ، وتعدى محمد الميلى على محمد نشأت وسب أباه ، فما
كان من هذا الآخر إلا أن لطم محمداً على خده ، وذاع نبأ هذه اللطمة فى
الأوساط الأدبية فى مصر فى ذلك الوقت ، وكان للميلى أعداء كثيرون
منهم الشاعر المصرى المعروف إسماعيل صبرى (باشا) ، واتخذ الكتاب
والشعرا . هذه اللطمة موضوعاً لفكاهتهم وتندرهم ، وكتبوا كثيراً فى ذلك .

وأفسحت المؤيد صدرها لهذه الكلمات وسمى هذا أنعام الذى نشر فيه
هذا الأدب الهجائى وهو عام ١٩٠٢ باسم عام الكف .

وانتقم الميلى بعد ذلك من صاحب المؤيد فى حادث زواجه بالسيدة
صفية السادات وقضية الكفاءة التى رفعت عليه سنة ١٩٠٤ ونشر فى صحيفة
« مصباح الشرق » كثيراً من الأدب الساخر بهذه المناسبة واتخذ الميلى
لهذا الأدب الساخر عنوان « عامل كفء » ، والجناس واضح بين هذا
العنوان وقول جريدة المؤيد عام الكف ، والمقابلة أو الطباق واضحتان
كذلك بينهما .

وقد نظم الشاعر إسماعيل صبرى فى هذا الموضوع اثنتى عشرة
مقطوعة (١) .

من الأولى :

إذا فتح العداء عليك حرباً	وخفت بوادر المتنجزينا
فقل وارفع عقيرة من ينادى	فلا تجد المؤزر والمعينا
أعزنى يا ابن إبراهيم صدفا	أنخوض به غمار الصافعينا
فإن هو قد أعارك ما ترجى	رأيتهمو أمامك هاريدينا

(١) انظر ديوان إسماعيل صبرى — نشر أحمد الزين من ٩٤ ١٠٠ .

ومن الثانية : تحت عنوان الأسلحة الجديدة :

قلت لنجل الصافعين احترز من صدغ إبراهيم يوم الكفاح
ولا تمازح ابن رأيت ابنه شاكي صدغ لا يجيب المزاح
فقال لي ابن كان كفى معي مادمت حيا لا أهاب السلاح
ومن الثالثة :

يا صريع الأكف صدغك أمسى خلقاً مثل طيلسان ابن حرب^(١)
أنت في الحان أمان وسلم وهو في معجمات حرب وضرب^(٢)
ومن الرابعة :

فقال محمد نعم السلاح إذا التف بالعسكر العسكر
وصدغك أن نقر الناقرون عليه يرن ولا يكسر
والخامسة بعنوان النصيحة :

يا ابن الألى رسخت أحلامهم وورست إذا الأكف مجانين مهاويس
لا تدخل الحان والصناعات ثائرة حتى تقام حوالبك المتاريس
وقل لصدغك يستقبل وفودهمو بالبواب لأنهم قوم مناحيس
والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة :

نشرت كلها بعنوان « المناجاة » وهي محاورة بين إبراهيم المويلحي
وابنه محمد .
« الأب » :

لي خلال مخله بالمروءات والوفاء
رب هب لي تقيض ما بان منها وما اختفى
يا عمادى وعدنى يوم لا ينفع القفسا

(١) طيلسان بن حرب : يضرب به المثل في القدم والبلب وسبب ذلك أن ابن الرومي كان
قد مدح ابن حرب فخلع عليه طيلسانا باليا فقال في ذلك الطيلسان شعراً :
يا ابن حرب كسوتنى طيلسانا رقى من صلبة الزمان وصدى
طال ترداده إلى الرفو حتى لو بشنأه وحده لتهدى
(٢) يشير إلى أنه وصدغه في شغل عن صاحبه .

« الابن » :

إلهي إني من ذنوبي تائب ومن فعلي الممقوت يارب خائف
فلا تجعل اللهم صدغي صغيقتي إذا نشرت يوم الحساب الصحائف
« الأب » :

هنا وهناك لي أثر حميد يشرفني إذا أنا ما انتميت
نهشت الناس أعراضاً ومالا ونلت من البرية ما اشتيت
وكم صفع الجريم أديم وجهي فما خفت الهوان وما ارغويت
أترك لذة الفتن اعتباطاً وأهجرها وفي المصباح زيت ؟
« الابن » :

أنا فرع الألى رفعوا بناء يرى للنسر فوق ذراه بيت
أريش يراعي بمداد خبث وأتقى لاح لي هدف رميت
وإن أحد تعرض لي بسوء وقفته وراء صدغي واختفيت
والعاشر على لسان المويلحي مفتخراً :

أنا والله أصلح للنخازي وأفعل فعلتي وأتبه تيتها
أمكن صافعي من لطم خدي وأعطي ذمتي من يشترها
والحادية عشرة والثانية عشرة بعنوان استرحام :

الأولى — على لسان المويلحي يسترحم صاحب المؤيد بما ينشره
في جريدته :

أيها المولى الذي عودنا حكمة الرفق بحال البائسين
إن شهر الصوم قد حل ففز فيه بالآجر وشكر الشاكرين
قد كفاني كل ما قد حل بي فاعف عني يا أبر القادرين
والأخيرة على لسان صاحب المؤيد يجيبه :

ابن إبراهيم طب ، إنا وأن قد أذقناك جزاء الظالمين
لكرام إن غضبنا ردتنا عن أذى مثلك طبع الكاظمين

إن هذا الشهر شهر يجتئى فيه أمثالك صفح الصالحين
قد محونا آية الكف وها نحن نتلو اليوم آى الراحين
فالزم العرف تعش فى ظلمنا فى عداد الكاتين المكرمين
واكتب الخير وقله ترضنا واستقم ترضى إله العالمين

وعندنا أن هذا الشعر أثر من آثار البيئمة لمصرية والمزاج المصرى . ونحن
نعرف أن المصريين يميلون بطبعهم إلى الفكاهة والمزاح . وقد يشغل المزاح
عندهم إلى حد التعريض والسخرية الغليظة والإسحاك المرير . ولا حيلة
للمصريين فى ذلك فهكذا نظروا منذ أقدم . وهكذا جبوا على تلك الفنون
المختلفة من اللذع ومن السخر ، وبما زلنا إلى اليوم نرى أمثلة شتى من الأدب
الساخر . وفى ظنى أن الأدب المصرى لن يخلو يوماً ما من هذا الغرض .

على أن نقمة الناس فى مصر من المويلحى ربما كان سببها الأول اشتغاله
بالصحافة عامة وبفن « انكاريكاتور » فى هذه الصحافة خاصة .

ونحن وإن كنا لم نعث إلى اليوم على أمثلة من هذا « انكاريكاتور »
فإننا نعتقد بوجوده موفوراً فى « مصباح الشرق » كما حدثنا بذلك الشيخ
عبد العزيز البشرى وكما أشار إلى ذلك إسماعيل صبرى وقد سمعته يقول :

أأتراك لذة الفن اعتباراً وأهجرها وفى المصباح زيت

فى هذا البيت الأخير تورية مصرية لانتخفى على القارىء ، فلفظ المصباح
يحمل هنا معنيين : معنى المصباح العادى وهو خير المقصود ، ومعنى مصباح
الشرق وهو عين المقصود .

منهج المويلحى فى الإصلاح :

كان المويلحى من رجال الإصلاح . ولكن ما هى خطته المرسومة
لهذا الإصلاح ؟ ربما اتضحت هذه الخطة من الكلام عن صحفه وعن
الأفكار التى تناولها فى هذه الصحف ، والمنهج الذى وضعه لها .

غير أننا نستطيع أن نقول هنا باختصار أن إبراهيم المويلحي كان يصدر في كتاباته في الكثير الأغلب عن فكرة خاصة وفكرة عامة . أما الفكرة الخاصة فمدارها مصر ، وغايتها الدفاع عنها وعن ولايتها من رجال البيت العلوي ضد الاحتلال الأجنبي ، والذي لا ريب فيه أن إبراهيم كان من أشد الكتاب بغضاً للمستعمرين ، ومن أشدهم في الوقت نفسه حباً وإخلاصاً لإسماعيل وأبناء إسماعيل .

وما كان ضيق عباس بالمويلحي إلا عن وشاية كان يسعى بها أعداؤه عند الخديو ، وكان المويلحي يقابل المكر والدسيسة بأقوى منها . ولولا غرام المويلحي بهذه الدسائس لكان رجلاً محبوباً من الجميع .

وأما الفكرة العامة فمدارها الشرق وغايتها الدفاع عن الإسلام ، ومن ثم كان إبراهيم داعية عظيماً لما نسميه بالجامعة الإسلامية تحت الراية العثمانية . والمويلحي في هذه الفكرة الأخيرة قطعة من العصر الذي عاش فيه وتليذ مخلص لأستاذيه الكبارين : السيد جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده وإن سلك طريقاً غير طريقهما ، وسبح في واد غير واديهما كما سترى مصداق ذلك فيما كتبه المويلحي في كتابه المشهور باسم « ما هنالك » .

تحدث الأستاذ تشارلز آدمس في كتابه « الإسلام والتجديد في مصر » عن تلاميذ محمد عبده فقسمهم شعبتين : شعبة الأزهريين وشعبة الحكوميين . ونظر إلى إبراهيم المويلحي على أنه من تلاميذ الشعبة الأخيرة ، ممن اتصلوا بالأزهر الشريف ، ومع ذلك جذبتهم الثقافة الأوروبية ، وجعلتهم أهلاً للمناصب الحكومية . ونظر تشارلز آدمس إلى المويلحي كذلك على أنه من شيوخ المحافظين ، أشار إلى الخلاف الذي وقع بينه وبين محمد عبده في فتوى الترنسفال المشهورة^(١) وهو الخلاف الذي خرج بعده المويلحي على الشيخ محمد عبده ، وأدخل السرور بذلك على قلب الخديو عباس الذي أسرع

(١) سبق شرحنا هذه الفتوى .

فضم المويلحي إلى جانبه ، وحارب به عدوه الألد الشيخ محمد عبده (١) .
والأستاذ آدمس رأيه الخاص في المويلحي ، أما نحن فقد رأينا فيه تلميذاً
من تلاميذ الإمام ، ورسلكناه معه في عداد المجدين المعتدلين . ولم ننظر في
ذلك إلى الخصومة الشخصية بينهما .

والحق أن المويلحي كان ذا موهبة أدبية ليس إلى إنكارها من سبيل وكان
ذا موهبة صحفية لم تساعد طبيعته وأخلاقه على الانتفاع بها على الوجه
المطلوب . وعندنا أنه لو كان إبراهيم قد أعنى نفسه أو أعفته ظروفه من
حب المال ، وحب العجلة ، وحب الذات لكان لمصر كاتبها الأول ،
وصحفيها الأول ، ورائدها الحق .

وبما تقدم نعلم أن المويلحي اشترك في كتابة الصحف الآتية :
صحيفة الخلافة : أصدرها في نابولي عندما كان في صحبة إسماعيل .
وصحيفة الاتحاد : بدأها في نابولي وأصدر بعض أعدادها في جهات أخرى
من أوربا ، وصحيفة الأنباء ، وصحيفة عين زبيدة ، وقد أصدرهما في إنجلترا
واشترك يومئذ في مجلتي العروة الوثقى وضياء الخافقين بدعوة من السيد
جمال الدين الأفغاني . وتلك مجموعة الصحف التي أصدرها الرجل خارج القطر .
أما الصحف التي هيمن على إصدارها داخل البلاد فأهمها جريدة «مصباح
الشرق» ، وجريدة هزلية يقال لها «سوق العصر» وجريدة ثالثة هزلية
كذلك يقال لها «أبو زيد» وإليه كذلك تنسب جريدة رابعة هي جريدة
«المشكلة» التي أصدرها باسمي ولده خليل (بك) المويلحي وصديقه حمدي
(بك) يكن ، ولعلها آخر ما أخرج به إبراهيم المويلحي من الصحف ، لأنها
عطلت سنة ١٩٠٥ م . ومات المويلحي الكبير نفسه في السنة التالية .

ألا ما أكثر الصحف التي اشترك فيها إبراهيم ، وما كان أهمها وأشدّها
تأثيراً في الجماهير ، ولكننا للأسف حين أردنا أن ننظر بكل هذه الصحف

(١) راجع الإسلام والتجديد في مصر — ترجمة الأستاذ عباس محمود العقاد ص ٢٢ نقلاً عن
كتاب تاريخ الأستاذ الإمام للشيخ رشيد رضا الجزء الأول ص ٦٦٨ .

لم يتيسر لنا انظفر بغير أعداد قليلة من صحيفة مصباح الشرق . وبمجموعة كثيرة من مقالات له نشرها في غير صحفه ، وهى المقالات التى قلنا أنه نشرها في جريدة المقطم المصرية ، ثم جمع هذه المقالات فيما بعد في كتاب سماه « ماهناك » ، على أنها « لأديب فاضل من المصريين » . وعلى ذلك فنحن مضطرون اضطراراً إلى أن ندرس إبراهيم الصحفي من خلال هذه المقالات القليلة التى أشرنا إليها ، وإن كنا ننحى على أنفسنا وعلى الدهر أن نظفر بالصحف الأولى لإبراهيم ، حتى يتسنى لنا معرفة التطور الذى خضع له أسلوبه الصحفي إلى أن بلغ هذه المنزلة التى تمثلها لنا هذه المقالات . ومن يدرى لعل من الباحثين من يحظى يوماً بهذه الصحف التى نفتقدها الآن . ولعله يومئذ أن ينجح فى تصوير هذا التطور الذى كنا نرمى إليه .

إبراهيم المويلحى والشعر :

ليس كثيراً فى الواقع ما عثرنا عليه من شعر هذا الرجل ، ولكنه على قلته يدل بوجه عام على مبلغ رفته ، وغزارة عاطفته ، ورقة حاشيته فى حالات الرضى .

على أن هذا الشعر الذى قرأناه للمويلحى لا يرقى فى مجموعه إلى مرتبة الشعر الذى نقرؤه لبعض المجيدين الممتازين فى عصره من أمثال إسماعيل صبرى ، وأحمد شوقى وحافظ إبراهيم وغيرهم . ولذلك لا نستطيع أن نسلك المويلحى فى عداد الشعراء . ولكننا مطمئنون كل الاطمئنان — كما سنرى — إلى أنه كان ذا موهبة خاصة فى النثر ارتقى بها إلى درجة الزعامة الحقيقية فى هذا الفن .

ومن شعره ماهو رسمى ، ومنه ماهو إخوانى . ومن الأول قصيدته التى مدح بها الملكة فكتوريا ، ونشرتها الأهرام فى صفحتها الأولى بماء الذهب وهى قوله :

فكتوريا مالكة الممالك طاهرة الصفات كالملائك
منصورة الأعلام في المعارك عدوها وقف على الممالك
ومجدها أدناه فوق النجم

أسطولها في البحر كالأطواد وهو يمر كالسحاب الغادي
فتصبح الجبال كالوهاد دكا من الأبراق والأرعاد
من سفن مملوءة بالرجم

وجندها في البر كالأسود وغابهم بنادق الحديد
ونصرهم في طالع السعود وهمم حرية العبيد
وقع جبار شديد الغشم

راياتها مامن كل خائف في لجة البحر وفي التنازع
وسيفها يردع كل خائف على اختلاف الناس والطوائف
وحكمها نص القضاء الختم

إن الغنى في مشرق ومغرب صورتها الغراء فوق الذهب
مشرقة التاج شروق الكوكب في مجلس الأعيان أو في موكب
فرسانه من الملوك النشم

المملك إن عدوه بالإنسان فملكها يصد بالبلدان
لأنه لم يجتمع في آن للفرس واليونان والرومان
والأرض إرث عادل في الحكم

ستين عاماً حكمت دولتها وشرفت بين الملأ أمتها
فأقبلوا ليذكروا نعمةها ويلثموا لعزهم سدتها
من عرب في ملكها أو عجم

الإنجليز بأسهم شديد وعزهم ما فوقه مزيد
ورأيهم في فعلهم سيدي وفضلهم على الوري مديد
وهم مثال للنهي والحزم

من كادهم فكيدته عقيم وألف شاهد له أقيم
والمخلص الود لهم حكيم ذو دربة بدهره عليم
ينال منهم ما اشتى بالسلم

قد أصبحت مصر بهم تختال في ثوب عز قبله أسمال
والناس قد أحيتهم الآمال وكلهم في رغد أمثال
من بعد ما كانوا عبيد الوهم

ما السكاتب البليغ في إنشائه والشاعر المفلق في إطرائه
والأخطب الأفوه في إلقائه والناقل المكث في أنبائه
بيالغين وصفهم في الحلم

مليكة تهنأ الدنيا بها وأمة منصوره من ربه
موكب عيدها لفخر شعبها منتظم من شرقها لغربها
ووصف عليها ختام الأنظم

قيل في الباعث على نظم هذه القصيدة ، إن « عباساً الأول ، أمر شاعره
ونديمه الشيخ علي درويش بنظم قصيدة في مدح الملكة فكتوريا سنة ١٨٥١
فلما كان عهد عباس اثنى طلب هذا إلى المولى يحيى أن ينظم قصيدة في مدح
الملكة تكريماً لها في عيدها الذي احتفل به الانجليز في شهر يونيو
سنة ١٨٩٧ . ورفعت القصيدة إلى جلالته في ذلك الوقت .

ويخيل إلينا أن إبراهيم كان يطمع في ذلك الحين أن يكون شاعر الأمير
لو أنه وجد السبيل مهيأ أمامه لمثل ذلك . فإن له ميولا واضحة نحو الملكية .
وله دراية دقيقة برجال البلاط ، وله مقدرة خاصة على معايشة الملوك
والسلاطين بوجه عام . وانظر إليه وهو يهنيء الخديو عباساً الثاني بقدميه
إلى مصر في أكتوبر سنة ١٩٠٢ مصطنعاً في ذلك طريقة العصر في نظم
الشعر على حروف الجمل :

وإني الخديوى فحسب النيل أفراحا واستبشر الناس لما نجمه لاحا

٦٩٧ ٦٦١ ١٥٠ ١٢١ ٢٩١ ٩٦٩ ١٤٢ ٧١ ٩٨ ٤٠
سنة ١٣٢٠ سنة ١٣٢٠

وقابلوا عتبات الحمد زاهرة فكلمتها شفاه القوم إفصاحا

١٤٦ ٨٧٣ ٨٣ ٢١٨ ٥٧٦ ٣٨٦ ١٧٧ ١٨١
سنة ١٣٢٠ سنة ١٣٢٠

وذهب عنا ييأس كل فارغة وعمنا فضله يمنا وإصلاحا

٧٠٨ ١٢١ ٦٥ ٥٠ ٣٧٦ ١٦٧ ٩٤٥ ٤٠١ ١٣٥
سنة ١٣٢٠ سنة ١٣٢٠

والمجد ينصره واقطر يشكره والملك يذكره بالعدل إن ساحا

٨٤ ٥٥٥ ٣٤٦ ٥٣٥ ١٢٧ ٩٣٥ ١٢٥ ٥١ ٧٠
سنة ١٣٢٠ سنة ١٣٢٠

على أن هذا كله شعر رسمى قلما يفصح فيه الشاعر عن عاطفه صادقة
أو شعور حقيقى . ولإبراهيم المولى حتى شعر من نوع آخر ، هذا هو الشعر
الإخروانى الذى يعبر فيه الشاعر عن محبته لأصدقائه وتشوقه إليهم . ومن
هذا الأخير تصيدته اتقى تشوق فيها إلى صديقه الشيخ محمد عبده ، وكان بالشام
وإلى صديقه الشيخ بيرم التونسى وكان بتونس ، قال :

سقى الله أرض الشام الحيا	وأخضل قيعانها وازرى
رياض كأن نجوم السماء	خيال لأزهارها فى السما
وماء على جانيه الزهور	كسيف على صفحيته الدما
وأقداح خمر عليها الحباب	كورد يرف عليه الندى
وسان يمس بكاساته	كورد على غصنه قد زها
وشمس عليها الغمام الرقيق	كدينار تبر علاه الصدا
إلى الله أشكو جوى فرقة	أجبت هموما وهاجت أسى
خليل بلبنان أمسى وخل	بتونس ألقته أيدي النوى

يشقان قلبى شق النواة فشق لهذا وشق لذا
 فطوراً أهيم بريح الجنوب وطوراً أهيم بريح الصبا
 حللت أخت الفضل أرض الشام فخل السناء بها والهنا
 وخليت مصر نخلتها كمثل مطلقة عن قلى
 فالوجد حر بأحشائها شديد الضرام شديد اللظى
 وقد كنت فى مصر ريحانة فحيت بها مصر ذاك الحمى
 وغبت فلم تغن عنك رجال كثير العديد رزين الحجى
 كذلك لم تغن زهر النجوم إذا غاب عنهن بدر الدجى
 والقصيدة الأخيرة ذات معان وأخيلة جميلة خلا ذلك البيت الذى شبه
 فيه الماء على جانبيه الزهور بالسيف على صفحتيه اندماء .

وكنا نرد لو ظفرتنا بطائفة صالحة من مثل هذا لشعر . وإذن لأنصفنا
 هذا الأديب الكبير فى ميدان النظم كما نجتهد الآن فى إنصافه فى ميدان النثر .
 ولكن الرجل لم يقم به أحد ولم يجمع آثاره أعدد . ومن ثم فنحن معذرون
 فى الوقوف به إلى هذا الحد .

وفاة المولى :

ومات إبراهيم المولى سنة ١٩٠٦ على أثر علة ذاتابته ولازمته سنة
 كاملة . ويقول جورجى زيدان فى وصف إبراهيم المولى :
 كان ربيع القامة ممتلئ الجسم حسن الملامح ، كما ترى رسمه فى هذه الترجمة
 وكان حلو الحديث ، لطيف النادرة ، سريع الخاطر حسن الأسلوب ، نابغة فى
 الإنشاء والصحافة ، وفى انطبقة الأولى من كتاب السياسة رشاقة ومتانة أسلوب ،
 مع ميل إلى النقد والمداعبة . ولا يخلو نقده من لدغ أو قرص لا يراعى فى
 ذلك صديقاً ولا قريباً ، حتى قيل : لم ينبج من قوارص قلبه إلا الذى لم يعرفه .
 وتولت جريدة (الصاعقة) لصاحبها أحمد فؤاد رثاء المولى بحمائلها
 الافتتاحى فى العدد الذى صدر بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٢٣ هـ الموافق
 ١٨ فبراير سنة ١٩٠٦ م وهو مقال طويل جاء فيه :

كان السيد إبراهيم الميريلحي رحمة الله عليه أنقى خلق الله قلباً وأصفاهم
نية ، وأخفهم روحاً ، وأرقهم طبعاً ، وأحسنهم حديثاً ، وأطلقهم لساناً ،
وأمتهم حجة . إنه ليحدثك بالحديث فتستعذب الإلقاء ، وتستحسن الإيحاء ،
وينشرح صدرك لبديع بيانه ، وفصيح قرآنه وحسن أسلوبه . حتى لكأنه خلق
من كل الأرواح ، وقبض يمينه على أئنة القلوب . ثم قال ومن كالميريلحي
طاف الدنيا وصافح الملوك ، وأزعج أصحاب التيجان ، وأشكل المنابر ،
وأبكى العروش ، وعاشر الناس على اختلاف طبقاتهم وتفاوت مداركهم .
مزاياء عرفت فيه من يوم درج ودب إلى يوم درج في كفته . ولولا هالما كان
إسماعيل على استبداده بالرأى وإثارة للضلال على الهدى يستضيء بنور فكره
في منغاه ، ويستعين بعقله على بلواه ، ولا يبرم أمراً دونه ، حتى هابه مع ذل
المنفي ملوك الأرض وخشي بأسه قياصرتها .. ولولا الميريلحي ما كان إسماعيل
إلا كمن عهدناهم من برنسات نابولي ، ولولا جريدة الأنباء ماسعى الخليفة
سعيه في استقدامه إلى الآستانة ، ولا كان له ما كان من رفعة الشأن وسمو المكان ..
ولولاه ما انتصر جمال الدين على رينان ، وما أدراك ما رينان ، استغفر الله ،
بل لو كان في أجله سعة لصار بفضل الفقيد من المؤمنين . وازداد الاسلام
به عزاً على عز . ولولا فضله في نزع ما تسرب إلى ذهن رينان من الأوهام التي
سكنت إليها نفسه ، وتمكنت من رأسه ما استضافه (سالسبورى) نصف
حول في لندن ، على ما فعله من تفاني هؤلاء الانجليز في الشج ، بل لولا قوة
تأثيره ما خشيت منه حكومة الجمهورية على بأسها وقوتها فأخرجته من ديارها
خوفاً من أن يهيء في الفرنسيين رجالاً منهم يسدخون تونس عنهم . ولو
قلنا أن هذا الرجل لا يعرف إلا الحق ، لا يتخذ كبيراً مهما كثر ما عنده ،
ولولا دعاية فيه لكان له فوق ما أعطاه الله من مراتب العلاء لم نبعده عما
نعرفه من صفاته ونعنده في أخلاقه . فقد عادى عبد الحميد وهو بين سمع
سلطته وبصرها . وحوله جنده وأعوانه لما رأى منه انحرافاً عن زواجر

(٥٢ - أدب المغالة المعنوية ج ٢)

القرآن ، وحارب الضال الزنديق أبا الهدى الصيادى حين أخذ عليه غشه
للخليفة وأفتتانه بعبد الغنى الآغا وأشباهه .

وكانت أقصى أمانيه وغاية ما تصبو إليه نفسه أن يرى للإسلام من
القوة والمنعة والشوكة ، واصولة وألباس ما يرهب أولئك الذين استلأوا
جانبه ، واستهانوا بأهله، ونظروا إليه نظر الضواري إلى السائمة . وكل ما نقل
عنه من حكايات الزيغ في العقيدة ، والغلو في الكفر ، والميل إلى الأذى ،
وحب الشر ، فما يدخل في باب الحسد من أعداء العلم . ولله حكمة في هؤلاء
العلماء لا يدركها عقل الانسان . وما ينقل عنه أن الدول الأوربية لما اتفقت
على جعل المالية المصرية تحت مراقبتها ، وبدأت تكيد لإسماعيل في ملكه،
وأحس منها بذلك ذعروا استدعى عبدالسلام (باشا) المويلحى وكان من أعضاء
مجلس النواب ، وتقدم إليه أن يجمع النواب ويقصدون القناصل في نزل
شبرد، ويسردون عليهم ما تقول إليه حالة مصر من الثورة والفتنة إذا أصرت
الدول على رأيها . فكبر على عبد السلام (باشا) جمع النواب على بعد ديارهم
وتفرق مساكنهم فقال له إبراهيم (بك) وهو في حضرة الأمير : اجمع ما ثمة من
الفقهاء والتجار واذهب بهم فقل أنهم نواب الأمة وتكلم أنت فقال له إسماعيل :

وأنت تذهب معه كأنك من النواب وتأخذ معك لطيف (باشا) سليم بحلته
العسكرية حتى يقيد هؤلاء البهائم بنظام ، وحتى يصرف عنهم ما يختلط
بنفوسهم من الرعب ، إلى غير ذلك مما أعان به أصحاب التيجان . ففكهم من
الأصفاد ، وأبقى عليهم ملكهم . ومن أمراء مصر من لا يعرف المويلحى
أيام أن أشار على إسماعيل أن يهدد القناصل بالبكرى فخافوا من ثورة
تسيل فيها الأرواح وتحصد النفوس وعدلوا عما عزموا عليه .

إلى آخر ما جاء بهذا المقال الافتتاحي الطويل الذى كنبه محرر جريدة
الصاعقة بهذا الأسلوب الرائع المصنئ ، وصدر فيه عن كل هذا الإخلاص
الكبير للمويلحى .

الفصل الثانی

المویلحی وجريدة مصباح الشرق

یجمل بنا قبل أن عرض لهذه الجريدة أن نقدم لها ببعض أقوال الأدباء من رآوها وقرأوها وقالوا أنهم أعجبوا بها ، بل تخرجوا عليها في الأدب والصحافة ، ومن هؤلاء المعجبين بهذه الجريدة الشيخ عبد العزيز البشري ، وهو أديب قاهرى ممتاز ، كانت له جولات في الصحافة الأدبية لم نزل — نحن المصريين — نذكرها له بالثناء والتقدير^(١) .

قال رحمه الله تعالى في كتاب (المختار) :

من أكثر من ثلاثين سنة خلت ، ولما أزل بعد في أيام الفتوة ، وفي صدر طلب العلم في الأزهر ، صدرت في مصر جريدة أسبوعية سياسية أدبية باسم (مصباح الشرق) في أربع صفحات ، دون صفحات الجرائد التي تصدر الآن مساحة ، ولون ورقها يضرب إلى الحمرة ، ويقوم بتحريرها إبراهيم (بك) المویلحی ، وابنه السيد محمد المویلحی . وكانت عامة الصحف الأسبوعية قد وصلت في ذلك العهد من المهانة والفسولة والإسفاف وتفاهة الموضوعات إلى أبعد الحدود .

لقد كان هذا مصباح الشرق ، شيئاً طريفاً حقاً . لقد كان أبلغ من طريف ، فإنه لأعجوبة حقاً ، لقد كان هذا مصباح الشرق أبلغ من أعجوبة ، إنه لشيء يكاد يتصل بحكم الخواص في تلك الأيام !

(١) توفى الشيخ عبد العزيز البشري بالقاهرة في مارس ١٩٤٢ .

وكان من زعماء المدرسة القديمة في أدبنا الحديث ، له أسلوب يرف به ، وقد عرض لتخليه أستاذنا طه حسين في مقدمة كتاب المختار للبشري فليرجع إليه من أراد .

بلاغة بليغة ، ولفظ جزل متخير ، وديباجة مشرقة ، وصيغ مؤنقة ، ونسج متلاحم ، وأسلوب ليس ورائه في هذا الذى يدعو به «السهل الممتنع» أدب بارع ، علم وفلسفة ، وبحوث رائعة في سياسة الأمم وفي الأخلاق وعلوم الاجتماع ، منها المبسك المنشأ ، ومنها المترجم من مختلف اللغى ، في عبارة عربية بليغة ، سلسلة ناصعة واضحة ، لا تستروح منها أى ريح للاستعجام .

وهل رأيت قط ترجحات السابقين في عصر بنى العباس ؟

مذهب طريف في النقد — نقد الأشخاص — لا عهد الأدب العربى به من قديم الزمان ، بل لعله لا عهد له به منذ أول الزمان .

لم نكد تطالع الناس هذه الصحيفة الدقيقة الجرم مرتين أو ثلاثا حتى أصبحت من بعض شغل الخاصة في هذه البلاد . لا يدخل الأصيل في يوم الخميس من كل أسبوع إلا وقد زاعت أبصار ، وتكرمشت جباه ، وتقلصت شفاه ، وتداركت أنفاس ، وجفت قلوب ، هل رأيت انفلات الطائر بعد طول الاحتباس ؟ كذلك كان يترقب الخاصة مشرق (المصباح) .

وسرعان ما تخطفته اليد الراجفة فتشقه ، وسرعان ما يشيع البصر كله في مساحة النقد كلها ، لا يستقر على موضوع خاص ، ولا يتحيز في حديث معين بل أنه لينساح على الصحيفة كلها ، انسياحا ليدرك قبل رد الطرف أشك المويلجى اسم صاحبه فيمن شك ، أم أرسله في جملة المطلقاء ؟ حتى إذا اطمأن الرجل إلى أنه قد كتبت له السلامة لخلته ألقى الصحيفة بين يديه ، وجعل يطامن من نفسه ، ويبسط من خلقه ما انقبض ، ويفرخ من روعه ما تحبس . وإذا كان هذا شأن من لم تصب منهم أقلام المويلجيين فاحكم أنت — عصمنا الله وإياك — كيف كانت حال من تنال منهم هذه الأقلام ! على أنه بما ينبغى أن يذكر هنا أن المصباح لم يكن يعرض قط لأغراض من يتولاها بالنقد ، ولا يتلس إلى مكارهم ، أو يتتبع عوراتهم . بل

لا يتناول من أمورهم إلى ما كانوا يعرضونه هم من ذات أنفسهم ، أو ما يدلون هم عليه بآثارهم وظاهر أعمالهم . فقد كان المصباح أجل من ذلك موضعاً وآنف كرامة . وإنه ليستحدث لونه طريفاً من النقد لا عهد لأدب مصر به ، بل لا عهد به للأمم العربية جمعاء .

هذا النوع من النقد يقوم في الجملة على التماس الضعيف من أثر الرجل فيعرضه بالقلم صورة (كاريكاتورية) يزيد في تشويهها ما يتوافد لذهنه الدقيق من ألوان التشويه وما يحضره من فنون الاستشهاد والتشيل ، ولا يبرح يخط الموضوع في هذه الناحية بالتوليد وطلب المناسبات القرية والملايسات الدانية ، تسندها التكلفة البارعة ، ويسعفها التندر البديع ، حتى ينتهي إلى ما لا ينتهي إليه أحد من الناقدين .

ولقد كان هذا من (مصباح الشرق) الأصل النابت لهذا اللون من النقد . أعنى النقد (الكاريكاتوري) في مصر . كما كانت صحيفة المويلحين (أبوزيد) أول ما عرف — فيما أعرف أنا — من التصوير الكاريكاتوري في هذه البلاد .

لم ينته خطب مصباح الشرق إلى هذا الموضع فحسب ، بل لقد كان على أنه صحيفة لا تظهر في جميع الأسبوع إلا مرة واحدة ، يروى من جلائل الأخبار في الأسباب العامة ما لا تنقله الصحف اليومية على شدة انتصارها لمثل ذلك ، وإذ كاء عدتها الكثيرة في طلبه وتقصيه . فكانت أمهات الصحف اليومية لا تتحرج في كثير من الأحيان من نشر مهام الأخبار ، نقلاً عن صحيفة مصباح الشرق الأسبوعية مضافة إليها معزوة لها . وفضل المصباح في هذا السبق العجيب إنما كان لجلالة محل إبراهيم المويلحي عند أولى الأمم كلهم ، وخفة روحه ، ولطف مدخله ، وسعة حيلته ، حتى ليستخرج منهم بهذا ما لا يخرجونه عنه لغيره من رواة الأخبار ، ولا أحب أن أجوز هذا الموضوع من الكلام قبل أن أقول إن المصباح أول من جلا للناس براعة الجاحظ ، وعبقريته ابن الرومي ، بما كان يختاره لهم من بدائع المنشور ، وروائع

المنظوم ، قبل أن تقع العيون من آثارهما على كتاب أوديان . وأول من عالج النقد الأدبي لما تنضح به قرائح الشعراء ، وأعنى به ذلك النقد الرفيع الغالى الذى جمع بين أساليب النقد فى أذكى عصور العربية ، وبين طرائفه التى اختطها نقدة الغربيين فى هذا الزمان ، وعلى الجملة فلقد فتح المصباح فى الأدب العربى فتحاً جديداً ، وأمسى مصباحاً حقاً يهتدى المتأدبون بسنانه إذا أرسلوا القول أو اجتمعوا لنظم الكلام .

وبهذا أصبح مصباح الشرق أنغر مدرسة لطلب الأدب الرفيع الجزل الطريف فى هذه البلاد .

ونما ينبغى أن يذكر فى هذا المقام أن جماعة الشعراء لقد تعاضمتهم سطوة المصباح فى باب النقد فحسبوا له كل حساب . وياويل من لا يتحرى من الشعراء البارزين ما لا يبلغه الجهد كله من التدقيق والتجويد والإحسان .

ثم قال البشرى فى أول كلامه عن صديقه وأستاذه محمد (بك) المويلحى ما نصه : « لست أغلو إذا زعمت أننى فى مطلع نشأتى الأدبية كان مصباح الشرق عندى هو المثل الأعلى للبيان العربى . وبهذا كنت شديد الإعجاب على قراءته وتقليب الذهن واللسان فى روائع صيغته ، وطرائف عباراته ، حتى لقد كنت أشعر أننى أترشفها ترشفاً لتدور فى أعراقى ، وتخالطدى ، وتطبع ملكتى على هذا اللون من البيان الجزل السهل الناقص الطريف ، ولكن ما كل ما يتعمى المرء يدركه . ولقد كنت قتي مولعاً بالصناعة . شأن أكثر نابعة المتأدبين فى ذلك العهد . فلما أرسل محمد المويلحى فى المصباح حديث عيسى بن هشام زادنى وزاد لذاتى به فتونا (١) .

وعما قليل سنعرض لهذا الحديث الذى فتن به البشرى ولداته ، وهو

« حديث عيسى بن هشام » كجدة من مواد الجريدة التي نصفها الآن ،
وهي جريدة مصباح الشرق . وقد خصصت له فصلاً من فصول هذا الجزء
هو الفصل الرابع .

ولنبداً الآن بذكر محتويات الجريدة ، وذكر التقسيم الصحفي لها ، وأن
الناظر في عدد من أعدادها يجدها تتألف من أربع صفحات فقط ، بالصفحة
الأولى منها نجد عنوان الجريدة (مصباح اشرق) وهي جريدة سياسية
إخبارية علمية أدبية .

تصدر يوم الخميس من كل أسبوع مؤقتاً ، أنشئت سنة ١٣١٥ هجرية ،
لصاحبها ومحررها إبراهيم المويلحي .

وعن يمين الصفحة الأولى من أعلى نجد قيمة الاشتراك وأجرة الإعلان
وعن يسارها من أعلى كذلك نجد تنبيها من صاحب الجريدة للقراء أن تكون
المكاتبات باسمه مباشرة ، وتنبيهاً آخر بأن الرسائل لا ترد لأصحابها نشرت
أم لم تنشر . ثم تنبيهاً ثالثاً بأن وكيل الجريدة هو « أمين إمام » ، وتحت هذه
العنوانات يرى القارئ تاريخ صدور الجريدة بالتقويمين الهجري
والميلادي . وبأقصى الصفحة الأولى من يمين يذكر عدد الجريدة بالرقم ،
وبأقصاها من يسار تذكر السنة .

ثم يأتي بعد ذلك المقال الافتتاحي ، وهو مقال كبير في الغالب يملأ
الصفحة الأولى بأكملها ، وقد يطغى على جزء من الصفحة الثانية كذلك ، بحيث
لا يقل عدد الأنهر التي يشغلها هذا المقال عن خمسة أو ستة ، وتلك هي أولى
مواد الجريدة .

ثم تأتي بعد ذلك في الصفحة الثانية مادة أخرى من مواد الجريدة ،
موضوعها (أخبار دار الخلافة العلية) ، ولا تكاد تبلغ النهرين ، وفيها يقرأ
القارئ أخبار السلطان وحاشيته ، وبعض أخبار الأستانة نفسها .

وكذلك تشتمل الصفحة الثانية من صفحات المصباح على مادة ثالثة

هى مادة « الحوادث الداخلية » . وقد تدخل ضمن هذه المادة أشياء تتصل بها ، من نحو قصيدة فى تهنئة الخديو ، أو قصيدة فى تهنئة أحد الوزراء ، أو قصيدة فى تهنئة رجل كبير كالشيخ محمد عبده بمنصب الإفتاء وهكذا .

يلى ذلك مادة رابعة . ولهذه المادة خطرهما من الناحية الأدبية الخاصة وفيها يعرض المحرر على قرائه فنونا مختلفة من فنون الأدب ، فحيناً يعرض لهم شيئاً من الأدب العربى القديم كأدب الجاحظ ونحو ذلك . وحيناً يعرض لهم شيئاً من الأدب المصرى الحديث ، من إنشائه أو من إنشاء ابنه محمد المويلحى ، وحيناً يعرض للقراء — فيما يقول الشيخ عبدالعزيز البشرى — صورة كاريكاتورية لبعض الخاصة من المصريين^(١) ، وحيناً يقدم للقراء بعض الكتب الحديثة ، ويقوم بتعريفها لهم ، كما فعل ذلك بكتاب « سر تقدم الإنجليز » وهو الكتاب الذى ترجمه أحمد فتحي زغلول من الفرنسية إلى العربية . وكان لتأليف هذا الكتاب ثم لترجمته ضجة كبيرة فى فرنسا وفى مصر . وهذا مادعا المويلحى إلى الإفاضة فى وصف هذا الكتاب وحض المصريين على اقتنائه وقراءته^(٢) .

ثم بالصفحة الثالثة من صفحات هذه الجريدة — أو فيما بقى من هذه الصفحة — يرى القارئ مادة من مواد الجريدة ، هى مادة الإعلانات على اختلافها .

وأما الصفحة الرابعة والأخيرة فقد خصصها المحرر للمادة السادسة وهى مادة تلغرافات الأسبوع .

(١) راجعنا نحن تسعة وتسعين عدداً من أعداد الجريدة صدرت فى السنتين الأولين من حياتها ، ولم نشر على هذا اللون الأدبى الذى يتحدث عنه الفصح عبد العزيز البشرى . فلعل ذلك كان فى السنوات الأخيرة من حياة هذه الجريدة . وهى السنوات التى لم نشر على عدد من أعدادها بعد .

(٢) راجع مصباح الشرق العدد ٦٥ من السنة الثامنة بتاريخ ٢٧ يونيو سنة ١٨٩٩ .

هذا ويجب أن يعرف القارئ أن هذا النظام الذى وضعناه ، أو هذا المنهاج الذى قلنا إن (المصباح) قد صار عليه لم يتم للجريدة دفعة واحدة ، بل مضت مدة كافية حتى استقرت الجريدة على هذا الوضع (١) . وآية ذلك أننا قد اطلعنا على الأعداد الأولى من هذه الجريدة فوجدناها خالية أو كالتالية من تلك المواد الأدبية السابقة ، إذ ليس بها من الأبواب غالباً غير ما يأتى :

(١) المقال الافتتاحى .

(٢) مقال صغير فى الباب العالى .

(٣) مقال صغير عن سياسة الإنجليز .

(٤) حوادث داخلية .

(٥) أخبار السودان .

(٦) تلغرافات آخر ساعة .

(٧) تلغرافات الأسبوع .

وقد جرت العادة أن يفصح المحرر عن أغراض الجريدة فى عددها الأول ولكن المولى لم يفعل شيئاً من ذلك وجاء هذا العدد الأول وبه المقال الافتتاحى وعنوانه هكذا :

(١) ليس فى دار الكتب المصرية غير الأعداد التى ظهرت من هذه الجريدة فى خلال السنتين الأوليين فقط . ولقد ظهر العدد الأول منها بتاريخ (١٤ من أبريل سنة ١٨٩٨) وتولى ظهور أعداد الصحيفة أسبوعياً بانتظام بعد ذلك حتى آتت الجريدة السنة الأولى من صدورها . وكان العدد الواحد والخمسون ختاماً لهذه السنة ؛ وذلك بتاريخ (١٣ من أبريل سنة ١٨٩٩ ميلادية) .

ثم بدأت السنة الثانية للجريدة فظهر العدد الثانى والخمسون بتاريخ (٢٧ من أبريل سنة ١٨٩٩) واستمر صدورها بعد ذلك أسبوعياً إلى العدد الذى ظهر بتاريخ (٦ من أبريل سنة ١٩٠٠) وهو العدد السابع والأربعون من أعداد المصباح فى هذه السنة الثانية وبذلك آتت هذه الجريدة فى أثناء السنتين الأوليين من حياتها إصدار تسعة وتسعين عدداً من أعدادها كاملة ، هى الأعداد التى تسنى لنا الاطلاع عليها ، ومنها استقينا كل معلومتنا عن الجريدة ، وعلى أساسها بسكرت لنا هذه الفكرة التى يفرحها القراء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ولإن أحسن شيء أنت قائله قول يقال إذا ما قلته صدقا (١)
ثم قال :

اللهم حجب إلينا الصدق في القول والعمل ، ولا تجعلنا من المفتونين
بآرائنا ، واعصمنا من الخور ، فلا نضيع على الناس أعز ما لديهم : ما لهم
ووقتهم : في قراءة اللغو ، واحفظنا أن تمد أعيننا إلى ما في أيدي الناس ،
لنسلبه فيهم بالمفتريات المنمقة ، والأباطيل الملفقة ، وتفخيم الألقاب ، والإيهاب
في المديح والإطئاب ، ونجنا من القدح بعد المدح ، والمدح بعد القدح ، ابتغاء
وجهه اندرهم والدينار ، واحقق ماء وجوهنا من تلك السحابة ، سماجة إعادة
الجريدة مراراً لمن يرفضها ويردها ، وطهر صناعة التحرير من أدرانها ، فقد
انحط قدرها في أعين العقلاء . . . واشترك في الآية السكرية قراء الجرائد
وأصحابها ، إلا من عصم الله ، فالقراء سماعون للكذب ، وأصحاب الجرائد
« أكالون للسحت » وقد دخل في زمرة المحررين أميون لا يقرأون الكتاب ،
وأصبحت الجرائد المنتشرة في مصر — إلا ذوات الشأن منها — كالجراد
المنتشر . ولا غرو — فالجراد يأكل المزروعات ، والجرائد تأكل ثمراتها ،
هذا وإن الدهر كالبلبلغ ، يؤدي المعنى الواحد من حوادثه بعبارات مختلفة .

ثم طفق المحرر يسوق أمثلة من الواقع على شره أصحاب الصحف ،
وتحايلهم في ابتزاز المال من أصحاب الجاه والسلطان بحجة في يده رسالة
كلها مطاعن في أحدهم ، وأنه قد جعل له مبلغ من المال على نشر هذه الرسالة
في الجريدة ، ومن ثم يأخذ الرجل ذو الجاه في التفكير حتى يحتقن غمه ،
وتنتقل المسألة عنده إلى طور جدى ، ثم ينفج صاحب الجريدة مبلغاً من

(١) وهو تعريف البيت المشهور :

ولإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا ألقته صدقا

المال ، او على تعبير المويلحي يعطيه «جائزة غير جائزة» ، فياخذها الصحفي ، ويترك صاحبه في شك من جميع أصحابه وأصدقائه .

وفي النصف الثاني من هذا المقال يناشد الكاتب المحتلين في مصر أن يسنوا قانوناً للمطبوعات ، ويحرمون فيه على الصحف نشر الأكاذيب التي من هذا النوع . ثم يرد الكاتب على نفسه في هذه المسألة قائلاً :

« ولكن المحتلين يتعللون بكل تعلة ولا يعقلون ، وإن شتمهم أصحاب الجرائد وسبهم ، لأنهم يتحملون مضاضة القول لفائدة العمل ، وهم يقتفون آثار السياسة الرومانية خطوة خطوة في مستعمراتهم . فلا يتعرضون للناس في دياناتهم وعاداتهم البتة . ولكنهم لا يريدون أن يكون بينهم ذومال جسيم أو جاه عظيم الخ » .

ثم ساق الكاتب شاهداً على ذلك من التاريخ الروماني ، وخلاصته أن القيصر الروماني (تراجان) فتح مملكة وجعل عليها وائياً ، فعجز ذلك الوالي عن ضبط أمورها لوجود الكثير من العظماء والوجهاء وأصحاب الكلمة النافذة في هذه المملكة . « فأرسل للقيصر رسولا يسأله عن رأيه فيهم ، فجاء الرسول إلى قيصر ، وهو في بستانه بجانب شجرة يقص بآلة في يده فروعها العالية ، ليساويها بفروعها الدانية . فقص عليه ما بعث لأجله ، ووقف ينتظر الجواب . فقال له الإمبراطور : اذهب فقد أعطيتك الجواب بما أفعل » .

قال المويلحي « أما استئصال المال فمناجله كثيرة . ويكفي له الألبكية برقصها وقارها . وخمرها وخمارها ... قال لي أحد الأدباء « أن في مصر خمسة ملايين من الألفنة يأكلها فدان واحد ، وهو محلات الخمر والميسر وغيرهما بالألبكية ، فإنه لا يتردد عليها أحد إلا أصيب أخيراً بامتلاء رأسه من الهم ، وفراغ كيسه من الدرهم . وإنك ترى الذين يستحي منهم بالنهار يستحيون منك بالليل فيها » .

تلك هى الكلمة التى افتتح بها المويلحى عدده الأول من أعداد جريدته وهى كلمة خالية من المنهج أو الخطة أو الطريقة أو الهدف ونحو ذلك ، وإنك لترى المويلحى وقد نهج فيها منهج الجاحظ فى الكتابة . بدأها بالدعاء لنفسه على طريقة جاحظية ، واستطرد فيها من قول إلى قول ، ومن فكرة إلى فكرة بطريقة جاحظية . ورشجها بالحكايات والنوادر بطريقة جاحظية . وأكبر الظن أنه أفلح يومئذ فى تقديم جريدته إلى القراء فرأينا أفئدة منهم تهوى إليها .

وقد فرغنا من عرض المقال الافتتاحى الأول لجريدة المصباح ، كما فرغنا من وصف النظام الصحفى لهذه الجريدة ، ولم يبق لنا إلا أن نأخذ فى نقدها من الناحية التى تعيننا فى هذا البحث ، وهى ناحية الأسلوب .
و ثم ملاحظات عامة يجمل البدء بها ثم الانتقال منها إلى الملاحظات الخاصة ، فن العامة :

أولاً : أن الصيغة الأدبية هى الغالبة على هذه الصحيفة ، لأنها تشغل من حيزها فراغاً أكثر من الفراغ الذى تشغله الأخبار والتلغرافات والاعلانات فى وقت معاً .

ثانياً : طغيان الطريقة الأدبية فى الأداء على الطريقة الصحفية ، ونرى مصداق ذلك فى عناية المويلحى بكتابة العناوين فى مادة الحوادث الداخلية على صورة حكمة أو مثل أو بيت من أشعار العرب ، أو بيت شعر من نظم المحرر ، وهكذا .

فمرة ترى الحوادث الداخلية خبراً عنوانه :

طوى الدهر منذ اليوم ذكرى فشودة ولم يبق منها عندهم غير بارها (١)

(١) هو بيت من نظم المحرر الذى قال تحت هذا العنوان : لما كان كثير من الحوادث التى تقع فى مصر لا يكاد يضى عليه بعض الزمن إلا وينطوى فى سجل النسيان رأى أحد أرباب الحانات من الأجانب أن يتى لمساءلة فشودة ذكراً حسناً ، ويخفف لها أمراً جيلاً . ففتح (حانة) أطلق عليها أسم (بار فعودة) . وهناك ما بقي من آثار هذه المسألة .. الخ
وفى ذلك من روح التحكم البادية فى كلام المويلحى ما فيه . راجع العدد للتقدم ذكره .

ومرة نجد خبراً من الأخبار الداخلية بعنوان :
يادار غيرك البلى ومحاك ياليت شعري ما الذى أبلاك ؟
وكان موضوع الخبر انتقاد وزارة الداخلية في خلوها من الموظفين في
أثناء الصيف (١) .

ومرة ثالثة نجد العنوان :
« ومن الخفير أتاهاوا الإخفار »
ومرة رابعة نجد العنوان :
« رب ضارة نافعة »

وفي مرة خامسة نجد العنوان :
إذا فعل الفقى ما عنه ينهى فمن جهتين لا جهة أساء... الخ
ثالثاً : ميل المويلحى ميلاً ظاهراً إلى السخرية واتهم وعتماده اعتماداً
كبيراً عليهما في هذه الجريدة . على أن هذه السخرية غالباً ما تكون جادة
في المقال الافتتاحى أو ما يقوم مقامه ، هازلة أو ضاحكة في باب الحوادث
الداخلية أو ما يقوم مقامه ، وهكذا نجد أنفسنا دائماً أمام صحفى هو إلى
الأدب أقرب منه إلى الصحافة .

ومن ثم كان لإقبال الناشئة المصرية على هذه الصحيفة عظيماً ، كما حدثنا
بذلك انشيوخ عبد العزيز البشرى .

أما أهداف « مصباح الشرق » فلم يشر إليها المويلحى في العدد الأول
من أعدادها كما رأينا . ولكن المطلع على ما بقى من أعداد هذه الجريدة
يستعرض عنوانات المقالات الافتتاحية على عجل ، فيستطيع أن يعرف أن
لصاحبها أهدافاً عامة ، تدل جميعها على أن المويلحى كان من كبار المجددين
المعتدلين في مصر . وتتلخص هذه الأهداف العامة فيما يلى :

(١) راجع العدد ٦٦ من السنة الثانية .

أولاً: الهدف السياسى العام — ونعنى به الدعوة لما كان يسمى يومئذ باسم « الجامعة الاسلامية » وإليها كان يدعو زعماء المصريين وقادتهم فى ذلك الوقت وكانوا يرون فى ذلك عزة الاسلام والمسلمين، وعظم شأنهم فى أعين الدول الأوروبية التى لا ريب أنها تخشى ذلك النوع من التكتل الاسلامى العظيم تحت راية واحدة ؛ هى راية الدولة العثمانية .

من أجل هذا كتب المويلحى مقالات كثيرة بعنوانات مختلفة ، وكان ينحل بعض هذه المقالات (عظيماً من عظماء الاسلام فى الشرق) . ولكن أسلوب المويلحى فيها لم يكن يخفى على أحد .

وفى هذه المقالات كان المويلحى يريد أن يقنع رأى الاسلامى العام بشئ واحد فقط ؛ هو « العزة والقوة » . وكان لا يعنى بالعزة هنا عزة العلم والمعرفة ، ولا بالقوة هنا قوة النار والحديد . وانظر إليه حيث يقول :

« . . . فهذا هو القوة للدين ، هذا هو الإصلاح للدولة والذود عن حوض المسلمين ، لا ما يضيغون به الوقت سدى من الأخذ والرد ، والمناقشة والجدل فى بيان الإصلاح ، وحفظ الجامعة الاسلامية من إيراد الآراء فى كيفية عقد المؤتمرات ، وذكر العلم والتعليم ، والكلام فى نشر المدارس والمعارف ، والأخذ بأذيال الغربيين فى مدينتهم وأشكال حكومتهم ، وتراكيب جمعياتهم ، اللهم إن كل هذه الأقوال دون الأفعال إن دمننا عليها لتوصلنا إلى ما كان عليه حال القسطنطينية حين دخول الفاتح إليها ، كان العلماء من أهلها لاهين فى مجلسهم بالمناقشة والجدل فيما لا نفع فيه ولا فائدة منه ، ورمح انقاع يقرع الباب » (١) .

وفى العدد الثالث والتسعين من السنة الثانية تحت عنوان ، مدينة قرن :

(١) راجع مصباح الفرق : العدد ٩٥ من السنة الثانية — بعنوان : الوطن فى الاسلام

قال المويلحي : « فقد تبين من جميع ما تقدم أن سلامة المسلمين ، وحفظ دولتهم الآن في قوة السلاح ، لافي انتشار المعارف الغربية ، وحرية الجرائد واقتفاء آثار الغربيين في مدينتهم الخ ، كأن هذه الموضوعات كانت كل ما يشغل بال الرأي العام إذ ذاك .

وفي سبيل « الجامعة الإسلامية » كان المويلحي يدعو كذلك إلى الاكتتاب العام لجميع الأموال اللازمة لتدعيم هذه الفكرة ، وسرى أنه لم يكتف بالمقالات العامة التي كتبها في الدعوة لهذا الاكتتاب ، حتى أخذ يجعل ذلك غرضاً من أغراض انقصة التي بدأ يكتبها وينشرها كذلك على صفحات جريدته « مصباح الشرق » ؛ وهي القصة التي عنوانها « حديث موسى بن عصام ، كما سرى بعد .

ثانياً : الهدف السياسي الخاص — وهو الدفاع الحار عن مصر والسودان ضد الاحتلال الإنجليزي ، ثم دعوة المصريين إلى الاتحاد والتوفيق التام بين عنصرى الأمة : المسلمين والأقباط ، حتى لا يحدث المصريون في صفوفهم ثغرة ينفذ منها العدو . وهنا لا يكتفى المويلحي كذلك بكتابة المقالات حتى يجعل هذه الدعوة غرضاً من أغراضه في تلك القصة التي نشير إليها ، وهي « حديث موسى بن عصام ، التي سيأتى الكلام عنها .

وما رأيت المويلحي قد ارتفع في أسلوبه قدر ارتفاعه في المقال الذي كتبه بالعدد السادس والخمسين من السنة الثانية من حياة المصباح . وقد جعل عنوانه المقال بييتين من الشعر يظهر أنهما من نظمه ، وهما قوله :

رأينا من الإصلاح في مصر نوعه وسوف نرى سودانها مثل ما نرى
فما هبطت حمر الثياب ببلدة وكان لدود الأرض قوت من الثرى
ولا شك أنه يكنى هنا عن الانجليز بكلمة « حمر الثياب » ، وفي هذه المقالة كان المويلحي منفعلاً أشد الانفعال ، وليس أدل على ذلك — فيما نرى —

من إيراد كلامه في هذا المقال إيراداً موسيقياً دقيقاً ؛ حتى ليخيل إلى القارئ أنه يقرأ شعراً لا نثراً ؛ وعندى أن ذلك لا يتيسر للكاتب إلا في أوقات انفعاله واشتغاله وجدانه .

ثالثها : الهدف الديني — وكان المويلحي يهدف في بعض مقالاته إلى الإصلاح الديني على النحو الذي دعا إليه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . وكان المويلحي يوجه الحديث في هذه المقالات إلى رجال الأزهر ، غير أنه كان يسلك معهم سبيل السخرية والتهكم ، بخلاف الأستاذ الإمام فقد سلك معهم سبيل الجد والصرامة ، وهما صفتان من صفاته وطبعتان من طباعته . والفرق بين المويلحي ومحمد عبده في ذلك أن أولهما أديب والثاني زعيم ، ومن ثم كانت السخرية والبلاغة في الأداء بعض وسائل الأول ، وكان الجد والعلم والاشتغال بتفسير القرآن والحديث ، والدعوة الصريحة إلى الجد في الإصلاح وسائل اثنى ، وهكذا لا تتصور أحدهما حين يكتب إلا باسمه ، ولا تتصور الآخر حين يكتب إلا عابساً ، وكان المويلحي لا يرى صلاح الدين إلا بالرجوع إلى أصله الأول الذي كان عليه زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

فتنزع منه تلك البدع ومحدثات الأمور ، إذ الدين على ما نراه مشحون بما ليس منه ، مما يضحك ويبكى ، من الأقوال المضللة ، والمسائل الخلافية ، والأحاديث الموضوعة ، والأساطير الملفقة ، ومثل من يعلم علوم الدين قبل خلوها من هذه الشوائب كمثل الرجل الذي لقن ابنه ستين ألف حديث . وبعد أن أضاع الغلام الزمن في حفظها عن ظهر قلبه قال له أبوه : اعلم أن ما حفظته الآن من الأحاديث كله موضوع ، ولم ألقنك إياه إلا لتعلم أن ما عداه هو الصحيح (١) .

(١) انظر مصباح الفرق — العدد ٧٣ — من السنة الثانية — بعنوان رسالة نائلة طلعت علينا من أفق الفرق لعظيم من عظماء الاسلام .

وكان المويلحي كذلك يدعو بدعوة الشيخ محمد عبده . في وجوب تعليم رجال الأزهر ، ووصلهم ببعض العلوم الحديثة ، ووصلهم كذلك بأمهات كتب الأدب ؛ وهي : الكامل للبرد ، ونقد الشعر لقدامة ، وتهذيب الألفاظ لابن السكيت ، والعقد الفريد لابن عبد ربه . كتب المويلحي يقول :

« وأطال أحدهم وهو حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبده — في بيان الفائدة على الأزهر وطلاب علوم الدين من تدريس هذه الكتب التي هي أركان العلوم الأدبية ، فرد عليه من يزعم أن مدارستها تعطل من مدارس العلوم الدينية (على أن الدين لا يفهم إلا بها) حتى انتهى بهم الجدل إلى موافقة أربعة منهم على وجوب تدريس تلك الكتب . ولكن الأغلبية قررت أن ممارسة هذه الكتب والارتياض عليها أمر غير واجب ، ومستحسن غير لازم ، لا يوجب على العلماء على الطلاب في التدريس ، ولا يأخذونهم به ، ولا يحملونهم عليه ؛ ولكنهم يبيحون للطالب أن يحصل ذلك بنفسه إن أراد ،^(١) .

رابعها : الهدف الاجتماعي — وهو ما حدا بالمويلحي إلى النظر في إصلاح المجتمع الشرقي عامة ، والمجتمع المصري خاصة . وقد دعا ذلك إلى النظر بعين الاستخفاف الممزوج بالإشفاق إلى العادات القبيحة في الشرق ، والعادات القبيحة في مصر ، والأخلاق الضعيفة هنا والأخلاق القوية هناك . ومن أجل هذا كتب المويلحي مقالات بعنوان (الشرق والغرب) ، وأخرى بعنوان (الشرق وحده) وثالثة بعنوان (مضر وحدها) .

وكان المويلحي في جميع ما كتب في هذه الناحية شديد الاعتزاز بمصريته وعثمانيته وشرقيته ، شديد السخط في الوقت نفسه على المدنية الغربية . قوى التحذير لقومه بالألا يغتروا بهرج الحضارة الأوروبية وهو من هذه

(١) راجع (مصباح الفرق) — العدد ٧٩ — من السنة الثانية — بعنوان مستحسن غير لازم .

(م ٦ — آداب المقالة الصحفية — ج ٣) .

الناحية يعتبر تليذاً مخلصاً للتدويم. والتدويم - كما نعلم - هو أول من حارب
التفرنج وسخر منه وندد به. واقرأ عبارة المويجلي إذا يقول :

« والمدنية الغربية ليست على شيء من الفضل والكمال ، ولا تقوم - كما
يزعمون - على دعامة الأخلاق الفاضلة وما تشمله من العدل ، والانصاف ،
والإخاء ، والمساواة ، والرحمة ، والشفقة ، والمحبة الإنسانية والحرية
العامة ، وإن جل ما فيها ، بل كل تزويق ، وتنميق ، وتضليل وتمويه ،
وزخرف ، وبطلان . يختفي في طياتها ما ركب في طباع الإنسان من النقائص
التي ينطوى تحتها الظلم ، والجور ، والعداء ، والآثرة ، والقسوة ، والطمع ،
والنهم . بل إن تلك المدنية تزيدها حدة ، وتكسيها نمواً ، وتبلغ بها أقصى
معانيها ، فتعممها من الأفراد إلى الجمعيات ؛ حتى تصبح لا أثر فيها للشعور
الشريف ، والاحساس الطاهر ، والعواطف الكريمة الخ » (١) .

تلك هي أهداف «المصباح» الأربعة . وأستطيع أن أضيف إليها هدفاً
خامساً : هو الهدف الأدبي - ومن أجله أخذت المواد الأدبية تشيع شيئاً
فشيئاً في هذه الجريدة ، حتى جاء وقت وجدنا فيه الغلبة لهذه المواد الأدبية
على غيرها من المواد الأخرى بل من أجل هذا الهدف توخى المحرر
الإجادة في أسلوبه الصحفي قدر استطاعته ، حتى أصبحنا لا نكاد نلصق في
جريدته الفرق واضحاً بين الأسلوبين الأدبي والصحفي ، بل رأينا كتابة
المويجلي وقد أصبحت نموذجاً يحتذى ، وطريقة تتبع ، وأثر يقتنى ، كما
أصبح لهذا الأسلوب الجديد ضجة كبيرة في الأوساط المثقفة ، وسلطان كبير
على النابتة .

(١) راجع مصباح الشرق ، العدد ٧٦ من السنة الثانية تحت عنوان (مثال لبرهان)
والعدد ٩٨ من المصباح مثلاً بعنوانه (فطائع الحضارة) .

الفصل الثالث نموذج من المقال

في جريدة مصباح الشرق

كتب المولى محيى بالعدد (٣٠) من السنة الأولى بتاريخ الخميس ٢٥ جمادى
الثانى سنة ١٣٢٦ الموافق ١٠ نوفمبر سنة ١٨٩٨ مقالا افتتاحياً هذا نصه :

أيها العلناء

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)

الدعوة إلى الدين وبعث البعث لها من أطراف الأرض إلى أطرافها
أمر واجب في الدين الإسلامى ، فإنه لم ينتشر من بطاح مكة إلى حيطان الصين .
إلى أقاصى الغرب ، إلى مجاهل الجنوب ، إلى جزائر المحيط إلا بهذه الدعوة
محمولة في صدور رجال تجشموا متاعب الأسفار في زمن كان السفر فيه قطعة
من العذاب ، فلم يمنعهم هذا العذاب من الوصول إلى حدود الهند وغيرها
خطوة خطوة ، يصيبهم الظمأ وتهلكهم الخمصة ، وينهكهم النصب وتنبهى
تحتمهم أبدان الإبل ، وتغور أعين المطايا . قاموا بهذا إمتثالاً لأمر الله بالجهاد
في سبيل الله . والجهاد ليس السيف وحده . والسيف القاضب مخراق لأعب
إذا لم تمض الدعوة حده ، وجهاد الغنى والغواية ، والجلل والجهالة ، والهوى
والضلالة بالدليل والحجة والبرهان هو الجهاد الأكبر ، وهو الجهاد في الله .
قال الله تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده » .

قال المحققون من المفسرين في تفسير هذه الآية الشريفة : هو أمر
بالغزو وبمجاهدة النفس والهوى ، وهو الجهاد الأكبر . وعن النبي صلى الله

عليه وسلم أنه رجع من بعض غزواته فقال : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .

هذه كانت سيرة السلف رضى الله عنهم ، وهذا كان ديدنهم ، وهذا كان عملهم في نشر الدين الاسلامي ، وإزالة القلوب بنوره ، وهداية النفوس بهديه ، وتطهير الصدور من أدران الضلالة ، وأوضار الخرافة بالأدلة الساطعة ؛ وإبراهيم القاطعة . ولكن من نكد الدنيا أن خلف من بعضهم خلف انقطعوا عن العمل ، وقعدوا عن الواجب ، وركنوا إلى الراحة ، ووقفوا عند التفاخر والتشايخ بأعمال غيرهم ، حتى اضمحل ذلك التفاخر على طول الزمن بانقطاع العمل . والعمل ببيان إذا لم يسنده عمل آخر تهدم وانقض قال سيد من آل بيت النبوة رضى الله عنه :

بنى كما كانت أوائلنا تبنى ونعمل مثل ما عملوا
وكفى بهذا البيت شاهداً على وجوب استمرار العمل بعد ذلك البناء
الذى شاده جدهم صلى الله عليه وسلم .

وما زلنا على هذا التقاعد والتقاعد ، والتكاسل والتجادل ، حتى ضاعت الفرض ، وانسدت وجوه المساعي ، وأنست النفوس بهذا الخمول ، وألفت القلوب هذا العقود ، وأصبح المسلم لا يستطيع أن يطالب المسلم بتوسيع دائرة الاسلام كما يدعو إليه الواجب الأول ، بل غاية ما يستطيع أن يطالبه به هو أن يعمل على حفظ ما وصلت إليه تلك الدائرة ، فيسعى المسلمون ، وعلماء المسلمين في إحياء السنة ، وإماتة البدعة ، ونفى الضلالة وعمو الخرافات . وقد قال عليه الصلاة والسلام : إذا ظهرت البدعة فعلى العالم أن يظهر عليه ، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله .

لا أريد أن أمضى في هذا المقال قبل التعليق على القدر الذى نقلناه منه الآن ، كما نريج القارىء في الفينة بعد الفينة ، ونسوق الملاحظات التى نلاحظها طائفة بعد أخرى .

وأول ما نلاحظه هنا عنوان المقال ، فلم يكتف المولى بحى بأن يكون

هذا العنوان (أيها العلماء) حتى وضع للبقال عنواناً آخر ، هو آية من آيات القرآن ، وتلك طريقة يختص بها المويلحي الذي رأيناه شديد العناية بالعناوين الأدبية الجذابة بقدر المستطاع .

وإذا عرف القارئ أن موضوع المقال هو دعوة الأزهر الشريف في مصر ، ودعوة الحكومة المصرية معه إلى عمل إيجابي في السودان ، يقابل الأعمال الإيجابية الكثيرة التي يقوم بها الانجليز هناك . وهذا العمل الذي يدعو إليه الأزهر والحكومة في السودان إنما هو العناية بنشر الدين الإسلامي في تلك البلاد بعد إذ فشا فيها الجهل ، وانتشرت فيها الخرافات .

أقول عرف القارئ أن الموضوع الرئيسي للبقال هو هذه الدعوة التي وجهها الكاتب للعلماء ، وعرف أن هذا الكلام الذي قرأه حتى الآن لم يعد أن يكون مقدمة لموضوع هذه الدعوة لا أكثر ولا أقل ، وللمويلحي في حقيقة الحال غرام شديد بالمقدمات ، وله ميل عظيم نحو الإطالة فيها ما استطاع إليها سبيلاً . ويرى القارئ مصداق ذلك في جميع المقالات الافتتاحية التي كتبها في جريدته مصباح الشرق .

أما الأسلوب الذي صيغت فيه هذه المقدمة فيستطيع القارئ أن يلبس فيه طائفة من الخصائص الفنية ومنها .

أولاً : حرص الكاتب على إزالة الألفاظ ، كما في قوله يصف جهاد السلف في سبيل نشر الدعوة « محمولة في صدور رجال تجشموا متاعب الأسفار في زمن كان اسفر فيه قطعة من العذاب ... يصيبهم الظمأ وتهلكهم الخمصة ، وينهكهم النصب ، وتنبري تحتهم أبدان الإبل ، وتغور أعين المطايا ... الخ » .

ثانياً : حرص الكاتب كذلك على التوقيع الموسيقي للعبارة حرصاً يضل إلى حد السجع في أوقات قليلة ، وإلى الازدواج في أكثر الأوقات كما في قوله :

« قاموا بهذا امثالاً لأمر الله بالجهاد في سبيل الله ، والجهاد ليس السيف وحده ، والسيف القاضى مخراق لاعب إذا لم تمض الدعوة حده » .

ثالثاً : حرص الكتاب أيضاً على التوسع في التعبير أو الإسهاب في الأسلوب ، أو بعبارة أخرى التبذير في استخدام المترادف طمعاً في تثبيت المعنى في ذهن السامع ، وتمشياً مع طبيعة المويلحى التى هى أدنى إلى السرف كما أشرنا وسنشير إلى ذلك . وانظر إلى قوله :

« جهاد الغنى والغواية ، والجهل والجهالة ، والهوى والضلالة ، بالدليل والحجة والبرهان هو الجهاد الأكبر ، وهو الجهاد فى الله » . وفى العبارة السابقة — فضلاً عن الإسهاب — نوع من الجناس بالاشتقاق بين الغنى والغواية وبين الجهل والجهالة لا يخفى على القارىء .

رابعاً : ميل الكتاب إلى الاستشهاد بالقرآن مشفوعاً بذلك بتفسير الآية التى استشهد بها . ولا تقل إن موضوع المقال هو الدعوة إلى الجهاد ، فكان على الكتاب أن يستشهد بالقرآن ، فالحقيقة أن المويلحى من أشد الكتاب فى عصره حباً فى الاستشهاد ، وأكثرهم حرصاً على أن يشفع ذلك بالتفسير الذى يرجع فيه إلى أئمة هذا العلم .

وهذا ما فعله الكتاب أيضاً بالحديث النبوى . أعنى أنه كان حريصاً على الإتيان به ، وعلى الخوض فى شرحه والتعليق عليه .

تكفى هذه الملاحظات لكى نعود إلى المقال من حيث تركناه قال :

« وهذا السودان فقد توالى عليه الفتن ، وقام فيه (محمد أحمد)^(١) بدعوى كاذبة ألبسها لباس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ليجذب القلوب إليه . فظهر لنا الآن بما كان ينشره على قومه أنه كان يسعى فيهم لإحياء السنة ، وإماتة البدعة ، وهو — وإن كان أخطأ فى دعواه ، فإنه

(١) هو محمد أحمد المهدي المعروف فى التاريخ .

أصاب في مسعاه ، وقد عثرنا على كثير من هذا القليل في الأوراق التي كان ينشرها ؛ ومنها الرسالة التي أثبتناها له في آداب الصوم . ولكنه ما كاد يؤلف القلوب على هذا الطريق حتى قضى نحبه ، وخلفه طاغ ، باغ ، أفاك ، سفاك ، عاى . أى عريق في الجهالة والضلالة ؛ ذلك (عبد الله التعاشى) فكان أول ما بدأ منه أنه هدم ما بنى محمد أحمد . فدفعه جهله وعداوته للعلم أن أمر يالقاء جميع ما في أيدي الناس من الكتب في النيل إلى أفواه التماسيح ، وحرم أهل السودان قاطبة من الوقوف على واجباتهم الدينية ، والرجوع إليها في كتاب ، ونفى أصحاب محمد أحمد الذين كانوا يرشدون بإرشاده جملة إلى (فشودة) ، فمكث السودانيون على الجهل سنين تراكت عليهم الضلالات ، وتمكنت منهم الخرافات ، وتأصلت فيهم البدع ، ولم يبق فيهم من يأمرهم بمعروف ، وينهاهم عن منكر .

أما الآن وقد فتحت أبواب السودان ، وظهرت هذه الأمة السودانية الإسلامية بمظهر الافتقار إلى تجديد السنة ، وتبديد تلك الخرافات بمزشرين يرشدونها إلى هداها ، ويخلصونها من هراها ، فكان ينبغي أن أول ما نسمعه عقب الفتح أن مجلس العلماء في إدارة الأزهر الذى يجتمع لغير شيء ، قد اجتمع مراراً في اليوم الواحد لانتخاب جماعة من طلبة العلم ، يرسلهم إلى السودان ، ليرشدوا الناس إلى دينهم قبل أن تلبس عليهم الوجوه ، ويتخططهم ما يتخططهم بعد الفتح ، لا أن نسمع أن (السردار) يدعو قومه إلى اكتاب يفتح به مدرسة إنجليزية في السودان لإحياء لذكرى (غوردون باشا) الذى كان رئيساً عند الإنجليز في الدين ، لما كان لديهم في السياسة رئيساً ، ولا أن نسمع الأخرى ؛ وهى أن حضرة البابا أمر بعد فتح السودان بإرسال رسل من المبشرين اليسوعيين ، وعين للسودان وأفريقيا رئيساً لنشر الدين المسيحى . هذا وأهل الأزهر يتشاءمون ويتناوون تحت ظلال مجلس إدارتهم ، لا ينظرون إلى ما يوجب سعادة الدارين ، ولا سعادة الدار الواحدة . فهم يفضلون البقاء على أكل

الخبز البحت ، فإن كان ثم إدام فالفجل ، والجن ، وقشور الفواكه . وقد رضوا من الدنيا بالنزول إلى ما لا يقدر الدهر أن يسلبه منهم ، فإنه لا يقدر أن يسلب الخبز من أحد في مصر . ومن رضى لنفسه هذه القناعة هانت عليه الأعمال العظيمة ، وقويت نفسه على تحمل المشاق في سبيل الأعمال الصالحة التي يدخرها ليوم الحساب . وهم أجل من رضوا بالزهدين : الزهد في الدنيا والزهد في الآخرة . فلولاً نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون .

قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة : دلت الآية على أنه يجب أن يكون المقصود من التفقه والتعلم دعوة الخلق إلى الحق ، وإرشادهم إلى الدين القويم ، والصراط المستقيم ، لأن الآية تدل على أنه تعالى أمرهم بالتفقه في الدين ، لأجل أنهم إذا رجعوا إلى قومهم أُنذروهم بالدين الحق ، وأولئك يحذرون الجهل والمعصية ، ويرغبون في قبول الدين . فكل من تفقه وتعلم لهذا الغرض كان على المنهج القويم ، والصراط المستقيم . ومن عدل عنه وطلب الدنيا بالدين كان من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وقال الإمام الزمخشري في تفسير هذه الآية بعينها (فلولا نفر) : حين لم يكن نفير الكافة ، ولم تكن مصلحة فلولا نفر (من كل فرقة) أى من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير . (ليتفقهوا في الدين) ليتكفوا الفقاهاة فيه ، ويتجشموا المشاق في أخذها وتحصيلها . (ولينذروا قومهم) وليجعلوا غرضهم ، ومرمى همته في التفقه إندادهم ، وإرشادهم ، والنصيحة لهم ، لا ما ينتجيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ، ويؤمونه من المقاصد الركيكة من التصدير والترأس ، والتبسط في البلاد ، والتشبه بالطلبة في ملابسهم ومراكبهم ، ومنافسة بعضهم بعضاً ، وقشوراء الضرائر بينهم ، وانقلاب حمايلق أحدهم إذا لمح بصره مدرسة لإخسر أو شذمة جشوا بين يديه ،

وتهالكه على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم . فما أبعد هؤلاء من قوله عز وجل : لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، الخ .

ونزج القارىء مرة أخرى من المقال ، لنأخذ معه في نقد هذا الجزء الذى نقلناه وهذا الجزء فى الحلقة هو صلب المقال ، أو الفكرة الأساسية التى يريد الكاتب أن يعبر عنها ، وينقل إحساسه بها كاملاً إلى القراء . وفيه نجد المولى يحى يبسط حالة السودان . وقد افتقر منذ ظهور التعايشى إلى الهداة والمرشدين ، وإلى العلماء والمتفقيين فى الدين ، وانتقل الكاتب من ذلك إلى الموازنة بين ما صنعه الإنجليز — ومعهم البابا — من لرسالهم المبشرين ، وقتحهم المدارس لإحياء لذكرى رجال السياسة والدين ، وما صنعه الأزهر الشريف من نومه العميق ، وجهله الحقيقى ، وتجاهله أمراً أوجهه الدين ، وهو الدعوة إلى الحق فى بلاد ظلمأى إلى معرفة الحق . كل ذلك فى أسلوب تظهر فيه الخصائص الفنية التى أشرنا إليه ظهوراً لا مرية فيه .

فمن جزالة فى الألفاظ ، إلى حرص شديد على الإيقاع ، كما فى قوله : وخلفه طاغ باغ ، أفاك سفاك ، عأى أمى ، عريق فى الجهالة والضلالة الخ . إلى استشهاد بالقرآن ، على أن يكون هذا الاستشهاد مشفوعاً بالتفسير . وإن كان التفسير فى هذه الفقرة التى تقدمت من المقال قد طغى طغياناً عظيماً خرجت به المقالة المتقدمة على أن تكون مادة صحفية إلى أن تصبح درساً تفسيرياً .

وليس شك فى أن المولى يحى كان فى هذا الاتجاه متأثراً بنشأته الدينية وبأستاذه الأول الذى قلنا أنه اتصل به منذ الطفولة ، وهو الشيخ العطار صاحب الحانوت المجاور لجانوت أبيه .

على أن أكبر ما بلغت نظر الناقد فى العبارة السابقة إنما هو إثارة لرجال الأزهر الشريف ، واعتماده فى هذه الإثارة على السخرية والتهكم ، وبلوغه من هذين ما لا يبلغه كاتب آخر فى عصره ، وحين يعالج موضوعاً كهذا الذى نحن بصدده .

ومن كالمويلحى فى لذعه وتهكمه وتفننه فى السخرية والتندر ؟
وتنحلّ السخرية عند المويلحى إلى طائفة من العناصر التى لا تنفى على
القارىء الفطن ، ومنها عنصر المفارقة أو الموازنة . وهو فى العبارة السابقة
يوازن لنا موازنة واضحة بين صنيع الانجليز فى السودان ، وصنيع المصريين
فى تلك البلاد ؛ وهى موازنة تثير الضحك من علماء المسلمين ، كما تثير السخط
عليهم من الناس أجمعين .

ومن عناصر السخرية عند المويلحى عنصر الاستقصاء ، وعنصر التعليل ،
وعنصر الذم بما يشبه المدح ، وعنصر العبث بالألفاظ ، وعنصر التسمية
الزائفة لبعض المعانى ، أو هذه العناصر التى يتألف منها ما يسمى عند عامة
المصريين فى وقتنا الحاضر (بالتريقة) .

وانظر معى إلى المويلحى كيف يتدرج فى السخرية من رجال الأزهر .
فيبدأ أولاً بقوله :

« ... فكان ينبغى أن أول ما نسمعه عقب الفتح أن مجلس العلماء فى
إدارة الأزهر الذى يجتمع لغير شىء .. الخ » ثم يمضى الكاتب قدماً فى
هذه السخرية فيقول :

« هذا — وأهل الأزهر يتشاءمون ويتناومون تحت ظلال مجلس إدارتهم .
وانظر إلى قول تحت ظلال مجلس إدارتهم فهو يبعث فى الذهن قول النبي
« الجنة تحت ظلال السيوف » كما تبعث فى الذهن تلك الموازنة بين استعمال
(الظلال) هنا (والظلال) هناك :

ويتقدم الكاتب فى سخريته قائلاً فى وصف رجال الأزهر .
« لا ينظرون إلى ما يوجب سعادة الدارين ، ولا سعادة الدار الواحدة »
والشاهد فى قوله « ولا سعادة الدار الواحدة » ، ثم يقول :
« فهم يفضلون البقاء على أكل الخبز البحت ، فإن كان ثم إدام فالفجل
والجبن وقشور الفواكه . وقد رضوا من الدنيا بالنزول إلى ما لا يقدر

الدهر أن يسلبه منهم ، فإنه لا يقدر أن يسلب الخبز من أحد في مصر .
وفي هذه الجملة الأخيرة وصل المويلحي إلى الدرجة الأخيرة في سلم
السخرية الذي صعد به إلى الأزهر ورجال الأزهر . وهناك من أعلى الدرج
رمى الكاتب هؤلاء بقوله لهم :

« ومن رضى بنفسه بهذه القناعة هانت عليه الأعمال العظيمة ، وقويت
نفسه على تحمل المشاق في سبيل الأعمال الصالحة التي يدخرها ليوم
الحساب . وهم أجل من أن يرضوا بالزهادين : الزهد في الدنيا والزهد
في الآخرة » .

وفي هذه العبارات الأخيرة تتضح العناصر الباقية من عناصر السخرية
عند المويلحي ، وهى عنصر الذم بما يشبه المدح ، وعنصر التسمية الزائفة
لبعض المعاني . ومما ورد من هذه المعاني في العبارة المتقدمة معنى القناعة
ومعنى الزهد ، ومعنى قوة النفس على تحمل المشاق ، ومعنى الأعمال الصالحة .
وكل هذه الألفاظ إنما يراد بها في نفس المويلحي معنى الذلة والخنوع ، ومعنى
الفقر والضعف ، ومعنى الجبن والخور ، والتعاقد عن أداء الواجب .

ثم انظر إلى المويلحي ينتقل فجأة وعلى غير انتظار من هذا الضحك
إلى الهدى ، والسخرية المريعة إلى الجد الجاد ، وإلى القول الحق ، وإلى الحقيقة
الدائمة ، وهى القرآن الكريم ، فيصب في آذان رجال الأزهر قوله تعالى :
« فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم
إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

صب الكاتب ألفاظ هذه الآية الكريمة صباً في آذان رجال الأزهر ،
ثم وقف قليلاً ليذكر هؤلاء أقوال المفسرين على اختلافهم في تفسير هذه
الآية الكريمة . وهنا يأتي الكاتب لهم بتفسير الزخشري .
وهكذا يتلاعب الكاتب بعقول رجال الأزهر وعواطفهم ومشاعرهم
ويبلغ من ذلك كل ما أراد .

وأخيراً يدنو الكاتب من خاتمة المقال ، حيث يرسم لرجال الأزهر طريق السير في هذه الغاية فيقول لهم :

هذا ما يكلف الله به طلبة العلم ؛ ويفرضه عليهم ، ويأمرهم به ، وينهاهم عن مخالفته ، وهذا حال السودان على ما شرحناه ، فما التعلّة التي يقابلون بها الناس في الدنيا ، ويلقون بها الله في الآخرة ؟

فإن قيل إن رقة القروى الأزهرى الرواقى تمنعه من تجشم الأسفار ، ومضارقة الأهل والأوطان ، قلنا لمجلس الإدارة في الأزهر إن لديك جماعة من طلبة العلم السودانيين ، لا تعوقهم رقة الحضارة عن الرجوع إلى أوطانهم التي طالما خفوا إليها ، ولا يتعذرون عليك اتدأبهم بهذا الصييل الخيد ، لتحرز لك ولهم وللمسلمين شرف الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

أما إذا تقاعد أهل العلم ، وتقاعس أهل الفقه ، وتكاسل أهل الفضل من العلماء وأئمة الدين ، وحملت الكُتّاب في الأزهر الشريف عن هذا العمل الواجب ؛ وسمعنا بعد ذلك بنجاح دعاة الأديان الأخرى في مساعيهم وأعمالهم مع السودانيين ، فيكون الإثم والجرم والذنب أطواقاً في عنق كل من يتصدر في المجالس ويدعى الفقه والعلم والإرشاد والهداية ، ويبسط اليد للتقبيل ، والذيل للتبريك .

والكاتب في هذه العبارات السابقة أكثر هدوءاً واتزاناً ، وأدنى إلى الروية والتريث ، وأميل إلى التبسط في القول ، والإطالة في الأسلوب ؛ كما في قوله «أما إذا تقاعد أهل العلم ، وتقاعس أهل الفقه ، وتكاسل أهل الفضل الخ» . وكما في قوله «فيكون الإثم والجرم والذنب أطواقاً في عنق كل من يتصدر في المجالس ، ويدعى الفقه والعلم والإرشاد والهداية» .

ألا ترى أيها القارىء أن الإثم هو الجرم هو الذنب ، ولكن الذى حمل الكاتب على الإتيان بهذه الألفاظ الثلاثة أمران . أولهما نغيبته في

الإتيان بهذا التشبيه للآثام بالآطواق . وثانيهما ميل الكاتب إلى التبذير في الالفاظ تبذيراً لا يذكرنا إلا بميله المعروف إلى التبذير في المال .

وأخيراً بعد الأسطر الكثيرة ، والعبارات الطويلة والصور المتلاحقة يحتم الكاتب مقاله بهذه العبارة : « وقد بسطنا القول ، وأوضحنا الكلام ، وبيننا مقدمات الأعمال . ولا شك أن من له مسكة من العقل يصل إلى معرفة نتائجها التي تأتي بأعظم المصائب على الإسلام ، وأنكى التوائب على الدين الحنيف . »

والآن — وقد فرغنا من عرض هذا المقال — يحمل بنا أن نلقى عليه نظرة أخرى من أعلى ، نقف بها على الخصائص العامة التي تميزه فهل كان هذا المقال صحفياً ؟ أم هما معاً ؟ .

لقد صح عندى بعد قراءة هذا المقال أنه إلى الخطبة أدنى منه إلى المقالة كما صح عندى — مع ذلك — أنه يشتمل من عناصر المقالة الصحفية على عنصرين هامين ؛ ينبغي أن نشير إليهما إنصافاً للويلحى الصحفي ، واعترافاً باستعداده العظيم لمهنة الصحافة ونجاحه فيها رغم تغلب الأسلوب الأدبي عليه وهذان العنصران الصحفيان هما :

أولاً : عنصر السخرية ، وقد سبق لنا القول في الجزأين السابقين من أجزاء هذا الكتاب إن المقال الصحفي يجب ألا يخلو — عادة — من هذا العنصر ، مادام الكاتب الصحفي في معرض النقد والتوجيه ، بحيث إذا خلا المقال الصحفي في هذه الحالة من السخرية الخفيفة أصبح لا غناء فيه .

ثانياً : الهدوء ، ونعني به اعتدال الكاتب الصحفي في إظهار عواطفه للقراء . وقد سبق لنا القول كذلك إن هنا فرقاً — من هذه الناحية — بين الصحفي والخطيب . والأخير صاحب الحق في إثارة الجماهير في تحريك مشاعرهم عن طريق الغضب أو الثورة . والأول — وهو الصحفي — لا يليق به أن يتخذ لنفسه موقف الخطيب في إقناع الجماهير بل عليه أن

يعتمد في كل ذلك على قدرته في الإتيان ببطائفة من اللفظات الذهنية حيناً ،
واللفظات الشعورية حيناً ، بحيث يتمثل القراء رجلاً هادئاً رزيناً ، لا تفارق
فيه ابتسامة رقيقة ولكنها قاتلة .

ولا يعجب القارئ من هذه التفرقة التي نحدثها دائماً بين لغة الأدب
الحالض ولغة الصحافة الخالصة ، فما زلنا حريصين على إيجاد هذه التفرقة ،
ومما زلنا ننظر إلى الأدب الحالض على أنه له أسلوباً خاصاً وغاية حيوية
خاصة ، وأن للصحافة الخالصة أسلوبها وغايتها وأهدافها ، ووسائلها اللغوية
التي تختص بها .

* * *

ويرى القارئ في جريدة (مصباح الشرق) مادة أخرى من المواد
الأدبية التي أشرنا إليها من قبل ؛ وأكبر الظن أنها بقلم إبراهيم المويلحي نفسه ،
ولأن كان لم يوقع باسمه تحتها . ولكننا نعرف أنه صاحب الجريدة ومحررها
في ذلك الوقت هو الذي كان يكتب جميع موادها بنفسه ، وقلما يستعين
في ذلك بغيره .

ولابأس هنا من أن ننقل للقارئ هذه المادة وله بعد قراءتها أن يلاحظ
عليها ما يشاء من الملاحظات . وهذه هي المادة التي نشير إليها منقولاً من
نفس العدد الذي نقلنا منه المقالة الافتتاحية السابقة :

الغضب

« فإن قال قائل إن للغضب حلاوة ، وإن في مقابلة الشر بالشر لذة
أنكرنا ذلك عليه كل الإنكار وقلنا له : إذا كان في مقابلة الخير بالخير لذة
وإرتياح ، وكان وجه الجميل جميلاً ، فإن العكس في مقابلة الشر بالشر .
والكبريم من يخجل من الانهزام في ميدان الخير ، كما يخجل من الانتصار
في ميدان الشر . »

أما الانتقام فهو بما يترفع العاقل عنه ، وإن كان يتناول معنى العدالة ، وهو لا يختلف عن بادرة الغضب إلا بمضى الزمن في التبرص له . ومهما نجف الانتقام ولطف فإنه لا يفرق عن الإساءة والإضرار إلا بالتماس العذر لفاعله .

لطم أحد الناس حكيماً من الحكماء في طريقه على غير عمد فلما رجع يعتذر إليه من اللطمة قال له الحكيم : فيم الاعتذار ؟ ما أذكر أنك لطمتني ؛ وذلك لأنه رأى بحكمته أن تناسى الإساءة ، والتغافل عنها أجل في النفس من ذكرها ، وأفضل من الانتقام لها ، وأرقى من العفو عنها .

ورب قائل يقول : أما وجد الحكيم في نفسه حرجاً ومضناً من وقوع تلك اللطمة عليه ؟ فيقول : إنه لم يجد إلا ارتياحاً وانسراحاً ، لأن النفس الكبيرة يزدهيها أن تحقر الإساءة ومن صدرت عنه ، وأذ ما في باب الانتقام للستقم ؛ وأنكى ما فيه للستقم منه أن نحكم على المعتدى عليك بأنه ليس أهلاً بأن يستفزك الغضب عليه .

وكم من منتقم لآمر صغير جره الانتقام إلى أمور عظيمة ، وأضرار بليغة . فلنرفع ، ولنسكرم ، ولنفعل ما يفعله ملك الضواري إذا رن في أذنه صوت الأكلب الغضف لم تطرف نحوها عينه ، ولم تتحرك منها نفسه . فإن قلت : إن الانتقام يوجب الاحترام ، قلنا : إنك إذا أردت أن تستعمل الانتقام كالدواء فلا حاجة إلى إضافة الغضب إليه ، ولا ضرورة لأن ترى فيه تلذذاً وتشفيماً ، ولكن اعتبره فعلاً نافعاً .

ويجب على العاقل الحكيم أن يحتمل الإساءة من الأقوياء بالصبر ، لا بل بالبشاشة والارتياح ، لأنهم إذا شعروا بسوء قبولها ، وسوء وقعها والتأثر منها ، زادوا عليها وضاعفوها . وأكبر عيب فيمن أسكرهم الدهر بالمناصب والمعالى أنهم يزيدون على إساءتهم الحقد على من أساءوا إليهم . ولا محل للحقد بعد الإساءة وقد قيل لرجل اكتهل وشاخ في خدمة الملوك

«كيف بلغت هذه السن ؛ وهو شاذ نادر في قصور الملوك ؟» فقال : «بلغته بقبول الإساءة والشكر عليها» .
وقد يوجد الإنسان في حال يكون لإظهار التأثير فيه من الإساءة أشد خطراً منها .

ويحكى أن الباغي الطاغى ثالث قياصرة الرومان اشتماز من تسكف شاب في زيه وزينته وهيته وشارته ، وكان ابن كبير من كبراء الرومانيين ، فأمر بسجنه ، فجاء أبوه يلتمس العفو عنه فقال القيصر : قد قتلته . وأمر في الحال بقتله . ثم أراد أن يخفف عن الأب من مصيبته ، فدعاه إلى مائدته في ذلك اليوم ، فحضر الرجل وليس على وجهه أثر من الحزن والغضب ، فناولته القيصر بيده قدحاً من الخمر بعد أن وكل به من يراقبه ، وكانما هو في هذه الحالة يناوله في الكأس دم ابنه . فشرب الشيخ انقذح إلى آخر نقطة فيها . ثم أمر القيصر بتضميده وتعطيره وتنويجه بالزهور ، وهو ما كان يفعل في مجالس أنسهم وسرورهم ، فتقبل الرجل كل ذلك بالبشاشة وأخذ مجلسه على مائدة الملك مع تسعة وتسعين شخصاً ، وظل في يوم موت ابنه على شيخوخته وتقوسه يتغالى معهم في طهيم ولعبهم ، كأنما جاءت البشرية بمولود يرثه ويحفظ ذكره .

بشرى الغنى أبى الثبات تتابعت بُشراًؤه بالفارس المولود
وكانى بك تقول : ما سبب هذه المذلة والمسكنة والحطة والدناءة ؟ فأقول لك : كان للرجل ابن ثان ، يريد أن يحفظ حياته من هذه اليد المطلقة في الظلم . ومما كان الرجل ليتأخر عن مصادمة ذلك الطاغية لولا كان ما يخشاه متعلقاً بنفسه وحدها . ولكن المحبة الطبيعية الأبوية قد تغلبت على كل تأثر واقفال . ولولا كتمان ما يغلي في صدره من الحزن ، وإظهاره ما تكلفه في خضرة الملك من البشاشة والتلاهي ؛ حتى أعجب به الملك لكان الابن الثاني لحق بالابن الأول .

والعقل يرشدنا أن نمتنع عن الغضب على ما هو مساو لنا في المنزلة ،
وعلى من هو فوقنا في القدر ، وعلى من هو دوننا في الدرجة ، فإن الانتصار
في مصارعتك من هو مساو لك في هذا الميدان مشكوك فيه . ومصارعتك
من هو فوقك جنون . ومصارعتك من هو دونك جبن ودناءة .

* * *

ولا يكتب هذا المقال غير رجل عرك الأيام والرجال ، وبلا الكثير
من أمور السياسة ودهاتها ، بل لا يكتب هذا المقال رجل فيه سدا جة الأطفال
أو في أعماق نفسه سخط شديد على الحياة والأحياء من نوع هذا السخط
الساذج الذي عبر عنه المتنبي في قوله :

ومن عرف الأيام معرقى بها وبالناس روى رحمه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجارى عليهم بآثم

بل الحق أن هذا المقال لا يصدر أيضاً إلا عن كاتب من كتاب الملوك ؛
عرف أخلاقهم ، ومارس جبروتهم ، وانتفع بصحبتهم بقدر ما أودى بها ،
وصدق الكاتب الإسلامى القديم عبد الله بن المقفع حيث قال :

« إن صاحب الملك كراكب الأسد ، يهابه الناس ، وهو لمركبه أهيب » .

ونذع هذه المادة الأدبية لنعرض على القارئ مادة أدبية أخرى من
مواد « مصباح الشرق » ، ولعل هذه الأخيرة من مواد هذه الجريدة أقرب
المواد جميعها إلى الأدب بمعناه الصحيح . ففهيها تعرض لنا الجريدة نموذجاً
جديداً كل الجدة هو « القصة » ولطرافة هذه المادة من ناحية وأهميتها من
ناحية ثانية فقد خصصناها بفصل من فصول هذا الكتاب هو الفصل التالى :

الفصل الرابع

القصة في جريدة «مصباح الشرق»

في كتاب غير هذا الكتاب ألقيت على نفسي وعلى القارىء هذا السؤال:
هل كانت القصة الاجتماعية في مصر حدثاً أدبياً أو صحفياً ليست لها
مقدمات؟ أو كانت هذه القصة الاجتماعية أمراً له مقدمات! ثم حاولت
الإجابة عنه بعد ذلك فيما يلي:

منذ ظهرت الصحف الشعبية في مصر وهى منبر عام لرجال الإصلاح
من أمثال محمد عبده وعبد الله النديم والمويلحى الكبير والمويلحى الصغير،
والسيد على يوسف ولطفى السيد، ومصطفى كامل ومن إليهم، وقد سعى كل
واحد من هؤلاء أن يضع يده على الداء، أو على طائفة الأدواء التى كان يشكو
منها المجتمع المصرى إذ ذاك، حتى أصبح «الإصلاح» حديث العام والخاص،
بل أصبح «الإصلاح» مادة من أهم مواد الصحيفة التى ترجى لنفسها البقاء.
عاب المصلحون على مواطنهم فى الصحف المصرية أموراً شتى: منها
تهاقهم على محاكاة الأوروبيين فيما لا يتفق والعادات الشرقية والنقايد الدينية.
ومنها ميلهم إلى تصديق البدع والخرافات بما أتلف دينهم، ورن على قلوبهم،
وجعل على أبصارهم غشاوة.

ومنها سكوت بعضهم عن التدخل الأجنبى الذى استفحل شره فى بلادهم،
وكاد يفقدهم قوميتهم وشخصيتهم، كما أفقدهم حريتهم واستقلالهم، ومنها
البؤس الاقتصادى الذى قسم البلاد قسمين أو طبقتين متباعدين: طبقة
الفقراء الذين لاحظ لهم من مال أو ثروة، وطبقة الأغنياء الذين لهم كل
المال والثروة، ومنها الجهل الذى حرم سواد الأمة العلم، وكان من أيسر
مظاهره أن بقيت المرأة المصرية حبيسة دارها، مقهوره على أمرها،

لا تعرف من شأن الحياة الاجتماعية خارج الدار أكثر مما يعرفه الصبي .
عاب المصلحون على المصريين كل ذلك . وصوروا لهم الحكومة المصرية
عاجزة كل العجز عن إصلاح القضاء ، والتعليم ، والأمن ، والصحة . كما
صوروا لهم حالة الموظف المصرى وقد استبد بقلبه اليأس ، وغلب عليه
الشعور بالذل ، ومد يده إلى الرشوة لصغر راتبه الشهرى ، وبني حياته على
(المحسوية) لأنها الطريق الوحيد إلى الترقى !

وجاءت كتابات النديم ، ومحمد عبده ، وبشارة تقلا ، وعلى يوسف ،
وغيرهم مشخصة هذا الداء القاتل ، منادية بطلب الإصلاح العاجل ، مرغبة
جميع المصريين فى الأخذ بأسباب التقدم الصحيح حتى لا تبقى مصر متخلفة
عن الدول الأخرى .

ثم إن الكتاب الكبار ممن أشرنا إليهم أفادوا من نقد الأجانب للمصريين
فى كتبهم التى كتبوها عن مصر ، كما أفادوا من تقارير الوكالة البريطانية التى
اعتادت أن تكتبها عن المصريين فى كل سنة . ونظر الصحفيون إلى هذه
الأقوال والتقارير نظرة عاقل حكيم على أنها مرآة لأخلاقنا ، ومجتمعنا ،
وعقولنا . وكثيراً ما تعرف الشعوب نقائصها على يد أعدائها ، كما قال ذلك
صاحب الأهرام فى مقال له (١) .

وعلى هذا فنحن حين نبحث عن المقدمات الأدبية والتاريخية لظهور
القصة المصرية بهذه الصبغة الاجتماعية فلا نهر لنا من القول بأن :
(أولى المقدمات) هى ظهور الصحافة المصرية . فقد كانت هذه الصحافة
فى ذاتها نشاطاً فكرياً مهد لظهور القصة المصرية . وهذا هو السبب فى أن
القصص المصرى اتجه فى أول أمره اتجاهها اجتماعياً - كما قلنا . ولعل أول دليل
يمكن أن نسوقه على ذلك هو ظهور القصة المعروفة فى الأدب المصرى
« بحديث عيسى بن هشام » للمريلى . وهى قصة بالمعنى الصحيح الذى
اتفق عليه النقاد .

ومن أجل هذا سنتحدث طويلاً عنها — ولكن بعد الفراغ من الحديث عن المقدمات التي سبقتها . وهي المقدمات التي تحدثنا الآن عن واحدة منها . أما (الثانية من هذه المقدمات) فهي جهود الكتاب الأدباء من غير المنقطعين للصحافة، رغبة منهم في إشعار المصريين بتلك العيوب ، وبثأل روح الاستياء والكراهية لهذه العيوب ، وخلقاً الرغبة الصادقة في التخلص منها في أقرب وقت مستطاع .

ومن هؤلاء الكتاب الأدباء على سبيل المثال : محمد فريد و جدى . وذلك في كتابه « تطبيق الديانة الإسلامية على النوااميس المدنية » . وهو الكتاب الذي أعيد طبعه فيما بعد بعنوان « المدنية الإسلامية » . وفيه يتحدث الكاتب عن فكرة الأوربيين عن الإسلام ، وقيم الدليل على خطأ هذه الفكرة ، لأنهم بنوها على علمهم بالبدع والخرافات التي حملت حملاً على الإسلام ، وجهلهم بالإسلام نفسه على حقيقته .

وهكذا جاء هذا الجهد من جانب الأدباء غير الصحفيين في سبيل الدفاع عن الدين مؤيداً للجهد الذي بذله الصحفيون في هذا السبيل . فهذا « قاسم أمين » لفت إليه أنظار المصريين بكتاب له عنوانه (المصريون) رد فيه على (دوق داركور) الذي تعرض لدم الدين الإسلامى .

ثم عاد قاسم أمين فلفت إليه أنظار المصريين بكتابه العظيم الذي دافع فيه عن المرأة المصرية ، وعنوانه « تحرير المرأة » وأحدث كتابه ضجة كبيرة في مصر ، وانقسم المصريون بسببه شيعاً في ذلك الوقت .

وأما (ثالثة المقدمات) التي مهدت لظهور القصة الاجتماعية فهي ظهور طبقة المترجمين إلى جانب الأدباء والصحفيين ، ومن هؤلاء على سبيل التمثيل (أحمد فتحي زغلول) — وقد ترجم كتاباً مشهوراً للكاتبة الفرنسية (أدمون ديمولاند) بعنوان : « بم تفرم أفضلية الإنجليز السكسونيين » ترجمة فتحي زغلول عام ١٨٩٩ أعنى في نفس السنة التي نشر فيها كتاب

قاسم أمين ونشر فتحى زغلول ترجمته فصولاً وعلى هيئة مقالات ظهرت تباعاً فى صحيفة المؤيد ، وذلك على نحو ما نشر قاسم أمين كتابه (تحرير المرأة) .

ونظر المصريون إلى الكتاب الذى ترجمه فتحى زغلول على أنه يمسههم ، ويصور حالهم ، ويصف أدواءهم . وقد جعل المترجم عنوان الكتاب الذى ترجمه هكذا « سر تقدم الانجليز السبكسوينين » . وكتب فتحى زغلول لهذه الترجمة مقدمة كانت أشهر من الكتاب نفسه ، وأعظم منه تأثيراً فى نفوس المصريين خاصة . جاء فيها قوله :

« نحن ضعاف أمام الغرب : ضعاف فى الزراعة ، ضعاف فى الصناعة ، ضعاف فى التجارة ، ضعاف فى العلم ، ضعاف فى العزيمة ، ضعاف فى الألفة والمودة ، ضعاف فى النخوة والشعور الملى (يريد الدينى) ، ضعاف فى الجامعة القومية ، ضعاف فى الخيرات ، ضعاف فى طلب الحقوق وأداء الواجبات ، ضعاف فى حفظ ما ترك الآباء ، ضعاف فى التحصيل ، ضعاف حتى أصبحنا نرجو كل شىء من الحكومة ، إلخ .
ثم ختم كلامه بقوله :

ودواؤنا فى التربية ، وسلامتنا فى نشر العلوم والمعارف .
وهكذا كانت الترجمة طريقاً من الطرق المؤدية إلى ظهور القصة التى تعنى عناية خاصة بالمجتمع .

(ورابعة المقدمات) التى أدت إلى ظهور القصة الاجتماعية هى التقارير التى صدرت عن الوكالة البريطانية . ونخص بالذكر منها تقارير اللورد كرومر — ذلك الرجل الذى عاش فى مصر وحكمها حكماً فعلياً زهاء خمس وعشرين سنة استطاع فى أثناءها أن يدرس المجتمع المصرى من جميع الوجوه ، وأن يضع يده على الدمل الذى يشكو منه المصريون على اختلافهم — وهذا الدمل هو الجهل . وعلى الرغم مما اشتملت عليه هذه

التقارير من التهم البعيدة عن العدل ، والمنافية للحق ، وعلى الرغم من التعصب السياسى والتعصب الدينى الذى بدأ من جانب اللورد فى كل وقت ، فإن هذه التقارير حركت همم المصريين ، وحفزتهم إلى العمل على دحض هذه التهم بطريق الكتب حيناً — كما يفعل الأدباء المؤلفون ، أو طريق المقالات الصحفية أحياناً — كما فعل كتاب الصحف محترفين وغير محترفين .

* * *

تلك إذن هى المقدمات الأربع التى سبقت ظهور القصة المصرية، ورسمت لها الطريق الذى سارت فيه ، والصيغة التى اصطبغت بها ، وهى الصيغة الاجتماعية .

وزيد قبل أن نعرض (لحديث عيسى بن هشام) للبولجى — وهى أولى القصص المصرية الاجتماعية — أن نسوق دليلاً على اتجاه التأليف المصرى فى ذلك الوقت ناحية العناية بالمجتمع . وهذا الدليل الجديد هو كتاب «حاضر المصريين» تأخرهم . ألفه أديب مصرى يقال له «محمد عمر» . وظاهر من عنوان كتابه هذا أنه مطابق كل المطابقة لعنوان الكتاب الذى أشرنا إليه من قبل، وهو «سر تقدم الإنجليز السكسونيين» وذلك الكتاب الذى ترجمه أحمد فتحى زغلول — كما قلنا — والذى لاشك فيه أن (محمد عمر) قرأ الكتاب الأخير قراءة جيدة ، وأنه كان يفكر فيه تفكيراً جيداً، وذلك عندما شرع يؤلف كتابه هذا .

ظهر كتاب «حاضر المصريين» تأخرهم ، عام ١٩٠٢ فى نحو ثلثمائة صفحة، صور فيها الكاتب وجوه الضعف الذى يشكو منه المجتمع المصرى . والعجيب أن الذى كتب مقدمة الكتاب هو ذلك الأديب المشهور والعالم القانونى الكبير أحمد فتحى زغلول .

والقارىء للكتاب الذى ألفه محمد عمر يرى أنه عمد فيه إلى تقسيم المجتمع

المصرى إلى طبقات ثلاث : الطبقة الغنية ، والطبقة المتوسطة ، والطبقة الفقيرة
وذهب إلى أن لكل واحدة منها عيوباً تختص بها ، وراح يذكر ما يراه علاجاً
حاسباً لكل عيب منها على حدة .

* * *

والقصة قديمة في الأدب العربى كانت تحيا بحياته وتموت بموته ، وحين
جاء الأدب العربى فترة من الزمان جمدت معه القصة بل زالت من الميدان
الأدبى ، ثم بعثت بعثاً جديداً مع النهضة المصرية الحديثة ، وشاء القدر
أن يكون هذا البعث على يد المويلحيين : الكبير والصغير ، وكانا يعملان
معاً فى هذه الجريدة الأدبية العظيمة التى نتحدث عنها وهى جريدة
« مصباح الشرق »

وقد استطاعت هذه الجريدة أن تقدم لقراءها قصتين كبيرتين من أروع
القصص العربية الحديثة من حيث الموضوع ، أما القصة الأولى « فحديث
عيسى بن هشام » مؤلفها محمد المويلحى وأما القصة الثانية « فحديث موسى
ابن عصام » لابنه إبراهيم .

وإن التاريخ الأدبى لينظر إلى هاتين القصتين على أنهما يمثلان الطور
الأول من الأطوار التى خضعت لها القصة المصرية الحديثة ، كما ينظر إلى
المويلحيين على أنهما رائدان كبيران من رواد النهضة الحديثة فى ميدان عظيم
من ميادينها وهو ميدان « القصة » .

وقد ظهر حديث عيسى بن هشام على صفحات مصباح الشرق قبل
ظهور حديث موسى بن عصام على صفحات هذه الجريدة بسنة على الأقل ،
ومن أجل ذلك ظن كثير من القراء فى عصر المويلحى أن حديث « عيسى
ابن هشام » لا يمكن أن يكون من تأليف « محمد » ولا بد أن يكون من تأليف
« إبراهيم » . وروج لهذا رأى أحمد فؤاد صاحب جريدة الصاعقة ، ومازالت
أسماع من بعض المعمرين إلى يومنا هذا أنهم أميل إلى هذا الرأى .

ولكني حين قرأت بنفسى حديث عيسى بن هشام ، ثم قرأت بنفسى ما بقى لنا من حديث موسى بن عصام ، تبيّنت فروقا كثيرة بين الحديثين ، ونفيت أن يكونا معاً لإبراهيم دون ولده محمد ، ولا يتسع المجال هنا لعرض هذين الحديثين أو لعرض بعضهما ، ومن ثم نكتفى بعرض جزء فقط من حديث موسى بن عصام لإبراهيم المويلحى ، ونشفح ذلك بنقد لهذا الجزء وحده أولاً ، ثم بالموازنة بينه وبين حديث عيسى بن هشام ، من حيث الأسلوب ومن حيث الفكرة .

وكثيراً ما يقرأ القارىء فى جريدة مصباح الشرق ، وتحت عنوان « الحوادث الداخلية » ، قول المحرر على سبيل الإعلان : « جاء موسى بن عصام يحدث الناس بتليجه ولا يغيب عنهم عيسى بن هشام بتصريجه » ، وربما كان ذلك أول ما يلاحظه القارىء أى أن حديث عيسى بن هشام قائم على التصريح لأنه نقد ظاهر للجمع المصرى لاموارية فيه ولا خفاء ، ولارمز فيه ولا تعمية ، أما حديث موسى بن عصام ، فنقد للنفس الإنسانية على أساس الرمز ، والتلميح والكناية ، والتعريض ، ونحو ذلك . فهما إذن متفقان فى الغاية ومختلفان فى الوسيلة ، وهذا أول فرق من الفروق التى يلاحظها القارىء وشم فروق أخرى ستعرض لها كذلك ، ولكن بعد أن نعرض على القارىء قطعة من حديث موسى بن عصام ، ثم قطعة من حديث عيسى بن هشام ، لتسهيل الموازنة بينهما . ونحن نعلم أن كتاب المويلحى الصغير مشهور منشور على الناس سهل تناوله بينهم فى أيامنا هذه . أما حديث المويلحى الكبير فلم يبق لنا منه إلا قطع قليلة ، لا يعرفها الناس فى الوقت الحاضر ، وربما لم يسمع بها منهم إلا قليلون . ومن أولى هذه القطع ما كتب لإبراهيم بعنوان « مرآة العالم » أو حديث موسى بن عصام (١)

(١) انظر جريدة مصباح الشرق العدد ٦٠ من السنة الثانية بتاريخ ٢٢ يونيو سنة ١٨٩٩

مرآة العالم^(١)

حديث موسى بن عصام

حديث موسى بن عصام قال :

نشأت وما انجنت مني الأضلاع على أشد من حب الاطلاع ، فكنت
أستقطر الأخبار من أفواه الناس ، وأستقريء الآثار من كل الأجناس ،
وأستطلع الأنباء ، وأستقصي الأشياء ، وأستبطن الأحوال ، وأستظهر ضمائر
الرجال . فما تركت من أترابي . ولا غادرت من أصحابي من تخطيني سيرته ،
أو تخفى عليّ سيرته . وما سمعت بشيء إلا علمته ، ولا عثرت على أثر
إلا ترسمته :

وعلمت حتى ما أسائل واحداً عن علم واحدة لكي أزدادها
وبما زادني شغفي ، وضاعف من كافي ، لمتابعة الارتحال . ومزاولة الانتقال ،
حباً في الاطلاع ، على كل البقاع قوله تعالى « قل سيروا في الأرض » .
فاتخذ الأمر بالرغبة ، فحلت لي الغربة ، والسير في الأرض يجعل العمر أعماراً ،
ويمد في الأيام فيجعلها أدهاراً ، وإذا غبت عن بلدك شهراً ثم عدت إليه
أدركت اتساعاً في ذلك الظرف لامتلائه بما مررت عليه . والأرض للهرة
دار . ومن العجز ألا يعرف المرء داره ، وأن ينزوى في زاوية منها فيجعلها
مستكنه وقراره . وأهلها أهله فإن نأى عنهم بجانبه ، فقد عاق في
مقاطعة أقاربه :

لنما الأرض والفضاء كتاباً فاقراؤه ونقبوا في الكتاب
وبهذا التنقيب فتح أولو الهمم والأقدار ، خزائن الطبيعة وكنوز الآثار
والحياة نسيج ساذج توشيه الأسفار ، والعمر صحيفة ملساء تنقشها الأخطار ،

(١) انظر جريدة مصباح الفرق العدد ٦٦٠ - السنة الثانية بتاريخ ٢٢ يونيو سنة ١٨٩٩

والمرء كالدينار منفعة في تداوله واغترابه، وضياعه في اكتنازه واحتجابه.
فاستخرت الله وعليه توكلت ، وأخذت أهقي ورحلت . فسرت عامة
الليلة وسراة اليوم . حتى انتهت إلى سوق تعرض فيه الركائب للسموم
فاشتريت ظهراً أركبه ، واستأجرت دليلاً أحجبه ، وجعلت أجوب القفر
بعد القفر ، ينشرني حره ، ويطويني قره ، وأركب البحر بعد البحر؛ يتواري
عني بره ، ويتزأى لي شره . أخوض الغمرة بعد الغمرة ، ولا أقوم من
العثرة إلا إلى العثرة :

ذرعت الفلا شرقاً وغرباً لحاجتي وصيَّرت أخفاف الماطى ذراعاه
فلا بر إلا قد طويت بساطه ولا بحر إلا قد نشرت شراعاه
وينما نسير في عرض اليم ، ونخوض عباب ذلك الخضم ، إذا بالأعاصير
قد هبت من رقادها ، وصيرت الأمواج من أجنادها ، فخمى بينهما وبين
السفينة وطيس الهيجاء ، ولم ينفع استئماننا بالراية البيضاء .

وملتظن الأمواج يرمى عبابه بحر جرة الأذى^(١) للعبير فالعبير^(٢)
مطعمة حيتانه ، ما يغيبها^(٣) ما كل زاد من غريق ومن كسر
إذا اعتنقت^(٤) فيه الجنوب تكفأت جواريه أو قامت مع الرج لا تجرى
فشئت القلوب في الصدور ، وانفتحت بين الأمواج القبور ، واشتغل
كل بنفسه ، ينظر بعينه إلى رهسه ، وانقطعت خيوط الآمال ، بمقراض
الآجال ، وحانت ساعة ساوى الموت فيها بين العباد ، ولم يعبا باختلافهم
في ساعة الميلاد .

وحدقنا في وجه الموت تحديق النسر في عين الشمس . ووقفنا وقفة
المقتول بين السيف والرأس . وقد تغلبت جيوش العراصف وقضى الأمر ،
وانكفأت السفينة فالتقمها البحر ، وإذا بيد قدفتني إلى جزيرة قهراء ،

(١) الأذى هو الراجح (٢) والعبير هو الشاطئ (٣) ما يهبط أي لا ينقطع منها
(٤) اعتنقت تعانقت . والآيات الفاعل العباسي معلمي بن الوليد

ليس بها يابسة ولا خضراء وبعد أن سكن روعى حمدت الله على النجاة، واقتنعت من رحلتى بإسلامة الحياة ، ثم مشيت ولا أدري أين أسير ، وقد متع^(١) النهار واشتد الهجير ، فرأيت شيخاً قد مله الدهر ومل من الدهر ، فأصبحت الأرض وترأ لقوس ذلك الظهر ، ينبعث نور الهداية من أسرته ، وتلوح سيما التقوى على جبهته. وبعد أن سلمت ورد السلام، قال : ما خطبك يا ابن عصام . لقد كتب الله لك السلامة ، ونجاك من الغرق وأدركتك العناية . قال موسى بن عصام : فاستروحت منه ربح الولاية حين نادانى يا سمي ، وعلم على . واستبشرت بتقريب البعيد . وتيسر ما أريد .

وقلت : مولاي — إن الله جلّت قدرته قد علمك من لدنه علماً ، وكشف لك من حجب أسرارهِ حجاباً . وأمدك من قدرته ما سخر لك به الكائنات ، وأظهرك بسرهِ من عوامض الممكنات . وجعل لك من فضله نصيباً من التصرف في الكون . فلا يستعصى عليك شيء . ولا يعجزك أمر ، ولي إليك حاجة ، وأنت بقضائها حقيق . فقد علمت مما كشف لك من أمرى أن حب الاطلاع هو الذى فصلنى عن أهلى . وأخرجنى من بيتى . وأبعدنى عن وطنى . وكافنى مشاق الأسفار . واحتمل الأخطار . وجوب الفقار ، ونطع البحار وسرى الليل وسير النهار ، وحاجتى إليك أن تفصلنى عن جو الأرض إلى جو السماء . فأرى هذه الكرة فى حركتها حول الشمس وعلى نفسها وأرى من عليها فى أحوالهم وأعمالهم لا تعظ وأعظ . وأستيقظ وأوقظ . وأذكر المسىء بإساءته . والمحسن بإحسانه ، فتكون سفينة الغرق بك سفينة النجاة . وأكون قد اجتذبت بك من تعب الحياة راحة الحياة .

(الشيخ) — واغوثاه — لقد طلبت عظيمًا وسألت أمراً خطيراً . وهبني بلغت بك طلبتك : وأمكنتك من الإشراف على هذه الأرض تنظر ارتقاءها فى الفضاء ، وتقلبها بين الظلمة والضياء . فكيف لى أن أشد منك فتقوى

(١) متع النهار كمت متوما ارتفع قبل الزوال والضحى وبان آخر غايته وهو عند الضحى الأكبر .

على رؤية هذا المنظر المدهش . والمشهد المزهل . وأنى لذلك أن يقوى على مشاهدة جرم الأرض وهي ترتقى في انفضاء فتقطع في الثانية الواحدة سبعة فراسخ . وتري الجبال تحبسها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء . . . » .

واعلم أن الصانع الحكيم جلت قدرته « أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ثم جعل لکم السمع والأبصار والأفئدة » ليتدرج الإنسان في مشاهدة هذا العالم المدهش ؛ فيقوى على رؤيته بالترقى ؛ ولو خرج الإنسان من بطن أمه وهو مدرك ؛ ثم رأى الشمس في طلوعها لمات فجأة ، وكذلك الإنسان إذا انفصل عن وجه الأرض ورأى ما لم يتدرج إلى رؤيته ، من عجيب صنع الله وعظيم قدرته ، قضى دهشة . وعلى أنك لو سلمت من هذا لما أغنى عنك اننظار شيئاً لسرعة دورتها ، فاعدل إلى أقرب من هذا إمكانا وأبعد منه خطراً . واطلب لنفسك طريقاً وسطاً لا تضل فيه ولا تخشى (موسى بن عصام) .

ليس لي خيرة فاختر ، فنك الإرشاد ، وعليك العمل ، فأخذ يدي فرأيت نفسي معه على مكان عال ، وسألني : ماذا ترى ؟ قالت : لا أرى شيئاً . فمسح يده على عيني فأبصرت ، وعلى أذني فسمعت ، وعلى صدري فشف لي كل شيء . وقال : انظر « فبصرك اليوم حديد » .

فانظرت ويا هول ما انظرت ! انظرت قوماً حائنين بزوال عليه ثوب كطيف الشمس يلبع لمعان الآل (١) ؛ وقد قبض كل واحد منهم على شعاع من ذلك الطيف ، فراقني منظره ، فسألت الشيخ فقال : هذا هو الأمل . ثم أعدت النظر فإذا أنا أرى شخصاً ضخماً عظيم القامة ، تتبعه الناس من جميع الطبقات ، وهم متكاتفون على لثم جذائه ، وإس طرف من رذائه ، فسألت الشيخ من هذا العظيم ؟ فقال هذا هو الباطل .

ثم تحولت بنظري فإذا أنا أرى شخصاً ضئيلاً منزويًا تنحامي طريقته
الناس ، وتتحاشى النظر إليه ، وهو حاسر الرأس ، عارى الجسد ، لا سَمَل
ولا طَمَر^(١) .

فسألت الشيخ : من هذا المسكين ؟ فقال هذا هو الحق .
(الشيخ) : انظر إلى هذين الشخصين من زبانية الدنيا يعذبان الناس
أشد العذاب .

قال موسى بن عصام : فنظرت فوجدت أحدهما آخذاً بخناق الفقراء ،
والآخر ممسكا بأطواق الأغنياء والكبراء .
وكلاهما يمزق في فريسته ، وشدهما يمزق !

فقلت في نفسي : ما أبشع هذا الوجود ، لراحة فيه لغنى ولا لفقر
ولا سَلَم فيه لعظيم ولا لحقير . ثم التفت فسألته عنهما .
(الشيخ) هذان هما الألم والسأم . فلا يفتأ الفقير يألم ، والغنى يسأم ،
هذا لحاجاته ، وهذا لفراغه . فإن زاد أحدهما نقص الآخر .

يجبى تزايد هذا من تناقص ذاك . واليوم إن ظال غال^(٢) الليل بالقصر
فالفقر يكد ويجهد في تحصيل حاجاته ، فيؤلمه الكد والجهد ، ولا سلطان
للسأم عليه إلا إذا زايه ذلك الكد والجهد . والغنى بما يجده من حاجاته
حاضراً يستمه الفراغ فيكاد يقتل نفسه ، إن لم يكن لهذا الفراغ شاغل من
العلم . وقد اخترع الناس أنواع الألعاب من نرد وشطرنج وغيرهما ليشتغل
ذلك الفراغ . بتقلب الإرادة .

وإن السأم ليورد كثيراً من الأغنياء مورد الانتحار ، فتجد أحدهم
يهرب من قصره إلى المدينة ، ثم يعقب راجعاً إلى قصره ، ثم يفر إلى بستانه ،

(١) السمل الخلق من الثياب والطمر بالكسر التوب الخلق .

(٢) قاله : أخذ منه من حيث لا يدري .

ثم يذهب لزيارة صاحبه، فلا يلبث معه إلا ريثما يراه، ثم ينقلب إلى ضيعته،
ثم يرجع إلى قصره، فيضرب جزاره ويشتم طواحيه على غير ذنب إلا
للأسام الذي يهرب منه وهو في صدره اهـ .

* * *

ثم في العدد الذي يلي ذلك، وهو العبد الواحد والستون من أعداد
الجريدة يرى الكاتب يمضى فى قصته على هذا النحو من الحوار البليغ بين
موسى بن عصام والشيخ :

الشيخ : دع عنك هذا الأصفر الرنان ، وإن رنّ وإن رنّ ، وإن أصبح
كالأقحوال ، وأمسى كالأفغوان . وارجع البصر ثم ارجع البصر ، إلى هذه
العظام وهذه العبر ، وتأمل فيها تأمل المنجم فى اضطرابه ، والمدقق فى
حسابه . وخلق بمن فى هذا الموقف أن يرى عجائب هذا الورى ، فقد دفعت
بك على صرح الحكمة ومنازل الاعتبار ، وكشفت عنك غطاءك ، فكلك اليوم
بصائر وأبصار .

قال موسى بن عصام : جللت بنظرى فرأيت رهطاً يقرعون باب غنى ،
قد أوصده قبل دخول العشي الخ .

ثم مضى المولى إلى فى إيراد حادثة أخرى لرجل غنى شديد البخل ، وقد
دخل عليه رهط من الزائرين يلتمسون منه أن يكتب لهم مبلغاً من المال
على سبيل التبرع ، ليستعينوا به فى مشروع من مشروعات البر . وطفقوا
يحتالون عليه ليظفروا منه بهذا المال ولكن بدون جدوى . وخرج الزائرون
من بيته محنقين ساخطين ، وهم يرددون قول الشاعر :

لو عبر البحر بأمواله فى ليلة مظلمة باردة
وكفه مملوءة خردلا ما سقطت من كفه واحدة

أما البخیل فقد خلا إلى نفسه ، وأخذ يناجى ديناره قائلاً : ارجع إلى
صرّك لتحفظ فيها وتخزن ، فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن .

وفي هذه العبارة الأخيرة من التضمين ما لا ينبغي على قارئه . ثم تخيل
المكاتب مناظرة دارت بين هذا الغنى البخيل وبين رجل حكيم قال لصاحبه
البخيل :

« ولذلك فأنا أغنى منك ومن كل غنى لأنى تخلصت من عقاب الإرادة ،
فأصبحت لا أريد ، وعبارة : لا أريد : تزيد على : ملك كل شيء ، اه .

* * *

ثم فى الجزء الثالث من هذا الحديث ، وهو ما نشر بالعدد الثانى والستين
يحد القارئ موضوعاً ثالثاً من الموضوعات التى عالجها المولى الحى ، هو موضوع
النفاق والملق والرياء ، وفيه يتهكم المكاتب تهكماً مرأ بالحكم الثنائى فى السودان :
قال موسى بن عصام « فلبحت رايتين تخفقان على أطلال أم درمان ،
فقلت للشيخ :

موسى بن عصام : ألتشرك يا مولاي دولتان فى الحكم على بلد واحد ؟
وهل يجتمع فى غمد سيفان ؟ ويطلع فى أفق قران ؟
(الشيخ) : نعم فقد اشتركت الحكومتان فى الحرب فاشتركتا فى الحكم .
(موسى بن عصام) وأين جيشهما المحارب ؟
(الشيخ) : انظر إلى هذه الجموع .

قال موسى بن عصام : فنظرت فرأيت قوماً من السمر يعملون فى الأرض ،
وآخرين فى الجسور ، وغيرهم فى قطع الصخور ، وسواهم فى بناء القصور .
ومنهم الحاملون لقضبان الحديد ، ومنهم الغواصون لبناء القناطر . . . وقد
عددت خمسين منهم يتناوبون فى حمل مريض من عامة الجند الأحمر يقطعون
به عشرين ميلاً . ورأيت قوماً من البيض يتفياون ظلال النعيم ، ويأتهم
رزقهم رغداً من كل مكان . . . الخ

فأما أولئك السمر الذين يعملون الأعمال ، ويرفعون الأثقال ،

وينقلون الجبال ، في وهج الهجير ، فوق حصى الرمضاء وشوك القتاد فهم
المصريون أصحاب الراية الثانية ، وهم المحكومون وذلك نصيبهم ، والمستخرون
وتلك عاداتهم .

وهكذا يمضى المويلحى فى سخرية متصلة بالإنجليز وبالمصريين على السواء ،
بل هكذا يمضى المويلحى فى موازنة مؤلمة ، ومفارقة محزنة بين هؤلاء
وهؤلاء : وليس كالمويلحى رجل يحسن الإتيان بهذه الموازنات ، ولا أديب
يحسن العرض لهذه المفارقات ، بحيث يخرج القارئ من هذا كله بصورة
دقيقة لكل طرف من طرفى هذه الموازنة أو المقايضة .

والعجيب أننا رأينا (مصباح الشرق) تسكت بعد ذلك سكواً تاماً عن
(حديث موسى بن عصام) ولا تقدم للقراء جزءاً جديداً من هذه القصة
التي نحبها المؤلف آخر الأمر — ناحية النقد اللاذغ والتمك المر بهذه الحقبة
السوداء فى تاريخ مصر الحديث ، وذمى بها حقبة الاحتلال الإنجليزي
والحكم الثنائى فى السودان .

فهل يجوز لنا أن نفهم من هذا أن المويلحى حيل بينه وبين هذا الحديث
بقوة من المحتمل لأقبل له بها ، أو بحيلة من تلك الحيل التي جازت عليه فى
الماضى ، ومن أجلها كان يعطل جريدة كجريدة (الخلافة) وأخرى كجريدة
(الاتحاد) وثالثة كجريدة (الأنباء) وهكذا ؟

وأعود إلى القصة نفسها أو حديث موسى بن عصام نفسه لأعلق عليه
من الناحيتين الأدبية والتاريخية فأقول :

لست أدى أولاً أكانت هذه القصة متأثرة من حيث الفكرة بالقصص
القرآنى ، أم بالقصص العربى غير القرآنى ، أم بالقصص الشعبي الذى منه
قصة السندباد البحرى أم بكل هذه الأشياء مجتمعة ؟ أم كانت الفكرة من
وحى خاطره فقط ؛ لأنها فكرة بسيطة فى ذاتها ترد لكل ذهن يجب صاحبه
أن يكتب قصة من هذا النوع .

أما القصة في أسلوبها فعندى أن الكاتب متأثر فيه بأسلوب المقامة العربية لا محالة . فالعناية في هذه القصة بالسجع من جهة ، والاهتمام فيها بالأسلوب أكثر من الاهتمام بالموضوع من جهة ثانية . كل أولئك من خصائص المقامة المعروفة في الأدب العربي .

وكنا قد أشرنا في الجزأين السابقين من أجزاء هذا الكتاب إلى تأثير الأدب المصري في أولى مراحل المقامة العربية في أسلوبها . وكان من الطبيعي أن يخف هذا التأثير بالتدرج ، حتى إذا كانت المرحلة التي من رجاها المويلحي الكبير والمويلحي الصغير لم يصبح لأسلوب المقامة العربية هذا السلطان العظيم على الأساليب . غير أن كل لون على حدته من ألوان الأدب يظهر أنه كان يخضع أولاً لتأثير المقامة العربية ، ثم يستقل بشخصيته . بعد ذلك . وقد رأينا الصحافة المصرية تمر بدور التقليد والاحتذاء ، ثم تدخل في دور الإصالة والابتكار . وكذلك شأن القصة المصرية ، كان لابد لها من أن تمر بهذه الأدوار . فإذا صح أن المويلحين الصغير والكبير هما رائداً القصة المصرية الحديثة في مصر ، فعنى ذلك أنه لابد من أن يخضعوا أولاً السلطان المقامة من حيث الأسلوب ، ثم يخلفهما في ميدان القصة خلف يتحرر من هذه الأساليب ، وذلك ما قد حدث للقصة في مصر .

والآن علينا أن ندع هذا الاستطراد ، وأن نلخص الملاحظات التي نلاحظها على هذه القطعة الأدبية السابقة فيما يلي :

أولاً — شيوع السجع الذي يصل أحياناً إلى أن يكون سجعاً مجنحاً كما في قوله :

« نشأت وما نلحت منى الأضلاع على أشد من حب الاطلاع ، فكنت
أستقطر الأخبار من أفواه الناس ، وأستقرى الآثار من كل الأجناس ،
وأستطلع الأنباء ، وأستقصي الأشياء ، ... الخ .

ثانياً — الاحتفال بالتشويه والعناية بالصورة إلى درجة كبيرة والأمثلة على هذه العناية كثيرة منها قوله :

فرأيت شبحاً قد مله الدهر ومل من الدهر ، فأصبحت الأرض وتراً
لقوس ذلك الظهر .

والحق أنني لم أجد نظيراً لهذه العناية بالصورة إلا عند رجل
كالقاضي الفاضل .

ثالثاً — صوغ بعض الجمل على طريقة صوغ الحكم كما في قوله « والحياة
نسيج ساذج توشيه الأسفار ، والعمر صحيفة ملساء تنقشها الأخطار . والمرء
كالدينار منفعة في تداوله واغترابه ، وضياعه في اكتنازه واحتجابه . »
رابعاً — استخدام ألفاظ القرآن فضلاً عن الاستشهاد به .

أما الاستشهاد فن قوله تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة .. » الخ وقوله
تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمماتكم لا تعلمون شيئاً ... » الخ .

وأما ألفاظ القرآن فكثيرة ، ومنها قوله : « إن الله جلت قدرته قد علمك
من لدنه علماً الخ . » وقوله : « اطلب لنفسك طريقاً وسطاً لا تفضل فيه ولا تنهى . »
وقوله : « فسح يده على عيني .. » وقال « انظر فبصرك اليوم حديد . » وقوله :
« وقد تغلبت جيوش العواصف وقضى الأمر . » وقوله : « وهذه وجوههم
مصفرة وأفتدتهم هواء ... » الخ .

خامساً — وهى الأهم — اعتماد الكاتب على تشخيص المعانى المجردة
بطريقة لم يألئها الأدب العربى من قبل إلا فى أوقات قليلة نادرة ، وقد يسمى
بعض الأدباء هذه الطريقة رمزاً . وقد يسمونه تشخيصاً . والرمز والتشخيص
كلاهما من طرق الأداء بالجملة التى لا يقوى عليها غير الأدباء الموهوبين
القادرين على رسم الصورة ، ومراعاة الجوارح محيط بها أو الإطار الذى ترسم فيه .
وانظر إلى المولى حى حين يصور الأمل فيقول :

« فنظرت ويا هول ما نظرت — نظرت قوما حافين بزوال عليه ثوب كطيف الشمس ، يلعب لمعان الآل ، وقد قبض كل واحد منهم على شعاع من ذلك الطيف ، فراقى منظره ، فسألت الشيخ فقال : هذا هو الآمل !

ثم صور الكاتب الباطل بنفس هذه الطريقة حيث قال :
ثم أعدت النظر فإذا أنا أرى شخصاً ضخماً عظيم الفاقة يقيعه الناس من جميع الطبقات ، وهم متكاتفون على لثم حذائه ، ولمس طرف من ردايته .
فسألت الشيخ : من هذا العظيم ؟
فقال : هذا هو الباطل ، .

ثم صور الكاتب الحق بنفس الطريقة السابقة أيضاً فقال :
ثم تحولت بنظري فإذا أنا أرى شخصاً ضئيلاً منزويّاً تتحامي طريقته الناس ، وتتحاشى النظر إليه ، وهو حاسر الرأس ، عارى الجسد ، لاسمل ولا طمر . فسألت الشيخ من هذا المسكين ؟ فقال : هذا هو الحق .
وبنفس هذه الطريقة أيضاً صور لنا الكاتب معنى الألم وفغنى السأم ، وحض الأول بالفقراء ، والصمت الثانى بالأغنياء ، وتكشفت له الدنيا عن حقيقتها في معاملة الأحياء . وصاح الرجل في نفسه : ما أبشع هذا الوجود الذئب لا راحة فيه لغنى ولا لفقر . الخ .

الحق أن قارئ هذه القصة ينتقل فيها من لذة إلى لذة ، ومن فائدة إلى فائدة ، ولا يتفكك يعجب إعجاباً مستمراً بكاتبها ، وينظر إليه أيضاً على أنه فتح على الكتاب باباً كان موضحاً عليهم أزماناً طويلة ، وهذا الباب الموصد هو القصة .

والى القارىء قطعة من (حديث عيسى بن هشام) لمحمد المويلحى
رأينا أن تكتبها فى هذا الفصل لتسهل الموازنة بينها وبين القطعة التى نقلناها

من (حديث موسى بن عصام) . ولعل القارىء - بعد أن يغوص إلى روح هذه القطعة التي تنقلها ويمعن النظر في أسلوبها أن يوافقنا على الرأي الذي ذهبنا إليه من أن المويلجى الأكبر هو صاحب (موسى بن عصام) وأن المويلجى الصغير هو صاحب (عيسى بن هشام) وأنه لا محل للمنازعة في ذلك.

وكما توخينا أن ننقل للقارىء أول جزء من أجزاء القصة التي كتبها الوالد أو الأستاذ فكذلك تتوخى أن ننقل له أول جزء من أجزاء القصة التي كتبها الابن أو التلميذ ، وهي كما يلي :

العبرة

حدثنا عيسى بن هشام قال : رأيت في المنام كأنى في صحراء الإمام ، أمشى بين القبور والرجام ، ليلة زهرام قراء ، يستر بياضها نجوم الخضراء ، فيكاد في ستاقورها ينظم الدرداقه ، ويرقب الذرداقه ، وكنت أحدث نفسى بين تلك القبور ، وفوق هاتيك الصخود ، بغرور الإنسان وكبره ، وشبوخه بمجده وغره ، وإغراقه في دعواه ، وإسرافه في هواه ، واستعطافه لنفسه ، ونسيانه لرمسه . فقد شبنخ المغرور بأفقه حتى رام أن يثقب به الفلك ، استكباراً لما جمع ، واستعلاء بما ملك فأرغمه الموت ، فسد بذلك الأنف شقاً في لحده ، بعد أن وارى تحت صفائح صحائف عزه ومجده ، وما زلت أسير وأتفكر ، وأجول وأتدبر ، حتى تذكرت في خطاى فوق رمال الصحراء قول الشاعر الحكيم أبى العلا :

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد
وقيح بناء وإن قدم العهد هوان الآباء والأجداد
سر إن استطعت في الهراء زويداً لا اختيلاً على رفاك الغباد

فقرعت سن الهند ، وخففت وطء القدم . وأن في دهما أولئك
الأموات ، وغمار تلك الرمم والرفات ، لمبام طالمًا خول العاشق قبلته
لقبلتها ، وباع عذوبة الكوثر بعذوبتها . قد امتزجت بخبار الغبراء ،
واختلطت ثناياها بالحصى والحصباء . وتذكرت أن تلك الحدود التي كان يغار
منها الورد فيبكي بدموع الندى ، ويشتمل الفؤاد منها بنار الجوى ، ويقف
الحلال منها موقف الحليل من النيران ، أو ابن ماء السماء فى شقائق النعمان ،
وبترق فيها ماء الحياة وماء الشباب ، قد طوى الدهر حسنها على الكتاب ،
وصار بحكم القضاء أديماً لوجه القضاء . وأن تلك العيون التي صادت بأهدابها
الملوك الصيد ، فكأنرا رعاة الأمم رعايا الغيد ، وسحرت يابل هاروت
وماروت ، وأوقعت موقف الاستكانة رب الجلال والجبروت ، يلتمس
— والتاج فوق يمينه ، وعرق الحياء فوق جبينه — من خلال لحظاتها قبولاً ،
كسائل يمد لالتماس الإحسان كشكولاً ، قد أمسّت تراباً تحت الرمس ، كأن
لم تغن بالأمس .

وأن ذلك الفاحم الآثيت من الشعر ، الخاطف بريقه سواد القلب
والبصر ، قد حصده من منابته يد الزمن ، فنسج الأجل منه ثوب الكفن ،
وأن تلك النهود التي كأنها حقائق من لجين ، تزينت بحب من المرجان ،
أو كرات من جليد انبثق فيها زهر من الرمان ، قد أصبحت كالمخللة على
الصدر ، تجمل الزاد لدود القبر .

كم صائن عن قبلة خده سلطت الأرض على حده
وحامل ثقل الثرى جيده وكان يشكو الضعف من عقده
وأن تلك الرفات والعظام ، من بقايا الملوك العظام ، الذين كأنوا
يستضعفون الأرض داراً ، ويحاولون عند النجوم جواراً . وتلك الضلوع
التي انحنت على البطش والحلم ، والشفاه التي طالما لفظت أمر الحرب والسلام ،
وتلك الأنامل التي كانت تبرى القلم للكتاب ، وتبرى بالسيف الرقاب ،

وتلك الوجوه والرموس ، التي استعبدت الأبدان والنفوس ، ووصفت
تارة بالبدور وتارة بالشموس ، قد تساوى الرئيس فيها بالمرءوس فلا تفرق
اليوم ولا تميز ؟ بين الذليل منها والعزیز :

هو الموت مثر عنده مثل مقتر وقاصد نهج مثل آخر ناكب
ودرع الفتى فى حكمه درع غادة وأيات كسرى من يوبت العناكب
ترجل فى غيراء والخطب فارس وما زال فى الأهلين أشرف راكب
وما النعش إلا كالسفينة راميا بغرقاه فى بحر الردى المتراكب

وبينا أنا فى هذه المواعظ والعبر ، وتلك الخواطر والفكر ، أتأمل فى
عجائب الحدثان ، وأعجب من تقلب الأزمان ، مستغرقا فى بدائع المقدور ،
مستهديا للبحث فى أسرار البعث والنشور ، إذ برجة عنيفة من خلقي ،
كادت تقضى بحتى ، فالتفت التفاتة الخائف المدعور ، فرأيت قبراً انشق
من بين تلك القبور ، وقد خرج منه رجل طويل اقامة ، عظيم الهامة ،
عليه بها المهابة والجلالة ، ورواء اشرف والنبالة ، فصعقت من هول الوهل
والوجل ، ضعقة موسى يوم دك الجبل . ولما أنفتت من غشيتى ، واتهيت
من دهشتى ، أخذت أسرع فى مشيتى ، فسمعت ينادينى ، وأبصرته يدانينى .
فوقفت أمثالاً لأمره ، واتقاء لشيره ، ثم دار الحديث بيننا وجرى ، على نحو
ما تسمع وترى . بالتركية تارة وبالعربية أخرى :

(الدفين) : ما اسمك أيها الرجل وما عمالك وما الذى جاء بك ؟

فقلت فى نفسى . حقا إن الرجل لقريب العهد بسؤال المسكين ، فهو
يسأل على أسلوبهما . فاللهم أنقذنى من الضيق ، وأوسع لى فى الطريق . لأخلص
من مناقشة الحساب ، وأكتفى شئ هذا العذاب ، ثم التفت إليه فأجبت .

(عيسى بن هشام) : اسمى عيسى بن هشام ، وعلى صناعة الأقلام .

وجئت هنا لأعتبر زيارة المقابر ؛ ففى عندى أوعظ من خطب المنابر .

(الدفين) : وأين دواتك — ياعلم عيسى — ودفترك ؟ .

(عيسى بن هشام) : أنا لست من كتاب الحساب والديوان ، ولكنى من كتاب الإنشاء والبيان .

(الدفين) : لا بأس بك فاذهب أيها الكاتب المنشئ فاطلب لى ثيابى ، وليأتونى بفرسى (دحمان) .

(عيسى بن هشام) : وأين ياسيدى يتكم فإنى لأعرفه ؟

(الدفين) مشمئزاً — قل بالله من أى الأقطار أنت ؟ فإنه يظهر لى أنك لست من أهل مصر . إذ ليس فى القطر كله من أحد يحبل بيت (أحمد باشا المنيكلى) ناظر الجهادية المصرية !!

(عيسى بن هشام) أعلم أيها الباشا أتى رجل من صميم أهل مصر ، ولم أجهل بيتك إلا لأن البيوت فى مصر أصبحت لاتعرف بأسماء أصحابها ، بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقامها . فإذا تفضلت وأوضحت لى شارع بيتكم ، وزقاقه ورقه انطلقت إليه وأتيتك بما تطلبه .

(الباشا) مغضباً — ما أراك أيها الكاتب إلا أن بعتك دخلاً . فتى كان للبيوت أرقام تعرف بها ؟ وهل هى (أفادات أحكام) ؟ أو (عساكر نظام) ؟ والاولى أن تناولينى رداءك أستتر به ، وتصاحبنى حتى أصل بى .. الخ . وقارىء هذه القصة يشهد أولاً بأن بينها وبين القصص القرآنى . ومنه قصة أهل الكهف — شها من ناحية الفكرة . كما يشهد بأن بينها وبين المقامة العربية شهاً قوياً من ناحية الأسلوب .

ثم إن قارىء هذه القصة إذ يأخذ فى قراءة (حديث عيسى بن هشام) ليجد بينه وبين (حديث موسى بن عصام) من أوجه الشبه ما قد يجعل على

الظن بأن مؤلف الحديثين واحد : وقد سمعت بنفسى بعض الشيوخ في وقتنا هذا يذهبون إلى هذا الرأي ، ويظنون في المويلحى الكبير أنه صاحب الحديثين ، وأنه ليس لولده محمد من فضل في هذه القصة غير التوقيع .
غير أنه على الرغم من وجوه الشبه بين الحديثين فإن الذوق يشهد كذلك باختلافهما اختلافا يقوى عندى الظن بأن أحد الحديثين لإبراهيم ، وأن الآخر لولده محمد .

وإليك بعض وجوه الاختلاف :

أولاً — تتلاحق الصور البيانية تلاحقاً كبيراً ، وعلى مدى فسيح في حديث تلاحقاً (عيسى بن هشام) بينما تقل إلى حد الاعتدال في حديث (موسى بن عصام) وهذا اختلاف بينهما من حيث السبك .

ثانياً — ليس الفرق بين هذه الصور البيانية في الحديثين فرقاً فقط من حيث السبك ، بل هو فرق من حيث السبك في نفس الوقت . ومن ثم جاءت صور المويلحى الصغير على تلاحقها وكثرتها صارخة إن صح هذا التعبير . وجاءت صور المويلحى الكبير أدنى إلى الوقار والهدوء . وإذا جاز أن نعبر عن ذلك بطريق الألوان والأصباغ قلنا أن المويلحى الصغير كان يجب منها اللون الزاهى البراق ، في حين أن أباه كان يؤثر عليه اللون الهادى قليل المعاني .

ونستطيع أن نلخص هذه الملاحظة التي نلاحظها على أسلوب هذين الرجلين بقولنا أن أسلوب أحدهما — وهو المويلحى الصغير — يمتاز بالجمال وأن أسلوب الثانى — وهو المويلحى الكبير — يمتاز بالجلال .

والنقاد المحدثون يعرفون كيف يفرقون تفرقة واضحة بين هاتين الصفتين من صفات الأسلوب . ونستطيع نحن — على أساس هذه التفرقة أيضاً — أن نفرق بين هذين الكاتبين .

ثالثاً — على أن بينهما فرقا آخر من حيث الأداء. فقد نحى إبراهيم منحى التشخيص المادى للمعانى المجردة. ونجح نجاحاً كبيراً فى هذا التشخيص وكان ذلك عنصراً من عناصر (الجلال) فى الأسلوب الذى كتب به هذا الحديث.

أما ولده محمد فلم يسلك هذه السبيل من سبل التعبير، بل حصر همه فى تأليف الصور البيانية التى أشرنا إليها على النحو الذى أشرنا إليه. فكان صنيعة هذا صانع رجل فنان يتعشق الجمال، ويجرى وراء الزينة اللفظية جرى كتاب المقامات وراء هذه الأشياء. حتى لكانها الغاية الأولى والأخيرة من كتابة القصة.

والسكاتبان الكبيران يشتركان بعد فى أكثر الخصائص الأدبية التى أشرنا إليها، ومنها الاستشهاد بالأشعار، والتضمين من القرآن، والسجع، والطباق، والترادف الصوقى للعبارة، أو التقسيم الموسيقى للألفاظ، مع المبالغة الواضحة من جانب الكاتبين معاً فى تلك الخصال.

ومهما يكن الأمر فإن قارئ الحديثين أو اقتصين يشعر شعوراً واضحاً بأن (حديث موسى بن عصام) من إنشاء كاتب طال عهده بصناعة الكتابة، كما طال عهده بمعرفة الناس والأيام، وأن (حديث عيسى بن هشام) من إنشاء كاتب حديث العهد بالكتابة بالقياس إلى الكاتب الأول. وأكبر الظن أنهما كان يشتركان — إلى حد ما — فى هذا التتاج الأدبى الممتاز، وأن أحدهما كان يقف من الآخر موقف التلميذ من الأستاذ.

خامساً — وآخر ما يقال فى الموازنة بين هذين الكاتبين هو نزوع أحدهما — وهو المويلحى الكبير — فى قصته منزع الفلسفة ومحاولة الخوص إلى أعماق النفس البشرية دائماً، ونزوع الثانى — وهو المويلحى الصغير — فى قصته منزع الناقد للمجتمع. أى أن الفرق بينهما كالفرق بين رجل

يشرف على الحياة من أعلى الجبل، ورجل يضطرب في الحياة نفسها، ويمخاطب الناس أنفسهم عند السفح. وهكذا كان إبراهيم محلقاً في السماء، بينما كان ابنه محمد ماشياً على الأرض.

كم كنا نود من أعماق نفوسنا أن نجد إبراهيم قد أتم قصته، وأخرجها كتاباً يقرؤه الناس في عصره وبعد عصره.

ولأننا لنأسف كل الأسف حين لم نجد إبراهيم قد مضى في كتابة قصته. ونظر التاريخ الأدبي إلى كتابه «حديث عيسى بن هشام»، على أنه أول قصة مصرية في تاريخ الأدب المصري الحديث، كما نظر إلى مؤلفه محمد الميمني على أنه رائد من رواد النهضة الأدبية إلى هذا اللون الطريف من ألوان الأدب وهو القصص.

* * *

وهكذا ظهرت القصة المؤلفة أول ما ظهرت في مصر الحديثة على صفحات «مصباح الشرق». أما القصة المترجمة فقد سبقتها إلى الظهور على صفحات جريدة «وادي النيل». والعجيب أن تلك القصة المترجمة كانت متأثرة في أسلوبها بالمقامة العربية كما ذكرنا ذلك في الجزء الأول من أجزاء هذا الكتاب وبقي أسلوب المقامة يحتذى في القصة المصرية على يد ذينك الكاتبين الكبيرين.

ثم لم يدل الحال على ذلك إلا ريثما ولي كتابة القصة المصرية رجيل جديد من الأدباء الذين تأثروا من جديد أيضاً بأوروبا. فطفقوا يكتبون القصة بأسلوب مطلق من قيود التجميع، ومن قيود الزينة، ومن قيود الماضي القديم للأدب العربي.

الفصل الخامس

إبراهيم المويلحي

في مقالات « ما هنالك »

كان السلطان عبد الحميد كلما سمع بعالم أو أديب أو فيلسوف أو سياسي ذاع صيته وطارت شهرته في آفاق مملكته يحرص على أن يدعو إليه هذا الرجل ليعيش على مقربة منه ومسمع بعاصمة الخلافة. وهنالك كان عبد الحميد يوفر له أسباب العيش الرغد في قصر من قصور هذه المدينة الكبيرة، حيث يعيش هذا الكاتب أو العالم أو السياسي أو الأديب في قفص من ذهب، كهذا الذي حبس فيه السلطان يوماً ما السيد جمال الدين الأفغاني مرة، والسيد النديم مرة أخرى، ثم السيد إبراهيم المويلحي آخر الأمر.

وسافر المويلحي إلى الأستانة بدعوة من السلطان . وبعد تردد قصير لم يدم إلا ريثما ضمأنه ابنه على حسن نية السلطان ، بادر إبراهيم المويلحي إلى الذهاب إلى الأستانة ، وإذ ذاك حظى بمقابلة السلطان الذي غمره بعطفه وإكرامه منذ اللحظة الأولى من قدومه. وكان خليقاً بإبراهيم أن ينعم بهذه الحياة الجديدة التي فتحت له أبوابها في عاصمة الخلافة ، ولكن الزمن الذي يعكر الصفو على النام لم يشأ أن يتيح لإبراهيم هذه الحياة الهادئة الناعمة . وكيف تهدأ الحياة في هذه المدينة التي تموج بالكائدين والدسائسين، وأصحاب الشهوات والمطامع الرفيعة والخسيسة ؟ بل كيف تهدأ الحياة في هذه المدينة التي يدرك المقيم فيها بعد زمن قصير أن كل إنسان فيها عين على بقية الناس، وأذن صاغية لأصواتهم وحركاتهم وهمساتهم ونجواهم، ولعل فيها شيئاً يصح أن يعلم به السلطان .

هنالك — فى الأستانة — فتح المويلحى عينه على حياة غريبة كل الغرابة . ومع أنه كان لهذا الأديب عهد بحياة الملوك ، وكانت له معرفة بأخلاقهم وأخلاق حاشيتهم ومن يلوذ بهم فإن نظره وقع فى الأستانة على حياة أشد تعقيداً وأكثر ظلاماً وأدنى إلى الرياء والتفاق ، وأقرب إلى الفخامة الكاذبة والفخامة الباطلة من الحياة التى رآها فى مصر . هنالك رأى ملكاً يقوم على الجمل ، وسلطاناً يقوم على الذعر ، وحكومة لا عمل لها إلا الدس أو الكيد ، وشعباً غارقاً فى نومه وجهالته ، تاركاً أمر دينه ودنياه لرجل لا يعرف من الدين والدنيا غير نفسه وما يجب لها من الرعاية والصون . بل هنالك رأى دون توشك أن تنتفض لا يكاد يمسكها عماد من علم ، أو رباط من عدل ، تلك هى الدولة العثمانية فى شيخوختها وقرب نهايتها ، أى فى الوقت الذى كانت فيه آيلة إلى سقوط ، مائلة إلى انحدار ، هاوية إلى حضيض الشيخوخة تمثّل (الرجل المريض) ، وقد أخذته ساعات الاحتضار ، والناس من حوله ينتظرون أن يلفظ النفس الأخير لينخل بينهم وبين ما ترك من مال وثروة .

شهد إبراهيم المويلحى الدولة العثمانية وهى فى هذه الحال من الضعف والهرم والفساد والانحلال . وكان من حظ التاريخ أن يشهد المويلحى هذه الدولة وهى بهذه الحال اتى ذكرنا . وذلك لأن التاريخ يعنى أولاً بتسجيل الأحداث الكبار . وأى حدث أكبر من حادث انهيار الدولة العثمانية أو جنوحها إلى الانهيار . . بل كان من حظ الأدب نفسه أن وجد إبراهيم المويلحى فى الأستانة فى تلك الفترة من حياة الخلافة . وذلك أن الأدب فن التعبير والجمال . وأى كاتب كان أقوى إذ ذاك من إبراهيم فى الإنشاء ، وأقدر منه على تصوير هذه الدولة وهى فى طريقها إلى القضاء غير أن إبراهيم إنما كان يصف فى مقالاته الدولة ورجالها وصفاً لامبالغة فيه من جهة ، ولا مقصد من وراءه غير النصيحة للمسلمين فى مصر وتركيا ليتداركوا الأمر قبل فواته ويقيموا من بناء الدولة ما أوشك أن يتقضى على بناته ، من جهة ثانية .

ولقد كتب إبراهيم المويلحي بعد هذه المقالات وهو في الأستانة . وكان يبعث بها سرّاً إلى جريدة المقطم بمصر لنشرها هناك . واستمر إبراهيم في نشر هذه المقالات حتى علم بها رجال السلطان فخفوا عن فورهم للقبض عليه ، ولكنه نجا منهم بحيلة عجيبة أشرنا من قبل إليها في ترجمة حياته ، وإذا ذاك عاد السلطان فقرب إليه إبراهيم وغمره بفيضه ونعمه .

ولم تطل مدة إقامة المويلحي في الأستانة أكثر من عشر سنوات ، اضطرب بعدها إلى العودة إلى مصر تاركاً وراءه تلك المدينة العاصفة أو البحر الهائج ، بحر السياسة المضطرب في مدينة الخلافة^(١) . والعجب حقاً من أن ينجو رجل كإبراهيم المويلحي من تلك العواصف الهوج ويستطيع أن يصل بسفينته إلى بر السلامة .

وفي مصر عاد المويلحي إلى كتابة ما بقي من هذه المقالات التي وصف فيها القصر السلطاني ، وكشف للناس عن خفايا الحياة التي يحياها السلطان ورجاله في ذلك القصر . بل عن تلك المآسي التي يمثلها التاريخ على مسرح (بلدز) ، ثم بدا للمويلحي بعد ذلك أن يجمع هذه المقالات في كتاب سماه « ما هنالك » ونشره غفلاً من الإمضاء . ولكن السلطان ما كاد يعلم بأمر هذا الكتاب حتى أمر بنسخه أن يجمع ، ويبعث بها إليه . فجمع المويلحي بنفسه هذه النسخ وأرسلها إلى السلطان . وبذلك أمن على نفسه بطش ذلك الجبار ١ غير أن بعض نسخ من هذا الكتاب كانت قد تسربت إلى بعض أصدقاء المؤلف ولعل منها هذه النسخة التي بأيدينا الآن^(٢) .

(١) زعم الثنايون لأنفسهم أنهم استعملوا لقب الخلافة منذ انصروا على المماليك وأخذوا . منهم مصر سنة ١٥١٧ م . والتاريخ يحدث أن هؤلاء المماليك قتلوا الخلافة الباسية من بغداد إلى القاهرة .

(٢) وهي النسخة الموجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٨٥ ، أدب .

ويشتمل هذا الكتاب على مقدمة وثلاث عشرة مقالة ، وكلمة ختامية ذكر فيها الغرض الذى من أجله كتب هذه المقالات :

أما المقدمة فعنوانها « الدين والنصيحة » ، وفي أولها يذكر الكاتب دأن منا من يتظاهر بأن تنبيه الدولة إلى ما هى عليه من سوء الحال مروق وضلال . وليته سمع ذلك يكتفى من هداه بالإمساك عن التنبيه بل يتطرف إلى تحسين القبيح وتزيين السوء وإطراء النعم إلى مثل ذلك مما يزيد الدولة تورطا فى المزالق وتوغلا فى الخلال وتخبطا فى الفساد وشططا عن السداد ويتبجح بأن هذا هو الحب والإخلاص والولاء . فيأليت شعرى ما عسى أن يكون البغض والغش والتبليس لديه بعد هذا . وقد لا يبلغ العدو من عدوه بالحرب والقتال ما يبلغ منه بهذا التوريط والتضليل .

وتأتى بعد ذلك (المقالة الأولى) وعنوانها « أحوال السلطة العثمانية » ، فيها يصف الكاتب بعض الظروف التى اعتلى فيها عبد الحميد عرش السلطنة ثم يقول :

« وكان من سوء حظ العثمانيين أن طاف بحول العرش الحميدى زمرة مختلفة الأجناس والأفان من نزاع الآفاق . ولما تمكنوا بحيلتهم ودهائهم من الثقة بهم والركون إليهم رأوا أن أغراضهم لا تنال ، ومراكزهم لا تحفظ ، وراحتهم لا تدوم ، إلا بإشغال جلالته بمضاعفة إيجاس الخيفة من كل شيء واختلاس أوقاته التى تحتاج إليها مصالح الدولة فتدرجوا إلى ما ابتغوا — والتدريج قائد الإفراط — حتى وصلوا إلى ما لا تصدق ناقله إلا قاسمك الإيمان المغلظة عليه . . . ولما رأى الناشئون أن الرتب والوظائف لا تنال إلا بالتجنس وإظهار الجبن أخذوا يتسابقون حتى وصلوا إلى غايات يمجها السمع وينفر منها الطبع ويكى لها العثماني الحر ، بل ربما اتقل من البسقاء إلى الضحك طرفة . »

وتأتى بعد ذلك (المقالة الثانية) وعنوانها « المايين » ^(١) وفيها يبدأ المويلحى فى وصف قصر السلطان ويقول : « وفى السراى دوائر منها دائرة الجيب الهمايونى . ودائرة الباشكاتب ودائرة المابنجية ، ودائرة الباش أغا . وكان بها دائرة مخصوصة لرئيس الخفيات (أى الجواسيس) ولكن لما عم التجسس بطل ذلك الاختصاص ، وانتقل السكاتب إلى الكلام عن أهل السراى ، مبدءاً لذلك ببعض الكلمات التى أثرت عن الأوربيين فى وصف « رجل البلاط » Courtisan (ليس فى جميع اللغات كلمة تجمع بمفردها من الرذائل ما يجمعها كلمة « كورتيزان » أى أهل البلاط والبطانة والحاشية) ونحو (إن للكورتيزان ثلاث خواص من خواص المرمرفو ثقيل بارود أملس كغطاء القبر فلا يعدمه الملوك فى الحياة ولا فى المات) . ثم أخذ المويلحى يصف الدائرة الأولى من دوائر المايين وهى « دائرة الجيب الهمايونى » وانتهى بذلك المقال .

وفى المقالة الثالثة وعنوانها (دائرة الباشكاتب فى المايين) مضى المويلحى فى وصفه لهذه الدائرة وقال « وعلى الباشكاتب ترد جميع الأوراق الرسمية من الباب العالى ومن المشيخة الإسلامية ومن سائر النظارات وسائر الولايات وتصدر عنه إلى الباب العالى وجميع الجهات وهو يبعث بملاحظات لتوضع على المكتبة السلطانية فيتلقى عنها الإرادات بتبليغ المابنجية أو من يأمره جلالة السلطان بالتبليغ من الذين فى الحضرة الشاهانية . والباشكاتب يبعث بالإرادات السنية بإمضائه فى أوراق صغيرة إلى الصدر الأعظم أو إلى من تخصمهم من الوكلاء والوزراء » ثم قال المويلحى .

(١) يقول المويلحى فى تفسير كلمة المايين :

هذه الكلمة تطلق فى اللغة التركية على المجرة التى لها بابان باب إلى جهة الحرم وباب إلى الحدم ثم اختصت بالسراى السلطانية ، ولفظ السراى لا يطلق فى الأمثلة إلا على بيت السلطنة بخلاف ما نراه فى بعض النسخ « ما هناك » من ٢٤ .

واغوثاه . لقد كانت ورقة من هذه الأوراق تنشر اقامون الاساسي
وتجتمع مجلس المبعوثان وتدفع عن الدولة غوائل التدخل الاجنبي وترفع
شأن العثمانيين . ولكن واحسرتاه يصدر اليوم عشرات منها في النهار لتفتيش
بيت زيد أو استنطاق عمرو أو إبعاد خالد أو سجن بكر . . . الخ .
ثم في (المقالة الرابعة) وعنوانها « دائرة الماينجية في المايين » يادر
الكتاب إلى قوله : « وما سار رمى به الليل وحيداً في غابة التفت أشجارها ،
وتكاثت ظلماتها ، وتجاوبت رياحها ، وعزفت جناها ، وزارت أسودها ،
وترامت على أقدامه أفاعيها وسودها ؛ لايتهدى لطريق يسلكه ، ولا يجد
موتاً وحياً يهلكه بأخوف من يطل هذه الدائرة لشرم المطلق في الناس ،
وخيرهم المقيد لأنفسهم . بوقوفهم على باب فيه النعم والنقم ، والعز والذل ،
والحرية والاستعباد ، والشورى والاستبداد ، والسعادة والشقاء ، والحياة
والفناء لدى خليفة عظم وسلطان كبير :

له لحظات في حفا في سريريه إذا كرها فيها عقاب وثائل

إلى أن يقول : « وهم ستة وسابعهم رئيسهم الحاج علي (بك) ،
وأشار المويلحي في ثنايا الحديث عن هؤلاء الأمناء أو الماينجية ، إلى
أن أمرهم قد اختلط في أذهان الناس بالمشايخ الذين كانوا ينازعون هؤلاء
الأمناء سلطانهم في قصر الخلافة : « وكان أحدهم — وهو راغب (بك) —
يوناني الأصل وله وظيفة أخرى غير الماينجية ، وهي استنطاق المأمورين
كما أن من وظائف الشيخ أبي الهدى (الصيادي) استنطاق العلساء ، وهما
يتعاونان ملاءة الفخر في الوقوف على الأسرار السلطانية . ثم يعتمد
المويلحي إلى السخرية بهذا الشيخ فيقول (إلا أن الشيخ أبا الهدى ترفع عن
كسب المال لطلب الجمد المؤثّل كما قال رصيفه أمرو القيس :

ولو أن ما أسمى لأدنى معيشة كفا في ولم أطلب قليل من المال
ولكننا أسمى لمجد مؤثّل وقد يدرك الجمد المؤثّل أمثالي

وراغب (بك) قد سبق الجميع في شهرة الاستنطاق على ثور « فالاريس » (١) كما أن الشيخ أبا الهدى وضع الجميع في تنور ابن الزيات (٢) بمهارته وتدقيقه . ثم تأتي (المقالة الخامسة) وعنوانها « دائرة الباشي أغا أو قزلباغ » (٣) في المايين ، وفيها يتحدث الكاتب عما آلت إليه حالة الدولة العثمانية من الضعف والهزال ويصور انسلاخ الممالك العثمانية عن جسم السلطنة جزءاً بعد جزء بقوله — (لو قام من القبر راشد (باشا) الصدر الأعظم وصاحباه علي (باشا) وفؤاد (باشا) وسألوا رجلاً في طريقهم عما جرى على الدولة بعدهم وقال لهم : قد انفصلت رومانيا ، واستقل الصرب ، وزال الجبل الأسود ، وذهب الروم إلى الشرق ، وانفصلت البلغار ، وضاعت قبرص ، وبانت تونس ، وانسلخت بوسنة وهرسك ، وانقطعت باطوم ، وخرجت قارص وأردهان ، وانحلت تساليا ، ووقعت زيلع ، وطاحت مصوع ، وترك السودان ، وهذه مصر في أيدي الإنكليز — هذا قسم ضاع وانتهى فيه النزاع — وسورية ترصدها فرنسا ، وطرابلس الغرب ترمقها إيطاليا ، ومقدونية تشير إليها البلغار ، وقوصوه ترقبها الصرب ، ويانيا وكريدمنستر وساموس تكاد تخطفها اليونان ، وولايات أرمينيا تطلب الاستقلال أو الإصلاح — هذا القسم في النزاع — والبصرة وبغداد تشيع أهلها بسعي حكومة إيران ، واليمن في العصيان ، والمسلمون في خوف على الحجاز ، ولم

(١) فالاريس طاغية حكم في صقلية قبل الميلاد بنحو ستائة سنة ويضرب به المثل في الظلم والتسوء حتى لعبه شيشرون بطاغية الطغاة ورجته وميته بالأجبار فقتله كفاً لشره وتخلصاً من قسوته . ويرى أن صانها ماهراً اسمه بارلس صنع ثوراً له من نحاس يعمى بالنار ويمذب الناس في جوفهم حتى يموتوا وهو يطرب بسباع أنبيهم فكان أول من جرب الثور فيه بارلس نفسه . (٢) ابن الزيات وزير المتصم روى أنه أخذ في أيام وزارته ثوراً من حديد وأطراف مساميره ممدودة إلى الداخل ومي قائمة مثل رؤوس المسال . وكان يمذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين الطلوعين بالأموال . فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من خراوة العقوبة تدخل السامير في جسمه فيجدون لذلك أشد الألم . انظر « ما هناك » ص ٤١ . (٣) توزلر أغاسي لفظ تركي معناه أغا الحرم .

يبقى إلا حلب وأدرنة وأزمير وبروسة خالصة لجلالة السلطان ، وسفن الدولة قد أكلها الصدأ في قرن الذهب بعناية حسن (باشا) وأسراره العميقة ، وسفن الإنكليز على شواطئ البلاد العثمانية ، والناس يشكون من اغتصاب المأمورين لأراضيهم ، وإدخالها في الأراضي السنية والجفالك السلطانية ، ولا ميزانية للمالية ، ولا نظام للعدلية ، ولا شغل في الباب العالي يحسن السكوت عليه ، وصار مجلس الوكلاء بعدكم تتلاكم فيه الوزراء ، والعساكر في الولايات قد عجز القلم عند وصفهم ووصف أسماهم وأطوارهم البالية ، وسلم القلم الأمر في وعنفهم إلى الفوتوغرافيا .

وأصبح الناس فوضى لا سراً لهم ولا سراً إذا جهالهم سادوا وقالوا له بعد أن اغرورقت عيونهم بالدمع — هذه كفة الخسران فهل في كفة الربح شيء يذكر ؟

فإذا قال لهم بناء سبعين تكية وتصليح عشرين مسجداً وزيارة إمبراطور ألمانيا للأستانة وإحياء اسم الخلافة بعد أن كانت مهمة لا يتقلب بها سلاطين آل عثمان ، وزيادة الألقاب المقدسة ومضاعفة عدد النياشين لقالوا : سلنا بأن هذه محسنات لا تنكر ولكن لا يوزن الجندل بالخردل ، ولعادوا مهرولين إلى قبورهم ينشدون :

يا ويلنا أفما لنا من صارخ إلا بشعر ضاع أو دين عفا
فمدينة من بعد أخرى تستبي وطريقة في إثر أخرى تعتنق
ها مصر قد أودت وأودى أهلها إلا قليلا والحجاز على شفا ... إلخ .

ثم أخذ المكاتب يصف أخلاق الباشا أغا وغروره وجهله وحماقته وماجره على الدولة من خسران . وساق لذلك طائفة من الأمثلة منها قوله :
(أتريد أيها القارئ أن تعلم كيف ذهبت تونس من الدولة ؟ أرادت الدولة أن تقبض على مدحت (باشا) وهو وال على أزمير فهرب إلى قنصل فرنسا فطلبته الدولة فتوقفت فرنسا في تسليمه .

وانتهت المسألة بين الدولتين بعد المخبرات على أن فرنسا تسلبه بالشمال
وتستلم تونس باليمين . وتم الأمر واشترت الدولة رجلاً واحداً بمملكة !!!
فما أغلى قيمة الرجال عندها !!!

ويمضى الكاتب فى سخريته بهذا الباشأغا إلى أن يقول (وما زال بهرام
له النظر الأعلى فى طوابع النفوس ، والحكم المبرم عليها بالسعود والنحوس ،
ولامعقب لحكمه ، ويأمر ولا يراد لأمره ، ويشمخ بأفقه على الفحول أصحاب
السيف والعلم والكتاب والقلم ويكبر على عترة الرسول وأولاد البتول فيمد
رجله فى وجوه كرمها الله — لتقييلها — ولا يردعه رادع الإيمان ولا يزعه
وازع القرآن أن يقف عند حده مع أهل بيت نزل الكتاب عليهم وفيهم) .
وبما جاء فى هذا الفصل قوله فى معرض التهم بالسلطان فى اختياره
الحجاز الذى هو قبله المسلمين منفى للمجرمين والسفاكين :

(يستغيث القلم أن يكتب هذا الفصل وهو أن العادة جرت من زمن
قريب أن المجرمين والقاتلين والمتهمين ينفون إلى الحرمين الشريفين فيبعث
بهم تبا تبا وفرادى مغضوباً عليهم من بيت السلطان إلى بيت الرحمن) .

ثم تأتى (المقالة السادسة) وعنوانها : دائرة الياوران فى المايين ، وفيها
يذكر الكاتب أن هذه الدائرة تتألف من ثلاثة أقسام : ياور — وياور أكرم
— وياور نغرى — وسرياور (أى رئيس الياوران) . فالياوران : الأكادم
ينفون على عشرين كلهم من أعظم المشيرين . والياوران مائة وعشرون —
والياوران ألفخريون فوق مائة وثلاثين ورتبهم مختلفة من رتبة الملازم إلى
رتبة المشير) .

قال المؤلف (ولم يجتمع على باب سلطان من السلاطين . ولا ملك من
الملوك المتقدمين والمتأخرين ما اجتمع اليوم منهم على الباب الرفيع والسدة
السنية ، كما أنه لم يبلغ بعظمة دولة وقوة سلطنة وجلال إمبراطورية وسعة

بملكه في عهدنا أن يكون في قوادها عشرة من المشيرين — وللدولة العثمانية
المجد الأثيل بأن لها قوادها ستين مشيراً . . . أما الدولة البريطانية فليس
في وسعها ولا في سعتها إلاتعين ستة مشيرين أحدهم ولي عهد الملكة والآخر
عنها والأربعة الباقون اشتهروا في حروبها) .

وقد سخر المولى من كبار رجال الدولة العلية في فظهم إلى رتبة
الياور الأكرم في المناين على أنها فوق كل المراتب قدراً ، لا لشيء إلا أنها
تدل على معنى الخدمة الخصوصية لذات جلالة السلطان — ثم قال (من هذا
 وغيره يظهر أن هؤلاء الأفاضل اعتبروا أن السلطنة والدولة والخلافة
والأمة والإسلام والمسلمين أشياء خلقها البارى عز وجل لخدمة الذات
السلطانية — لا أن جزلة السلطان الذى رفعه الله إلى مقام الخلافة هو
المنشول المكلف أن يحفظها بنفسه . ونحن ننزه إيمان جلالة السلطان أن
يصغى إلى زخرفهم فإن الأمر في القيام بشأن الخلافة عند الله عظيم) .

ثم تأتى بعد ذلك (المقالة السابعة) وعنوانها (الجواسيس - ولعلها
من أهم ما جاء في هذا الكتاب من مقالات ، وانظر إلى الكاتب التقدير كيف
بدأها بقوله :

ويهنر الإنسان لذاته ، ويرفض راحة حياته لطلب العلم . ويضرب في
الأرض ويجمع مى قوته لنوال الإثراء ، وينازل الأبطال ، ويصارع
الأنهوال لبلوغ الغلباء . حتى إذا مضى العمر إلا الأقل قيل له : طالب علم
أو غنى ، أو عظيم القدر .

أما إنسان الاستاة فله طريق إلى الغلباء مختصر . ينال الإثراء ، والغلباء
وشهرة العلم في يوم واحد . وليس عليه في الوصول إلى مطلبه إلا أن يكتب
تقريراً مطلقاً يتهم فيه الأبرياء الأمانة ، والصادقين الغافلين ، فتنهال عليه
الدنانير ويطلع في صدره قر الوسام بازغا وتخطبه الدولة بالفضيلة
والسعادة .

ثم انظر كيف يصف الكاتب تهافت السلطان على الجواسيس وافتقاره إليهم، وثقته فيهم، وتقربه منهم بقوله على لسان يوسف (باشا) رضا الصديق له: «إن جلالة السلطان قد تعود أن يسمع من جواسيسه كل يوم خبراً مقلقاً على نفسه، فإذا مر يوم لم يأت فيه ما يقلق خاطره على نفسه بقيام فتنة وتشكيل جمعية ظن أنه قد وقع ما يخشاه، وما أتاه خبره، فيبقى متكدراً حتى يكتب له الجواسيس بشيء من هذا القبيل، فيشتغل بتحقيقه. فإذا ظهر له كذبه كغيره من الأخبار السابقة سرى عنه واستراح خاطره... وقال جلالتة يوماً لأحد المقربين إلى السدة السلطانية شاكياً من كثرة الاضطراب لديه: إنه وصل لمقامه الأسنى ثلاثة تقارير في مسافة نقض وضوئه». وانظر إلى المولى حى معقباً على هذا بقوله:

ماذا يبقى من الزمن بعد ذلك للدولة وتشيدها، والشرعة وتأيدها والجنود وترتيبها، والأحكام وتقويمها، والمالية وتنظيمها، والمعارف وتعميمها، وعلاقات الدول وتوثيقها، والسياسة وتنسيقها، والسفن وتعميرها والمنافع العامة وتكثيرها. لا يبقى من الزمن إلا ما يكفي لسماع تقارير السادة المشايخ، ودس بعضهم على بعض، ليأخذ زيد مكان عمرو، وينال بكر منزلة خالد.

بل انظر إلى المولى حى كيف يستخر أيضاً من أولئك المشايخ الذين استولوا على عقل السلطان، ويا طول ما سخر هذا الكاتب منهم في مقالاته من أولها إلى آخرها:

ولو اشتغل الأساتذة الجهابذة في إقامة الحججة على الأوروبيين في هذه الأيام بأن دين الإسلام ليس كما يزعمون بعيداً عن القنن والإصلاح، بل هو عدل وإنصاف، وحكمة وهدى، لكان ذلك أولى يقوم تكتب ألقاب أحدهم في ثلاثة أسطر، فلا يصل القارىء للاسم إلا بعد صفوف من الألقاب!.

ثم انساق الكاتب بمهارة متفرقة وأساليب أخاذ في سوق الأمثلة المتعددة من سعايات الجواسيس ، وعناية السلطان بأمر هذه السعايات التي يلفقونها والمؤامرات التي يتخلونها ، والأخبار التي يزيفونها للناس . حتى لقد أصبح الأب جاسوساً على ولده ، وأصبح الولد جاسوساً على أبيه ، وخيل أن الدولة كلها لم تسخر إلا لهذه الغاية وحدها ، وإن رجال الدولة لا يأخذون روايتهم إلا لهذا العمل .

ويطول بنا القول لو أردنا أن ننقل طرفاً بسيطاً عما ساقه الكاتب من أمر أولئك الجواسيس ، ويكاد لا يصدقنا القارئ أو يصدق المؤلف إذا أتينا له بأمثلة قليلة من ذلك .

وانظر إلى هذا الكاتب — بعد إذ سرد الكثير من حكايات الجواسيس — كيف يعلق عليها بقوله في لهجة خطافية واضحة :

« يا كساد العلم ، ورواج الجهل ، ويا شقاء الحق ، وسجادة الباطل ، ويا خينة الصادق ، ونجاح المنافق . ويا بكاء الأمين ، وضحك الخائن ، أصبحت دار السلطنة التي كانت عربناً للأسود خلايا تطل فيها زناير الجواسيس وأصبح العالم من شر الجهلاء يوجع على قواعد العلم يكتبها في تأليفه ، وأصبح الجاسوس يظلم العلماء يمشی مرحاً ويحتال تكبراً الخ . »

ثم تأتي بعد ذلك (المقالة الثامنة) ، وعنوانها :

عيد الجلوس السلطاني ، وفيها يقول :

« في مثل هذا اليوم من سنة ١٨٧٦ جلس على سرير السلطنة وعرش الخلافة جلالة السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني يارثه الشرعي عن آبائه وأجداده غياث الأمم ، وغيوث الديم . أعاد الله هذا اليوم الجليل على الأمة العثمانية وعليه بالعادة والإقبال ، والعز والإجلال الخ . »

وأكبر انظر أن الكاتب إنما كتب هذه المقالة وهو بالاستانة ، وبعث بها يومئذ إلى محرر جريدة «الحقائق» وقد تعرف به — كما قلنا — في مدينة

الخلافة ، وأظهر له استعداداه لوصف المواقب السلطانية بهذه الصحيفة .
وأكبر الظن أيضاً أن المولى يحى تناول هذه المقالات التى كتبها بالاستانة
بالتهديب وبالتنقيح ، والحذف والإضافة ، وذلك بعد عودته إلى القاهرة ،
واشتغاله بجمع هذه المقالات فى كتابه « ما هنالك » . يدلنا على ذلك ما نقرأه
فى ثنايا هذه المقالات التى وصفت بها أعياد السلطان من عبارات الحزن
على مصير الدولة العلية . وإظهار الأسى على ماضع من أملاكها فى أوروبا
وآسيا ، ثم تاريخ هذه المأساة الكبيرة التى فقدت فيها الخلافة هذه الأملاك ،
ثم تدرجه من ذلك إلى ذكر الإصلاحات التى طالب بها مدحت (باشا) ، ثم نفى
هذا الرجل إلى أوروبا ، ثم دخول تركيا فى حرب مع روسيا ، ثم استيلاء
المشايع على ذهن السلطان وقلبه فى أثناء هذه الحرب ، وإيهامهم إياه — بطريق
الدجل والخداع — أنه سيأسر إمبراطور روسيا ، وأنهم يشرونه بذلك ،
كل ذلك (ومجلس المبعوثان) لا يدعى للاجتماع إلا حين تريد السراى أن
تحملة وزر خطأ من الأخطاء أو عاقبة سيئة من العواقب . ١

« ولما عظم الخطب ، وفدح الأمر ، وقرب الروس من دار السلطنة ،
طلبت الدولة من الدول التوسط لصددهم ، فلم يجبن ، إلا إنجلترا ، فإنها لبثت
الدعوة ، وأرسلت أسطولها فى الحال إلى الدردنيل . »

لست أدرى ماذا أراد الكاتب بهذا المقال ؟ هل أراد به وصف عيد
الجلوس السلطانى ، أم رثاء الدولة التى ختم فيها مقاله بهذا البيت من الشعر :
أعرضوا عن مدائح وتهان فالمرأى أولى بشا والتعازى ١

ثم أتت (المقالة التاسعة) وعنوانها الجواسيس ، وفيها عاد الكاتب مرة
أخرى إلى وصف الجاسوسية فى البلاد ، وأتى بطائفة من نوادرها هناك .
وانظر إلى الكاتب كيف بدأ مقاله التاسع بقوله :

« ومن نوادر الوقائع أن رجلاً من طرابلس الشام اسمه (عبد الحميد)
حضر إلى الاستانة ليحصل على وظيفة من وظائف العدلية فى بلاد الدولة ،

وكان لمنيف (باشا) معرفة به فجاء إليه لعرض العبودية (على اصطلاح أهل الآستانه) فقال له (الباشا) :

متى جئت وفي أى مكان نزلت؟ قال الرجل : جئت اليوم ونزلت في يلدز . قال له (الباشا) : كيف ذلك؟ وقد ظن أنه نزل في السراى السلطانية،

قال : في نزل بقرب السركجى اسمه يلدز .

فوقف منيف (باشا) على رجله وقال له :

قم ولا تجلس هنا حتى تنتقل من هذا النزول إلى آخر .

فوقف الرجل مبهورا لا يدري سبب هذا الأمر الحتم .

فقال له (الباشا) :

أنسيت أن اسمك عبد الحميد ، واسم هذا النزل يلدز؟ فأى قارعة من قوارع الدهر ، وأى بائقة من بوائق الزمان تريد أن تنصبّ على رأسك ورأسنا؟

فكاد الرجل يصعق من هذا الاتفاق الذى لم يرزق التحرز منه ، وخرج يشتم أباه وأمه ! .

ولما وصل إلى النزل وجد نفرا من البوليس ينتظرونه ؛ ولو كان هذا الإرصاء والإسراع في مصالح الجمهور لسبقنا غيرنا بمراحل ! فأخذوه إلى الاستنطاق ، وما خلص من مضيق الخناق حتى خف عقله وجيبه معاً . وبقي في الآستانة مدة بركة هذا الاتفاق لا ينال وظيفة ولا يجد مساعداً .

أرأيت أيها القارئ سخرية أبلغ ، أو تهكما أشد ، أو ازدراء أنكى من كل ذلك؟ وهذه حكاية من عشرات الحكايات التى أوردتها المويلحى في كتابه . ولعلها أخفها سخرية ، وأقلها مرارة ، وأدناها إلى الرفق بالسلطان ورجال السلطان .

ومن ثم فنحن نترك هذه الحكايات على كره منا ، ونصل بالقارئ إلى (المقالة العاشرة) . وعنوانها : جلال الخلافة وجمال السلطنة . وانظر إلى

روح التندر السائدة على كتابة الرجل . وقد شاء أن يمد لوصف المواكب السلطانية بقوله في بداية هذه المقالة العاشرة :

« إن الممالك تختلف في تشييد عظمتهما اختلافاً كبيراً ، فمنها ما تختار له الحديد الذي قال الله تعالى فيه « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » . ومنها ما تختار الذهب ، له ترى فيه طريقاً مختصراً لبلوغ الغاية .

ولما كانت السلطنة العثمانية قد فاقت جميع الدول الأوروبية في الآبهة والفخار بأعظم مقتنيات الزينة رأينا أن نبين مظاهر الجلال ، ومواسم الاحتفال ، ومواكب الآبهة واحداً واحداً ... الخ .

وبعد أن فرغ الكاتب من وصف بعض هذه المواكب قال « وهنا نذكر حكاية . مر على الأستانة من أقصى المغرب رجل من العامة ، فيه خشونة البادية . ولما رأى الموكب السلطاني ، ووقوف آلاف من العساكر المسلمين لا يصلون في وقت الصلاة سأل أحد مشايخ الحضرة السلطانية بعجرفة لاتليق بأدب الخطاب مع قاضي عسكر (روم ايلي) بقوله :

يا شيخ الأستانة أيجوز في الشريعة أن يقف عشرة آلاف من المسلمين حول المسجد الجامع ، وقد سمعوا آذان الجمعة ، وشهدوا الناس يصلونها ، ولا يجسر أحد منهم أن يصلحها للحكم القاهر عليهم ، سبحانه الله يا شيخ الأستانة . قد أصبح حكم العبد فوق حكم الرب . قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذكروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكر الله كثيراً لعلمكم تفلحون » ، وقال الضابط للعساكر : قفوا هنا ولا تصلوا . فأطاع العبد ، وعصى العبدان الرب .

أتريدون نصراً من الله بعد هذا والله يقول : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ، وإن خذلنا لدليل عصياننا . إن الله لم يبح للمسلمين ترك الصلاة في حال من الأحوال . وقد عرفنا الله كيف نصلي صلاة الخوف .

قال تعالى يخاطب الرسول « وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا » (الآية) وإن الأئمة نواب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل عصر ، قوام بما كان يقوم به ... الخ ، فقال له شيخ الأستاذة :

هذه سياسة فيها إرهاب العدو . ألا ترى الأجانب قد احمرت وجوههم عند رؤية هذا الموكب السلطاني ؟ .. وتغير وجه شيخ الأستاذة وقال للفقيه المغربي : إن بقيت في الأستاذة إلى الغد يافضولى أكلتلك الأسماك ... ثم أحاطت بالرجل مكاييد الجواسيس ، وحفت به دسائسهم ، فطلب النجاة من دار الخلافة ، وخرج مع البازى عليه سواد .

ثم أتت المقالة (الحادية عشرة) وعنوانها «تقليد المناصب العثمانية» ، وفيها يصف الكاتب كيف يرقى المناصب العالية في الدولة بطريق الرشوة والخضوع والمذلة والرياء والتلق لمن في دار السلطنة من الكبراء وأصحاب الكلمة « فيدخلون وعبابهم مملوءة بالمال ، ورموسهم بالآمال ، فيطوفون على بيوت الكبراء والوزراء والكتاب والحجاب ، ويقدمون الهدايا والتحف للنظار والوكيل والكتاب والحاجب والنديم والصاحب ويباشرون وظيفة الوقوف صباح مساء فيصطفون صفوف القائمين للصلاة على أبواب النظارات ، فيركعون لإشارة بالكف ، أو نظرة بالطرف فمن يمر عليهم من ولاية الأمور ... الخ » .

ويقوم أولئك المأمورون في الأستاذة سنوات على هذه الحال ، حتى إذا ظفروا بما أرادوا خرجوا من الأستاذة وقد وقفوا على القصد الحقيقي من السلطنة والدولة والخلافة والإمامة والجيوش والمعاقل والحصون والرتب والنياشين ، وهو حفظ ذات مولانا السلطان حفظه الله ، وجعل الأمة والدولة فداء .

هذا حال المأمورين ، وهذه نياتهم وعزائمهم ... أما الولاية فكثيراً

ما يعزلون وينقلون من ولاياتهم بذنب أنهم محبوبون من الأهالي كما حصل
لعثمان (باشا) وإلى الحجاز .. إلخ .

ثم أخذ الكاتب يسوق الأمثلة الكثيرة على نفاق دوى المناصب، وتنافسهم
في الرذائل ، وتهالكهم على الرشى كل ذلك والشعب منطو على نفسه، مغلوب
على أمره ، ومن ورائه (قلم المطبوعات) الذي يحو من الجرائد د لفظه .
حرقة . ملة أمة . خطبة . سيف . قوة . سلاح . جمهورية . مجلس نواب .
مجلس ملة . مجلس أمة . ولي عهد . جمعية . تجمع . اجتماع ، وما يشق منه .
وتأتى بعد ذلك المقالة (الثانية عشرة) وعنوانها : الدعاوى فى الآستانة
وانظر كيف بدأ الكاتب هذه المقالة بقوله : وقدم على الوليد رجل من عبس ،
ضرب محطوم الوجه ، فسأله عن سبب ذلك فقال : بت ليلة فى بطن واد ،
ولا أعلم فى الأرض عبسياً يزيد ماله على مالى ، فطرقنا سيل ، فذهب بما
كان لى من أهل . ومال وولد . إلا صيباً وبعيراً . فند البعير والصبي معى ،
فوضعتهم واتبعت البعير ، فما جاوزت ابني قلبلا إلا ورأس الذئب فى بطنه يفترسه
فتركتهم واتبعت البعير . فرمى رحمة حطم بها وجهى . وأذهب عيني .
فأصبحت لا ذا مال . ولا ولد ولا ذا بصر . فقال الوليد بن عبد الملك
أدخلوا بها إلى عروة بن الزبير وكان قد أصابه بلاء متتابع — ليعلم أن
فى الناس من هو أعظم بلاء منه . وصاحب دعوى فى الآستانة أعظم والله
بلاء . وأكبر مصيبة منهما ؟

ولقد كان يجب على الآباء والأمهات أن يدخلوا فى جمل الدعاء لأبنائهم
ألا يحكم الله عليهم بدعوى فى الآستانة ، فإن الدعوى فيها قاصمة الظهر ،
لا بقاء للحكم . وإهمال البصل فيها ، أو لمصيبة الحفظ لأوراقها . وربما ورث
الابن دعوى أبيه وجده ، إلخ ثم اتبع الكاتب ذلك بإيراد الشواهد العديدة
على صدق دعواه .

وأخيراً يصل المولى فى كتابه « ما هنالك » إلى (المقالة الثالثة عشرة)

وهي الأخيرة في هذا الكتاب . بل هي المقصودة بالكتاب كله من أوله إلى آخره ، والحديث فيها عن « المشايخ » وهنا تبلغ السخرية نهايتها . ويصل أتهمكم إلى منتهاه . ويخيل إلى القارئ أن الكاتب الفرنسي (فولتير) لم يبلغ في سخريته برجال الدين في فرنسا بعض ما بلغه المويلحي من ذلك في تركيا على أن ازدراء هذا الكاتب القدير لينصب أنصباً على السلطان عبد الحميد ، وهو ذلك المخلوق العجيب الذي قضى العمر كله في الوسواس والهواجس ، وأضاع من حياة الدولة العثمانية ثلاثين سنة كاملة في الجري وراء ذلك الدعى الزرى ، بل ذلك الدجال المحتال ونغى به (أبا الهدى الصيادى) وأشباهه من أهل الدجل والدخل . وهم — فيما ذكر المويلحي — أربعة :

السيد أبو الهدى الحلبي ، والسيد أحمد أسعد المدني ، والسيد فضل (باشا) المبكي ، والشيخ محمد ظافر المغربي . وما وضع عربي مهما كان حسبه ونسبه منذ تأسست السلطنة العثمانية حيث تظأ الآن أقدامهم .

وظفق الكاتب بعد ذلك يوضح الأسباب التي من أجلها قرب السلطان إليه أولئك الأربعة . « دفن الناس من يقول : إن هذا القرب وهذه الزلفى ميل جلالة السلطان إلى استطلاع المغيبات منهم ، لأن لهم مزايعم واسعة ، ودعاوى عريضة في هذا الباب . ومنهم من يقول : إن سبب قربهم لهذا الخدم من مقام الخلافة هو ما رتبوه في فكر جلالة السلطان . بمقدمات قدموها من أن سكون الأمة العربية وحركتها في أيديهم فإذا شاء واقامت وإن شاء وسكنت . ومن قدماء الأتراك جماعة يقولون إن الدولة لما ذهب من مما لكها ما ذهب في الحرب الروسية . وصارت الأمة العربية أعظم قسم تحكم عليه من أجناس رعيتهما جنحت إلى تحديد اسم الخلافة . فاختارت أولئك المشايخ رؤساء وسادات . . الخ » .

ثم مضى الكاتب يعرض هؤلاء المشايخ الأربعة للقارئ واحداً واحداً ، ثم ذكر ما يقول بعضهم في بعض . وما يقول خصومهم عليهم . وما يقول

أحباؤهم لهم ، وما ينسبونه إلى أنفسهم وآبائهم وأجدادهم من الكرامات
وخوارق العادات .

وبدا (بالشيخ أبي المهدى) — وقد ذكرنا نحن من قبل رأى السيدة
الألمانية التى قالت أنه كان متسوفاً فى حلب — فقال أنه وفد على الآستانة
فى آخر حكم السلطان عبد العزيز فى زى أهل الطريق . وكان حسن الصوت ،
فصيح اللسان ، صنيح الوجه ، ذكى القلب . ثم رجع الشيخ إلى حلب فقيماً
للأشراف بها . ثم عاد إلى الآستانة بعد جلوس السلطان عبد الحميد على
عرش السلطنة بشهرين فقط .

• فى ذلك الوقت رأى جلالة السلطان رؤيا فقصها على أحد الباشوات .
وكان من أصحاب الشيخ . فقال لجلالة السلطان : إني أعرف شيخاً واسع
المنفعة ، له جانب مع الله ، ولو أمر جلالة مولانا أن نقص عليه الرؤيا
لوجدنا عنده تفسيراً لها مطابقاً للواقع . فأمر جلالة السلطان بإحضاره ،
ولما قص عليه الرؤيا فسرّها تفسيراً أعجب به جلالة السلطان ، فأحسن
إليه . وبعد ذلك بأيام صعد الشيخ إلى المايين وقال : قد رأيت النبى صلى الله
عليه وسلم ليلة أمس فى الرؤيا فأمرنى أن أبلغ عنه جلالة الخليفة كلاماً ، وأمرنى
أن يكون ذلك منى إليه من غير واسطة . فاهتزت السراى السلطانية لهذا
الخبر ، واستعظموا الأمر ، واستشعروا بالفتح . وكانت الدولة تستعد
لقبول إعلان الحرب الروسية ، وزاد جلالة السلطان فى عيونهم قدراً
للاتصال بالحضرة النبوية ، ووجد جلالته فى ذلك الوقت المفعم بالمشاكل
والاضطرابات بهذا الخبر مفرجاً لكربه ، وحافظاً لنفسه . ففرح وأمر
الشيخ أبا الهدى أن يبلغه بالواسطة ما أمر به النبى صلى الله عليه وسلم ،
فامتنع وقال : إنما أمرت أن أبلغه ذلك مشافهة ، ولا يكون أحد بيننا .
فقال له : إن جلالة مولانا السلطان لا يعرف اللغة العربية ، وأنت لا تعرف
التركية ، فكيف يمكن أن تخاطبه بلا واسطة ؟ فأصر على ذلك ، وذهب

من السراى ، وقد اشتدت الرغبة فى معرفة ما قاله (صلى الله عليه وسلم) وفى الغد أرسلوا بطلبه ، ولما حضر قالوا : إن جلة ملاولانا السلطان أمر أن يكون المترجم (بهرام أنا) فأبى وقال لا أفعل إلا ما أمرنى به النبى صلى الله عليه وسلم وتركهم ، فجاروا فى الأمر كثيراً ، وبعد يومين صعد الشيخ ووجهه مشرق بالبشر وقال : قد جئت لأبلغ جلالة مولانا السلطان بنفسى من غير واسطة ، فإنا الآن أتكلم باللغة التركية وشرع يكلمهم بها بلسان فصيح . فسألوه : كيف ذلك ؟ فقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم جاءنى فى الرؤيا وتفل فى فمى ، فتكلمت باللغة التركية كما ترون ، وقد انحل المشكل . فلما سمع جلالة السلطان بهذا أمر أن يبحثوا إن كان الشيخ يعرف التركية من قبل ، فجاءوا بشهود . منهم حافظ (باشا) - من نظارة الضبطية - وغيره يشهدون أن الشيخ لم يكن يعرف كلمة تركية قبل ذلك اليوم . فدخل على جلالة السلطان ، وأبلغه الرسالة النبوية ، ولا يعلم أحد ما هى ؟ ومن ذلك الوقت نال حظوة لدى جلالة مولانا السلطان لم ينلها أحد من قبله .

أما (الشيخ أحمد أسعد المذنب) فهو تركى الأصل ، قد هاجر أحد أجداده إلى المدينة المنورة واستوطن بها ، وكان من الذين يطوفون على الأمراء فى البلاد للنيابة عن له حصة منهم للفراسة النبوية . فيقوم مقامه فى خدمة الروضة الشريفة ، فوفد السيد أحمد أسعد إلى الآستانة مراراً . وكان له منزلة لدى جلالة السلطان عبد العزيز من أجل ذلك . ولما تولى السلطان عبد الحميد نال السيد أسعد لديه حظوة الخادم الصادق ، وهو من الذين يدخلون على جلالة السلطان بلا استئذان . ولذا قيل « فى السراى سيد افتدى ، فإياه يغنون » .

« وقد طعن أعداؤه فى ابتسابه إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فاحتار فى أمره ، ولم يقو على معارضتهم ، فتداركه السيد أبو الهدى وأخذ يده . فأخرجه من تلك الوهدة بأن وهب له نسبة رفاعية ، وجعله عمه فى النسب

فاحت. هذه المهمة الصيادية ما كان بينهما من المودة القديمة ، وعرف السيد أسعد لابن أخيه هذه المأثرة التي حفظ بها شرفه بين رجال المايين ، لدى جلالة السلطان ، فاتفقا واتحدا وشدا من قاعدة التفريق في السراى وهما في الحرب القائمة بين المشايخ صف يقابل صف السيد فاضل (باشا) والشيخ ظافر .

« وهو الذى أرسله جلالة السلطان إلى سفير انكلترا في مأمورية سياسية. ولما قابل السفير خاف على نفسه أن يدخل في أمر لا يستطيع أن يخطو فيه خطوة ، فأخذ يسعل سعالا مسترسلا للتخلص ، حتى أشفق عليه السفير ، ورده باللطف والاحتفاء والتأسف على ما قد جاءه من المرض ! » .

وأما (الشيخ فضل باشا المسكى) فهو شهاب النسب بالعلوى ، وقد اختاره أهل ظفار أميراً عليهم فتولى أمرهم ، ولما أراد أن يعاملهم بالاستبداد قاموا عليه ، وأعانهم الإنجليز على إخراجه من ظفار ، فجاء إلى الآستانة يستصرخ الدولة لإعطائه قوة حرية يدخل بها ظفار . وكان قدومه في زمن السلطان عبد العزيز ، فلم تصغ الدولة إلى طلبه ... ولما جلس السلطان عبد الحميد على التخت العثمانى أحسن عليه برتبة الوزارة ، فأحضر أولاده من مكة واستقر في الآستانة ... وكان المشايخ يقبلون يده لشيخوخته وشهرة نسبه وحسبه ... وهو عاى ولكنه من المؤلفين ! وله كتب عديدة منسوبة إليه ، وهى مشحونة بكرامات أبيه وأجداده ... وهو يبشر جلالة السلطان بسلطنته الهند ، وبإسلام أهل أمريكا ! وإذا وردت عليه رسائل من بعض أصحابه في الهند ، بنى عليها تحقيق الأمل فيما بشر به ، وعرضها على جلالة السلطان . فاذا سمع السيد أبو الهدى أنه قدم له مكتوباً جاء له من الهند أبطل مفعوله . » .

وأما (الشيخ محمد ظافر المدنى المغربى) فهو من جهة طرابلس الغرب ، وقد سكن المدينة المنورة ، فانتسب إليها . وله طريقة انتزعها من الطريقة .

الشاذلية ، وهو يدعو إليها .. وهو رجل متواضع لين الأخلاق ، معترف بعأميته ، متظاهر بالخنول . وسبب اتصاله بجلالة السلطان أن أخاه الشيخ حمزة كان في الأستانة ، وكان يتردد على بعض الحشم في سراى جلالة السلطان في زمن المرحوم السلطان عبد العزيز ، فدار حديثهم مع الشيخ حمزة على الذين لهم علم بظهر الغيب ، ومعرفة باكتشاف المستقبل ، فقال : إن أخى الشيخ محمد ظافر له اليد الطولى والقدم الراسخة في هذه الأشياء . ولما اتصل الخبر بجلالة السلطان أمره أن يدعو أخاه من المدينة إلى الأستانة . فحضر إليها وبشر بجلالة السلطان أنه يجلس على تخت السلطنة في سنة ثلاث وتسعين هجرية . ولم يكن جلالته يصدق هذا الخبر لقرب الميعاد ووجود السلطان مراد قبله في نظام السلطنة . ولما صدق قوله ، وجلس جلالة السلطان على التخت العثماني في تلك السنة عظم قدر الشيخ لهذا الاتفاق العجيب .

« ولما رأى الشيخ ظافر أن الاعتقاد فيه قد رسخ في السراى توسع في الأمر . فمن ذلك أنه كان جالسا في الحضرة السلطانية مع السيد أسعد والسيد أبي الهدى ، وفي أثناء الحديث قام من فوره وقال بهيئة الخشوع والخضوع على الخالي وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ! » .

فسأله جلالة السلطان بعد أن قام وقام السيدان لهذه التحية العجيبة . فقال : إن الخضر عليه السلام قدم وسلم علينا ، فرددت عليه السلام . ولما خرج وبخه صاحباه ، وتوعده إن عاد إلى مثل ذلك . فقال لهما : اعذراني فقد أخذني الحال ... وقد أدخل جلالة السلطان في طريقته وأعطاه عهداً ..

ثم أورد السكاك بعد ذلك مطاعن هؤلاء المشايخ بعضهم في بعض : وعند ذكره للسيد أبي الهدى الصيادى وما قيل فيه من مطاعن بدأ ذلك بقوله :

« وكان أحد حكام فرنسا يقول في كل دعوى تعرض عليه « اجتثوا عن المرأة » فكانوا إذا بحثوا وجدوا أصل الدعوى امرأة كما قال . كذلك يقول أعداء السيد أبي الهدى في كل ضلح بالدولة العثمانية ؛ أو لحق بأحد رعاياها « اجتثوا عن الشيخ » .

فإذا بحث الباحثون ، ونقب الناقبون وجدوا أن خدم كل مصيبة ، وسنخ كل بلية ، وأساس كل فادحة هو من الشيخ المشار إليه . حتى قال بعضهم : إنه للسلطان كالشيطان للرحمن .

« ويقولون إنه دخل على جلالة السلطان بتفسير الرؤيا والتنجيم ، ولما فرغت كنايته من السهام التي أصمى بها قلب الدين ، خرج إلى الساحة الواسعة — ساحة الدسائس والفتن — فإذا كان يقدم لجلالة السلطان مائة تقرير في اليوم ، فأكثرها بإيجائه وإغرائه ، وقد لعب كل الأدوار في تعظيم نفسه أمام السلطان ، فقال إن تلاميذه بلغوا عشرة ملايين من الرفاعية ، وقال إن بلاد العرب في قبضته ، وإن الأولياء في خدمته . وإن النبي صلى الله عليه وسلم في معوته . وإن الله سبحانه في نصرته ، وإن الأقدار في طاعته . »

ويطول بنا القول لو أردنا أن نسرّد مع الكتّاب مطاعن الناس في أبي الهدى . فلنكتف بهذا القدر ، وفي استطاعة القارئ أن يعود إلى الكتاب نفسه ويشفي به غلته .

* * *

لقد تكاثفت للقارئ تلخيص كتاب كامل من كتب الميرلجي ، هو عبارة عن هذه المقالات الثلاث عشرة ؛ لا شيء إلا لأنها قطعة كاملة من أدب الميرلجي وصحافته من جهة ، ولأنها كتبت كلها في موضوع واحد فقط ، هو نقد الحياة الواقعة في الآستانة من جهة ثانية ، فإذا أضيف إلى ذلك أن الكتاب نفسه نادر الوجود في هذه الآونة ، عرفت الأسباب التي من أجلها نجشمتنا مشقة التلخيص السريع لهذا الكتاب العجيب ، بل هذه الميزة المضحكة ، والمأساة المبكية التي مثلها التاريخ على مسرح (يلند) في فترة من الزمن .

* * *

إذا كانت المقالة الصحفية أنواعا ثلاثة : منها العرضي وفيها يعرض

(م ١٠ — أدب المقالة الصحفية ج ٢)

الكاتب فكرة له على جمهور القراء ، ومنها النقدي وفيها ينقد الكاتب فكرة أو موضوعا ما ، ومنها النزالي وفيها ينازل الكاتب الصحفي خصما له في الرأي فأى نوع من هذه الثلاثة يمكن أن نعتبر مقالات (ما هنالك ؟) . لا شك أنها من النوع الثاني ، وإن جنح فيها الكاتب إلى التجريح والإيذاء قصد الإصلاح . فأين ذلك كله من تلك الفصول التي كان يكتبها رجل كأديب إسحق أو محمد عبده أو عبد الله النديم وفيها يدعو كل واحد منهم إلى الإصلاح ، ويوجه الدعوة إلى السلطان ورجال الدولة انعلية — ولكن في رفق كبير وحذر شديد وأدب جم في أكثر الأحيان — وذلك بالطبع فيما خلا المقالات القليلة التي كتبها — أديب إسحق في شتم رياض — ولما نحيل القارئ إلى الفصل الذي كتبه هذا الكاتب بعنوان : الإصلاح^(١) ، ثم يجد حديثا من هذا الضرب ، وإلى الفصول التي كتبها محمد عبده في العروة الوثقى ، ففيها مقالات نقدية من نوع آخر وهكذا .

الحق أن شخصية السلطان عبد الحميد ، أو شخصية آخر طاغية من أكبر الطغاة الشرقيين لم تكن من الشخصيات التي جذبت اهتمام الكثيرين من الأدباء والمؤرخين ، فؤرخ يصف حال الدولة التركية الشلاء التي كان يتربع على عرشها هذا السلطان الكبير ، وآخر يصف الأحوال السياسية التي كانت تحيط به — وأديب يلد له أن يصف لنا القصور التي عاش فيها ذلك الحاكم المستبد . وآخر يجب أن يكشف لنا عن نفسية ذلك الجبار الذي قل أن يوجد له ولا بانه نظراء في التاريخ .

وقد تولت هذا الجانب النفسى من حياة عبد الحميد ؛ باحثة ألمانية ؛ هي الدكتورة د ألما وتلن ، في كتاب لها ترجم إلى اللغة العربية بعنوان (عبد الحميد ظل الله على الأرض) وهو كتاب تعرضت فيه الباحثة النفسية

عبد الحميد فوصفتها وصفاً دقيقاً ، وكشفت لنا عما اشتملت عليه هذه النفس العميقة المضطربة من ظلمات ، وعما كان يجري في أعماقها من تيارات ، وعما كانت تدور فيها من حروب طاحنة ودامية !

والفضل لهذا الكتاب أولاً في أنه أمدنا بمفتاح لشخصية عبد الحميد نفتح به كل ما استغلقت من جوانبها . وفيه - أى في هذا الكتاب - أن الخوف والذكام يختلطان اختلاطاً قوياً في ذهن هذا الرجل . والحق أن كل ما صدر من عبد الحميد كان يدل دلالة صريحة على حدة ذكائه من جهة وعلى شدة خوفه في نفس الوقت من جهة أخرى . ولكن ما مصدر هذا الخوف الذي إعتري السلطان ؟

هنا تأخذ هذه السيرة في شرح طائفة من العقد النفسية المظلمة التي تبكونت لعبد الحميد ، وسيت له كل هذا الهلع الذي أصيب في حياته كلها ، ولا تعدو هذه العقد النفسية أربعاً (١) :

أولاًها : طفولة قاسية كان يعاينها عبد الحميد مع أمه التي حملت به ،
والثانية : سقوط ثلاثة من سلاطين آل عثمان على مرأى منه ومسمع ،
والثالثة : توليه العرش على شكل معتصب له من أخيه السلطان مراد ،
والرابعة : ورقة تحايل مدحت (باشا) حتى كتب عبد الحميد ترويعه عليها ،
وفيها أن عبد الحميد يتعهد بترك العرش في اللحظة التي يتم فيها شفاء أخيه مراد الذي أقصى عن الملك بسبب لوبة عصبية شديدة ، زلزلت عقله وأتلقت صحته .

فأما الطفولة القاسية فقد أثبت من أن عبد الحميد ولد في الثاني والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٨٤٢ من أم شركسية ولم يشأ أبوه السلطان عبد المجيد

(١) إننا لنعلم هذه الأحداث التي حرت بالسلطان عقدا نفسية من باب التجوز في القول ، ونحن نعلم أن هذه الحوادث لمبب عقدا نفسية متى انحدرت إل منطقة اللاشعور ولعبها صاحبها ولكن عبد الحميد لم يفل هذه الأحداث التي أثرت على حياته تأثير العقد النفسية .

أن يعترف به إلا في اليوم الثامن من ولادته ، وفي طول هذه المدة بقي والده يجهد ذاكرته في تذكر الأم التي حملت به من بين عدد كبير من الجواري يربو في القصر على ثلاثمائة . وفي أثناء هذه المدة أيضاً كثرت الشائعات بين الحريم حول السيدة حاجي أم عبد الحميد أنها حملت به لامن السلطان ولكن من أب أرمي . وهكذا أحيط ميلاد هذا الطفل بالشكوك التي أقضت مضجع أمه وحرمتها الراحة وزادت عن أجفانها النوم . غير أن هذه الأم المسكينة صبرت على الإيذاء حتى نما الغلام وكبر ، فألقت إليه بسرهما ، وغذته بلبان البغض لأتراها من الحريم ، والحقده على والده الذي تملكأ في الاعتراف به ، ولم يشأ أن يبدى لوالدته بعد ذلك أى نوع من العطف . (وهكذا بينما كان الأطفال الآخرون في القصر يتعلون حروف الهجاء كان عبد الحميد الطفل يتعلم حيك الدسائس والرياء والمباهنة — سلاح أولئك الذين قضت عليهم الطبيعة والظروف بأن يكونوا ضعفاء) (١) . وماتت هذه الأم في السادسة والعشرين من عمرها ، وكان عبد الحميد في السابعة من عمره ، فبقي أميناً لذكري والدته ، ولم ينس قط أنه لم يتجسس في التوفيق بين أبويه (فالقلب يأسه المرير إلى بغض لكل ما يحيط به) . وأسدل هذا اليأس على حياته ظلاماً كثيفاً من الوحدة . وبقي عبد الحميد في عزلة هذه إلى أن أخرجته منها والدته عمه عبد العزيز ، واسمها الأميرة بورققال Portevale . وقد شاركها عبد الحميد يومئذ هوايتين عجيبتين : هما هواية الفلك من ناحية ، وهواية السحر الأسود من ناحية ثانية ، وأصبحا منذ ذلك الحين يشتركان تارة في النظر إلى النجوم ، وأخرى في صنع الدمي التي تمثل شخصيات مكروهة لديهم ، فحيناً يعبثان بها ، وحيناً ينفذان فيها حكم الإعدام وهكذا .

(١) الزجة العربية لكتاب (عبد الحميد ظل الله على الأرض) . وقد قام بهذه الترجمة الأستاذ د. رامي رشدي ، وطبع في سبتمبر سنة ١٩٥٠ — اقلتر ص ١٧

وأما العقدة النفسية الثانية ، فقد كانت أشد في نفس الفتى تأثيراً وأكثر تعمقاً . وكان منشؤها سقوط ثلاثة من سلاطين آل عثمان أمامه ، وهو يسمع ويرى . أولهم عبد المجيد والده ، والثاني عبد العزيز عمه وابن صديقته ، والثالث مراد أخوه . ولقد كان عبد المجيد يبادل هؤلاء الثلاثة بغضاً يبغض وحقداً يحقد . وكان يتمنى لهم جميعاً هذا المصير الذي صاروا إليه . ولكن كان سقوط كل واحد منهم في الوقت نفسه يزرع في قلبه الخوف والهلح ، وينمى فيه الشك والريب ، ويغرس فيه قلقاً يزداد مع الأيام ، إلى أن بلغ أقصاه يوم توليه العرش بعد أولئك الثلاثة الذين ذاقوا ألم الدل بعد العز ، ووخز الحرمان بعد السلطان . ولا يتسع المجال هنا لوصف المسرح الذي مثلت عليه هذه المأساة الثلاث ، وهي مأساة السلطان عبد المجيد حين عزله الجند وشيخ الإسلام ، ومأساة السلطان عبد العزيز الذي مات بعد عزله بثلاثة أيام ، ثم مأساة مراد الذي أصابته نوبة عصبية شديدة عندما سمع بموت عمه على هذا النحو .

وإذ ذاك أي في الوقت الذي كان يطلب فيه العرش أميراً يجلس عليه ذهب مدحت (باشا) إلى عبد الحميد ليعرض عليه السلطنة ، فأبى أول الأمر (لأنه تعلم من طفولته الصبر والاحتمال وانتظار الفرص المواتية) وآوى إلى منزله في انتظار هذه الفرص ، وهناك اشتغل بالفلك ، كما اشتغل بالسحر الأسود الذي أغرم به منذ طفولته .

وبعد أشهر قليلة من هذا الصمت قبل أن يكون عبد الحميد سلطاناً على تركيا ، وخرج إلى جامع بايزيد لتقام له مراسم السلطنة . وهناك في غمرة هذا الهدوء الشامل الذي خيم على الجامع ، وفي غمرة هذا السرور العميق الذي نلأ قلب الأمير الشاب تسلسل إليه مدحت (باشا) وحمله على التوقيع على هذه الورقة التي سببت له آخر العقد النفسية وأخطرها على حياته ، لأنها أشعرتة بأنه مهدد في كل وقت بشفاء مراد من المرض ورجوعه إلى عرش السلطنة .

ولكن عبد الحميد ليس بالرجل الغبي ؛ فقد قلنا إن الذكاء والخوف
يختلطان في نفسه اختلاطاً عجيباً ، وعنهما كان يصدر في كل عمل من أعماله
دائماً . فقد جلس عبد الحميد على العرش ، ولم يكسد يمضى عليه أربعة أشهر
كاملة حتى انعقد في عاصمة ملكه مؤتمر من ساسة أوروبا ، وزعموا أنهم إنما
اجتمعوا في الآستانة للنظر في إصلاح تركيا . ولكن هؤلاء المجتمعين
سرعان ما انصرفوا من اجتماعهم هذا عندما سمعوا دوى المدافع التي أطلقت
يومئذ لإعلاناً للدستور الذي منحه السلطان عبد الحميد لتركيا . فانظر إلى
هذا السلطان الذكي كيف أصاب بهذا الدستور الذي منحه للشعب التركي
هدفين . وضرب بهذا الحجر عضفوريين .

أما الأول فانصرف هؤلاء الساسة في كثير من الخجل وكثير من الثقة
بدهاء هذا الرجل .

وأما الثاني قيادة وضعها السلطان في الدستور الذي منحه يومئذ ، هي
المادة الثالثة عشرة بعد المائة . وفيها أن للسلطان الحق في أن ينفي من أراد
نفيه من رعيته بمن يرى أنه خطر على النظام القائم . وقد انتفع عبد الحميد
يومئذ بهذه المادة في نفي مدحت (باشا) ورشدي (باشا) وغيرهما ممن زعم للشعب
أنهم من دعاة النظام الجمهوري .

وكان خليقاً بعبد الحميد بعد ذلك أن يهدأ باله ، ويطمئن قلبه ، ويركن
إلى الراحة والسكون ، ولكنه لم يفعل . فقد بلغ من شدة اهتمامه بشئون
الدولة أنه كان معرضاً لأن يصاب بهزة عصبية فيما لو قيل له يوماً ما إنه
ليس من جديد ، أو أنه لا توجد وثيقة ذات قيمة في انتظاره على المائدة (١)
ولا يهولن القارئ قولنا (شئون الدولة) فليست هذه الشئون في
حقيقة الأمر غير هواجس عبد الحميد ، وشدة ذعره ، وخوفه على نفسه
إلى درجة بالغة . وقد بلغ من أمر عبد الحميد في هذه الناحية أنه كان يرتب

(١) المصدر السابق ص ٧٩ ذ

له غرفة كبيرة في القصر ، يضع فيها صناديق من الحديد ، ويجعل لكل صندوق عيوناً يضع فيها التقارير السرية التي يمد بها الجواسيس من حين لآخر . وقد وكل بأمر هذه الصناديق موظفاً واحداً جعله موضع سره وأهلاً لثقتة ، وكان يقضى معه ظلمة الليل وسحابة النهار في قراءة هذه التقارير وترتيبها على أدق وجه .

وذلك هو الجانب الذي استرعى نظر إبراهيم المويلحي حين سافر إلى الآستانة بدعوة من السلطان فذهب إليها ، ووقع نظره على هذه الأمور التي جعلها موضوعاً لمقالات جمعت فيما بعد في كتاب له سماه « ما هنالك » .

على أن الآستانة ورجال الآستانة كانوا يعرفون كيف يخرجون قلب كل قادم إليها وإليهم ، ويشيرون كوا من البغض في نفس كل زائر لها ولهم . وهذا هو عبد الله النديم وقد سافر إلى هذه المدينة بأمر السلطان ، سرعان ما اصطدم فيها بداهية الآستانة إذ ذاك ؛ أبي الهدى الصيادي الذي مر ذكره ؛ وبلغ من غيظ النديم وضيقة بهذا الداهية أن ألف فيه كتاباً عنوانه (المسامير) بناه على سبب هذا الرجل وهجوه والسخرية منه بأقذع الالفاظ . ثم حين نشر السيد علي يوسف هذا الكتاب على صفحات جريدة (المؤيد) تعرض لأذى الحكام على النحو الذي ربما أشرنا إليه في الجزء الخاص بصاحب المؤيد .

* * *

الآن وقد فرغنا من عرض جهود المويلحي في ميدان الأدب والصحافة يمحمل بنا أن نعود إلى أسلوبه الكتابي ، لتلخيص ما نعرفه من خصائص هذا الأسلوب ، ولنعرف المسكاة التي يحتلها إبراهيم المويلحي في أدبنا المضرى الحديث .

الفصل السادس

الخصائص الفنية لأسلوب إبراهيم المويلحي

مهما ذهبت تقرأ لهذا الأديب في جريدته (مصباح الشرق) فلن تقول عنه إنه كان موهوباً في السياسة ، ولكنه موهوب في الأدب ، مع أنه كان على اتصال دائم بكثير من رجالات الحكم في عصره . غير أن نفسه — فيما يظهر — كانت تعاف السياسة ، ولا يجب الانغماس فيها ، فلقد عاش الرجل في عهد سعيد وإسماعيل وتوفيق وعباس الثاني ، ولكنه لم يألف ولم يصطف ولم يخدم غير رجل واحد من أفراد الأسرة المالكة ، هو إسماعيل . على أنه لم يمكث في خدمته طويلاً بل كان يطوف البلاد ، وقد وصل في رحلته إلى الآستانة ، وكان له مع السلطان شأن وصفناه من قبل .

والعجب من أمر هذا الأديب الممتاز كيف يرى بعينه مصر في عهد الاستقلال ثم مصر في عهد الاحتلال ، وكيف يخلط نفسه بالملوك والأمراء المصريين العظام ، ويصل إلى باب السلطان ، ثم لا يكون لذلك صدى في نفسه غير ما رأيناه من وصف الحياة السياسية المعقدة في تصور آل عثمان ؟

العجب من هذا الأديب الممتاز كيف لا يكون للاحتلال البريطاني تأثير في أعماق قلبه إلا في هذه القصة التي كان ينوي كتابتها ، ثم حالت الظروف دون إتمامها إذ ذاك ، ونعني بها قصة (موسى بن عصام) ، وذلك فضلاً عن طائفة من المقالات القليلة في مخاصمة الاحتلال هنا وهناك .

العجب من كاتبنا هذا كيف لا تترك الثورة العربية ظلاً (١) في نفسه غير طائفة بسيطة من الرسائل القصيرة عني عليها النسيان ؟

وأعجب من كل ما مضى في رأينا تلك الأشعار التي نظمها هذا الأديب الكبير في مدح فنكوريا ملكة الإنجليز ، وتهنئتها بيوبيلها في شهر يونيو

(١) حدثني عن موضوع هذه الرسالة حفيذة إبراهيم (أفندي) المويلحي ، ولكنها لم أشر إليها حتى الآن .

سنة ١٨٩٧ ، حيث قال هذه القصيدة الكبيرة التي أفردت لها جريدة الأهرام صفحة خاصة . والقصيدة لطيفة النسخ ، متخيرة اللفظ ، جليلة المعنى ، عذبة الموسيقى ، ولا غبار عليها من جميع هذه النواحي .

أجل كان إبراهيم المويلحي رجلاً موهوباً في الأدب ، ما في ذلك موضع لشك أو لجدل . كانت اللغة التي يكتب بها هذا الرجل هي العربية . والعربية لغة القرآن ، وليست لغة تجارية ، محدودة الغنى في الأساليب والألفاظ . بل إنه إذا جاز أن توصف لغة ما بهذه الصفات فلا يجوز أن توصف بها اللغة العربية بالذات . ذلك أن العربية لا تصلح إلا لأن تكون لغة الأدب في أروع صورته وأعلى مراتبه . وربما أنه من أجل ذلك وجدنا المويلحي من كبار المدافعين عن العربية ضد العامية .

ثم إن إبراهيم المويلحي في رأينا من كبار المجدين المعتدلين ، وفي رأي المستشرقين من كبار المحافظين . والذي لا شك فيه أنه كان من أئمة هؤلاء حرصاً على اللغة والتقاليد والدين . وقد رأينا فيما مضى كيف كان الرجل شديد الغيرة والتعصب للشرق ضد الغرب ، وللإسلام ضد بقية الأديان ، ولمصر وحدها ضد غيرها من بلاد العالم — لا يعرف في هذا التعصب هواة ولا ليناً ، ولا يقبل في هذه الأمور مخالفة ولا مجادلة . وليس معنى ذلك أن المويلحي كان يدعو إلى الوطنية الضيقة بالمعنى الذي نفهمه نحن في أيامنا الحاضرة ؛ بل كان المويلحي يدعو إلى الوطنية الواسعة التي تشمل جميع المسلمين ، وتدين بالخلافة للعثمانيين . أما ما زعمناه من تعصب المويلحي لمصر فهو ضرب من ضروب الحب والإيثار لهذا البلد الذي لمس فيه عيوباً كثيرة تستحق الإصلاح .

والرجل وإن كان كثير الأسفار إلى البلاد الأوروبية ، كثير الاختلاط بشقي الأوساط في مصر وغيرها من الأقطار التي سافر إليها . كان لا يزداد بهذه الأسفار وذلك الاختلاط إلا إيماناً بتلك الأشياء الأربعة وهي : الإسلام ، والشرق ، واللغة العربية ، ومصر .

نعم — كان المويلحي من المحافظين في الأدب ، وإن كان من المجددين المعتدلين في الاجتماع ، وإليه انتهت رئاسة الكتابة الأدبية في من مصر . ولا أقول الكتابة الصحفية . لأن للصحافة المصرية يومئذ زعيماً غير هذا الرجل . وسترى في الجزء التالي من كتابنا (أدب المقالة الصحفية في مصر) أن زعيم الصحافة المصرية في ذلك الوقت هو السيد علي يوسف . والفرق بين الرجلين كبير من نواح شتى سيتعرض لها البحث بمشيئة الله . وبخسبنا هنا أن نعرف أن المويلحي كان صاحب جريدة أسبوعية ، على حين كان السيد علي يوسف صاحب جريدة يومية . ولا شك أن الأولى أدنى إلى (المجلة) بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، وأما الثانية فصحيفة تطالع القارئ مرة في كل يوم ، ولا بد لصاحبها ومحررها في أكثر الأيام من كتابة المقال الافتتاحي الذي يستغرق منه وقتاً أقل بكثير من الوقت الذي ينفقه كاتب المقال في إحدى المجلات . والحق أن المويلحي لو أراد أن يكون كاتب صحيفة يومية لما استطاع ، وإن الشيخ علي يوسف لو قصر نفسه وقلبه على مجلة أسبوعية أو شهرية لما استطاع ، وأن كلا منهما كان لونا من ألوان الصحافة والأدب غير صاحبه .

وقد عرفنا أن المويلحي إنما تثقف بثقافة عربية شرقية خالصة ، قوامها القرآن ، والحديث ، والشعر ، والتاريخ ، والقصص ، والنحو ، واللغة ، والبلاغة ، والعروض ، والأدب . ولا نستطيع أن نزعم أن ثقافته قد امتدت إلى أكثر من هذا الأفق . ومع هذا وذاك ففي هذا القدر كفاية لكاتب في مثل موهبة المويلحي . ومتى كان الإنسان موهوباً في الأدب فقد استطاع أن يحيل كل ما يعلبه إلى فن خالص لا ريب فيه . وأن يجعل من كل علم يعلبه أدباً خالصاً لا ريب فيه ، وأن يحسن الانتفاع بهذه الثقافة الشرقية التي أشرنا إلى بعض عناصرها .

على أن الشكف بثقافة واحدة ربما عاد على الكاتب بفائدة نهينا إليها الجاحظ في بعض كتبه المعروفة لنا . وخلاصة هذه الفائدة أن من عرف

لغة واحدة كان أكثر معرفة بالفاظ هذه اللغة ، وأوفر غنى بمادتها من عرف أكثر من هذه اللغة . وأما من حيث المعاني والأفكار فإن الذى يحدث هو عكس ذلك . ومعنى هذا أن اللغة الأجنبية - على حد تعبير الجاحظ - إنما تدخل الضيق على اللغة الأصلية فى ناحية الألفاظ ، وإن أورتها السعة والغنى فى ناحية الأفكار . .

فإذا صحت نظرية الجاحظ المتقدمة - وهى لاشك صحيحة ومشاهدة - كان المولى يحيى رجلاً موفور الغنى بالألفاظ ، ضخماً الثروة بالأشعار ، عظيم القدرة على الانفعال بالقرآن والحديث ، وبالثقافة الشرقية كلها فى صياغة الأسلوب الأدبى الذى عرف به .

وقد عرفنا لإبراهيم بصراً كبيراً بالحياة . أتى انغمس فيها بمصر وغيرها من البلاد الأجنبية التى سافر إليها ، كما عرفنا له بصيرة نافذة فى معرفة الرجال الذين خالطهم مخالطة قوية متصلة كان لها أكبر الأثر فى أدبه وخلقه . فإذا أضفنا الموهبة الأدبية من ناحية ، إلى الثقافة الشرقية الخالصة من ناحية ثانية ، إلى الخبرة العظيمة بالنفس البشرية من ناحية ثالثة ، إلى ما ركب فى طبيعة هذا الرجل من القدرة على التهمك والسخرية من ناحية رابعة - خرج لنا من كل ذلك أديب من أدباء الصف الأول فى مصر والشرق ، وصحفى ممتاز من صحفى ذلك العصر ، ولم يكن هذا الأديب الصحفى غير إبراهيم المولى يحيى . ونريد أن نشخص أسلوب هذا الكاتب ، ونبحث عن الخصائص الفنية لهذا الأسلوب ، فنبادر أولاً إلى القول بأننا لم نر النثر المصرى الحديث منذ بداية القرن التاسع عشر إلى عهدنا بهذا الكاتب قد أصبحت له هذه المرونة العظيمة ، والطواعية الكبيرة ، والانطلاق الواسع المدى الذى نراه لأسلوب المولى يحيى . لانكاد نستثنى من كتاب النهضة جميعاً فى كل ذلك غير كاتب واحد فقط ، هو السيد عبد الله النديم ، وإنك لتحسن عند قراءة هذين الكاتبين أنهنما لا يبذلان جهداً فى الكتابة ، وأن أحدهما لا يكاد يشعر ك

بأى نوع من أنواع الجهد في الكتابة ، فكأنهما كما يقول القدماء — يغرفان من بحر ، بينما ينحت غيرهما في صخر .

والعجيب أن نرى لأسلوب المويلحي كل هذه المرونة ، ونلص فيه كل هذه الطواعية على الرغم من مثل هذا الكاتب أحياناً إلى استخدام الزينة اللفظية ، وقصده أحياناً إلى اصطناع البديع . ومن شأن البديع والزينة أنهما يعطلان الكاتب ، ويكلفانه جهداً ومشقة في الكتابة ، وكثيراً ما يشعر القارئ بكل ذلك . ولكنك حين تقرأ للمويلحي تلمح فيه ذلك البديع ، وتشعر معه في نفس الوقت بمزية التطويع ، وتلص الزينة ، وتحس معها بمزية المرونة ، وفي ذلك أقوى دليل على الموهبة الأدبية التي منحها الله ذلك الكاتب التقدير .

ونريد بعد ذلك أن يضع القارئ يده على بعض مميزات هذا الكاتب ، أو بعض خصائص أسلوبه في الكتابة . ولعل من أهم هذه الخصائص الفنية مايلي :

أولاً : الانطلاق وطول النفس في الكتابة والاتساع في العبارة . وكثيراً ما نجد المويلحي يطيل الجملة الواحدة إطالة لا تشعر فيها بملل ولا سأم . على حين أن الجملة إذا بلغت هذا الطول عند غيره بعثت في نفس قارئها الضجر . وهنا نحيل القارئ على بعض مقالات المويلحي في كتابه « ما هنالك » وقد نقلنا من عباراته ما يكفي للدلالة على ما نقول ، ومن ذلك العبارة الطويلة التي اقتبسناها من المقالة الخامسة ، فليتمسها القارئ هناك .

ومعنى هذا أن المويلحي كان رجلاً يحب الإسهاب والإطناب . وقد امتازت كتابته بهذه الميزة التي انفرد بها عن سواه : غنى في الألفاظ ، وغنى في الأساليب . وهو في كل ذلك أشبه ما يكون برجل ورث عن أبيه ثروة ضخمة ، وكنوزاً عظيمة ، فهو ينفق منها بسخاء ، ويظهر بها أمام الناس ، يأخذ منها بغير حساب ، علماً منه بأن خزائن والده العديدة لا تسيل إلى نفاذها يوماً ما .

ثانياً : ميل المويلحي مع ذلك إلى الجزالة في الألفاظ والغالب عند

الكتاب الذين يثرون الإسهاب والإطناب أنهم يميلون إلى الألفاظ الرخوة،
والتراكيب فيها شيء من الابتذال . وقليل جداً من الكتاب من يستطيعون
الجمع بين الجزالة واتساع العبارة . وحقيقة كان المويلحي واحداً من أولئك
القليلين الذين حافظوا على جزالة اللفظ وورصانه ، وعلى قوة الجرس ونظامته .
ومعنى ذلك أن النثر المصرى تقدم كثيراً على يد هذا الكاتب الذى احتفظ
بالطابع القديم والنسج العربى المتين . ومن ثم لا نرى فى أسلوب المويلحي
هلهلة ولا إسفافاً ، ولا نرى أسلوبه يرتضح عامية شوهاء ، بل يزدان أسلوبه
بكثير من أساليب العربية فى أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة .

ولقد سقنا لك أمثلة على ذلك فى كل ما كتب المويلحي بجريدة مصباح
الشرق ومقالات « ما هنالك » فلا حاجة بنا إلى هذه الأمثلة مرة ثانية .

ثالثاً : طابع السخرية والتهكم والاستخفاف والتندر ، وهذه الأشياء التى
طبع عليها المويلحي ، وكانت جزءاً من حياته وصفة من صفاته . وقد أكثرنا
القول فى هذه الميزة ، وضربنا عليها الأمثال . فلسنا بحاجة كذلك إلى أن
نعيد فيها الكلام . وسنرى فى الفقرة التالية كيف أن السخرية عند المويلحي
أن تقوم على هذه الخاصة الرابعة من خصائص الأسلوب وهى :

رابعاً : الموازنة أو العطباق بين الألفاظ فى تارة وبين الأفكار تارة
أخرى . والحق أن للمويلحي ولعاً كبيراً بهذه الموازنات يأتى بها فى كل مقال .
ولا يكاد يخلو منها كلام منسوب إليه . وكثيراً ما يأتى بهذه الموازنات فى جملة
تبدأ بما الذى بمعنى ليس ، ويكون خبرها مجروراً بالباء ، كما فى قوله « ما سار
به الليل وحيداً فى غاية التفت أشجارها ، وتكاثفت ظلماتها ، وتجاوبت رياحها ،
وعزفت جنانها وزارت أسودها ، وترامت على أقدامه أفاعيها وأسودها ،
لا يهتدى لطريق يسلكه ، ولا يجد موتاً وحياً يهلكه — بأخرف ممن يطأ
هذه الدوائر لشرم المطلق فى الناس ، وخيرهم المقيد لأنفسهم ، بوقوفهم على
باب فيه النعم والنقم ، والعز والذل . والحرية والاستعباد . والشورى والاستبداد
والسعادة والشقاء والحياة والفناء لدى خليفة عظيم وسultan كبير . »

ومن الطبايق يبين الألفاظ قوله في فصل الغازى عثمان (باشا) إنه أسد
« بلفنا ، ونعامه » يلدز ، وقوله « قنسم صرهم بعجافة ذمهم » وقوله : والله
يعلم أن كل ساكن في الأستانة مهما بلغ به القدر لا يدرى أتدخل عليه الشمس
صباحاً من نافذة البيت أم من نافذة السجن ، وقوله في المقالة السابعة عن
الجواسيس .. وتعود صبيان القهاوى أن يقدموا للداخل المجمرة والمخبرة ،
فيحرقوا بالأولى الدخان ، ويحرقوا بالثانية أعراض الإنسان .

والحق أن السخر عند المولى حى إنما كان يعتمد اعتماداً كبيراً على هذه
الموازات التي يحدثها في أسلوبه ، ويملاها بكلامه ، ليلفت إليه أذهان القراء ،
وليبحث فيهم كل ما يستطيع أن يبعثه من الضحك والازدراء ، أو الأسف
والرثاء . وليس للسخرية — في ذاتها — غاية وراء ذلك .

خامساً : الإكثار من ضرب الأمثلة من التاريخ ، ومن الواقع الملموس
فعلى المحدث اللبق ، والقصى البارع ، والكاتب الغزير المادة الواسع الاطلاع .
وكثيراً ما تنبى هذه الأمثلة على قاعدة التبكيت الذى يتوجه به الكاتب إلى فئة
من الناس ، والتسكيت عليهم ، كما كان يفعل النديم في بعض فنونه الصحفية التي
نعرفها . وربما كان للمصريين عامة ، والقاهريين منهم خاصة ولح هذا النوع
من الحديث . وأكبر الظن أن المولى حى كان قاهرياً ممتازاً في هذه الناحية . فبن
الواقع الملموس تلك الحكاية التي أشرنا إليها من قبل ، وخلاصتها أن الشيخ
ظافراً كان جالساً في الحضرة السلطانية مع السيد أسعد والسيد أنى الهدى .
وفي أثناء الحديث قام من فوره وقال بهيئة الخشوع والخضوع : على البنالى
وغليكم السلام ورحمة الله وبركاته . فسأله جلالة السلطان بعد أن قام وقام
السيدان لهذه التحية العجيبة . فأجاب بأن الخضر عليه السلام قد مر فسلم
علينا فرددت عليه السلام . ١ .

ومن النوارد التاريخية التي من هذا القليل ما حكاه الكاتب من أن
أبا الحسين الجزار الشاعر دعاه أصحابه يوماً ليخرج معهم للزهوة خارج

المدينة ، فوقفوا في طريقهم على جزار ليشتروا لحماً ، ورجوه أن يقطعه
لأنه أدري بأطاييه ، فقطع لهم لحماً رديئاً ، فلاموه فقال لهم :
« اعذروني ولا تؤاخذوني لأنني لما وقعت وراء القرمة أدبكتني لزوم
الجزارين ، »

أما الأمثلة التاريخية فكثيرة في مقالاته التي كتبها في مصباح الشرق وفي
غيرها من الصحف في ذلك الوقت . ولسنا بحاجة إلى الرجوع إليها ، بعد
إذ أشرنا إلى الكثير منها في تضاعيف الكتاب .

سادساً : اللهجة الخطائية وكثيراً ما يمنح إليها الكاتب ، وبخاصة حين
تعود درجة انفعاله في الكتابة . وهنا يكثر من النداء ، والندبة ، والاستغاثه ،
والإشارة ، والتنويع في الضمائر ، بمعنى الانتقال فيها من ضمير الغائب إلى ضمير
المخاطب أو العكس . وكثيراً ما يعتمد الكاتب أيضاً على تنوع الأساليب
من خيرية إلى لإنشائية بقصد إحداث الحركة وإشاعة الحياة في الأسلوب ؛
وكثيراً ما يولع الكاتب أيضاً بإطالة المقومات التي يستهوى بها القارئ ويجره
إلى جانبه . بل كثيراً ما يستطرد الكاتب إلى الشرح أحياناً ، والتعليق أحياناً
أخرى ، كما يفعل الأساتذة المحاضرون . وكل هذه الخصائص المتقدمة هي
من خصائص الخطابة قبل الكتابة ، وانظر إلى قوله « أتريد أيها القارئ أن
تعلم كيف ذهبت تونس من الدولة ؟ أرادت الدولة أن تقبض على مدحت
(باشا) ... الخ وفي قوله « واغوثاه — لقد كانت ورقة من هذه الأوراق
تنشر القانون الأساسي ، وتجمع مجلس المبعوثان ... الخ . ولكن واحسرتاه
يصدر اليوم عشرات منها في النهار لتفتيش بيت زيد أو استنباط عمر والنخ . »
وإلى قوله « يا كساد العلم ، ورواج الجهل ، ويا شقاء الحق ، وسعادة الباطل ،
ويا خيبة الصادق ، ولنجج المنافق ، ويا بكاء الأمين ، وضحك الخائن . أصبحت
دار السلطنة التي كانت عريناً للأسود خلواً ياتن فيها زناير الجواسيس .
سابعاً : الزينة اللفظية . وهنا نبادر إلى القول بأن هذه الزينة اللفظية
كانت مظهرأ من مظاهر ضعف الأسلوب عند الطبقة الأولى من الصحفيين ،

من لندن رفاعة الطهطاوى إلى عبدالله أبى السعود ، إلى محمد أنسى ، إلى ميخائيل عبد السيد صاحب جريدة الوطن إلى ، وغيرهم من أصحاب الصحف المصرية الأولى . ولكن هذه الزينة اللفظية مظهر من مظاهر قوة الأسلوب عند المويلحى ، وهو الكاتب الوحيد الذى استطاع أن يحتفظ بهذه الزينة فى الكتابة الصحفية الخالصة احتفاظه بها فى الكتابة الأدبية الخالصة .

ألم نقل فى بعض فصول هذا الكتاب إن البديع ليس عيباً فى ذاته ، ولكن العيب عيب الكتاب الذين يصطنعونه فى أساليبهم من غير أن يعدوا أنفسهم له إعداداً صحيحاً من حيث العلم والثقافة ؟ ألم نقل إن الفرق بين الكتاب الذين يجيدون ممارسة البديع والكتاب الذين لا يستطيعون الإجابة فى ممارسة هذا البديع هو فرق واحد من حيث الثقافة لا أكثر ولا أقل ؟ ومعنى ذلك أن العصور الفقيرة من الثقافة لا تستطيع مطلقاً أن تخرج لنا أدباً غنياً بالبديع ، وأن العصور الغنية بهذه الثقافة التى تخرج لنا أدباً جميلاً الصادرة من حسن الرواء من حيث البديع . وذلك ما نستطيع تطبيقه على المويلحى ، فقد كان مثقفاً بثقافة شرقية لا بأس بها ، واستطاع أن ينتفع بهذه الثقافة فيما اختاره لنفسه من طريقة فى الكتابة امتازت فى بعض نواحيها بهذا البديع . ومن مظاهره — أى من مظاهر هذا البديع — فى أسلوب المويلحى أمور منها : الترادف الصوقى أو انقسام الموسيقى للألفاظ ، والسجع أحياناً ومراعاة انظير ، ثم الاستعارة ، والتشبيه ، ثم الاستشهاد بالشعر وبالقرآن والحديث ، ثم التضمين من الشعر ومن القرآن والحديث . وكل ذلك بطريقة عجيبة تشهد بمهارته فى الكتابة ، وسيطرته على فن الإنشاء . ولسنا نريد أن نضرب الأمثال الكثيرة على الترادف الصوقى أو السجع أو التشبيه أو الاستعارة أو الاستشهاد بالشعر ونحو ذلك . ولكننا نحرص هنا على ضرب الأمثلة على تضمين المويلحى للقرآن فى كلامه فكأنه جزء من هذا الكلام . مثال ذلك « وأشربوا فى قلوبهم التجسس » . ونحن نعلم أن فى الآية الكريمة قوله تعالى « وأشربوا فى قلوبهم العجل » . وقوله على لسان حكيم فى حديث موسى بن

عصام :واعلم أن الصانع الحكيم أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا. وقوله في بعض مقالات « ما هنالك » ، وما زال بهرام له النظر الأعلى في طوائع النفوس ، والحكم المبرم عليها بالسعود والنحوس ، يحكم ولا معقب لحكمه ، ويأمر ولا راد لأمره إلخ ، وقوله في وصف موكب من مواكب السلطان د ... فإذا دخل يلدز أطمأنت القلوب ، وسكنت الخواطر ، واستوت سفينة النجاة على الجودى إلخ .

أما تضمينه الشعر فنه قوله « وخرج مع البازى عليه سواد » وقوله : وأما رجل الاستاة د فله طريق إلى العلياء مختصر . والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى . ومن السهل على القارىء أن يلاحظها متى قصد إلى ذلك في أثناء قراءته شيئاً من هذا الكاتب .

تاسعاً : يجب أن نضيف إلى كل ما تقدم معرفة الكاتب الذى نترجم له معرفة تامة د بإيحاءات الألفاظ . واناقد الأدبى كالأديب يعرف أن الألفاظ نوعاً من الإيحاء يختلف في بيئة ماعنه في بيئة أخرى ، وذلك باختلاف الثقافة الشائعة في كل بيئة على حدة . والكاتب البليغ يستطيع أن يعتمد كثيراً على معرفته بوحى الألفاظ في إثارة المعانى التى يريد أن يثيرها في أذهان القراء . ذلك أن اللفظ القرآنى إيحاء ، ولللفظ المتداول في شعر رجل كالمبتنى إيحاء ، ولللفظ المتداول في شعر المعرى ، إيحاء والألفاظ التى تسمع كثيراً في شعر شوقى أو حافظ إيحاء ، والألفاظ التى تسمع كثيراً من فلان وفلان من الكتاب إيحاء ، وللألفاظ التى ترد في تضاعيف حكاية أو نادرة تاريخية إيحاء وهكذا (١) ، وليس شك في أن كل لفظ من تلك الألفاظ يوحى إلى

(١) من كلام المولى فى وصف بعض مشايخ الاستاة « ودرجله فى من الزمان غير مبال » وهو تعبير يوحى بما حكى من الإمام أبى حنيفة وكان برجله أذى يضطره إلى مدها أمام الطلبة لى أثناء الدرس ، فدخل عليه شيخ ذو هيئة ووقار فشق أبى حنيفة على نفسه وخوى برجله احتشاماً وتوقيراً لهذا الشيخ الذى أخذ بعد ذلك يلقى أسئلة بلهاء على الامام ويطلب منه الجواب . فقال الامام جواباً من أحدها : « الجواب ياموى أن يد أبو حنيفة برجله غير مبال » وبسط أبو حنيفة برجله على راحته ولم يأبه للرجل .

المثقف بالثقافة القرآنية وحدها بشكل ما ، كما يوحى إلى المثقفين بالثقافة الشعرية وحدها بشكل آخر ، وإلى المثقفين بالثقافة التاريخية الإسلامية بشكل ثالث ، وإلى المثقفين بالثقافة الأجنبية بشكل رابع وهكذا .

وعندنا أن إبراهيم الميличи كان من أولئك الكتاب القليلين الذين اعتمدوا كثيراً على موهبتهم في هذا الناحية ، وقد أثبت لنا هذا الكاتب أن الثقافة الشرقية الخالصة كافية لأن تخلق الأديب العصري الممتاز ، والصحفي المقتدر النادر المثال .

لكن لأحب أن يفهم من ذلك أن الميличи تخطى في كتابته الصحفية عن بعض الطرق الأدبية التي ورثها أدباء العربية عن سبقهم من أصحاب الأقلام ، لا بل الواقع أن براعة الميличи إنما ظهرت في قدرته على تطويع الطريقة الكتابية القديمة « classique » تطويعاً يكفي للقيام بمهمة الصحافة .

ومهما يكن من شيء فإن إبراهيم الميличи هو الممثل الأخير لهذه الطريقة القديمة في أدبنا المصري في القرن التاسع عشر . وسنرى أن هذه الطريقة القديمة بدأت تختفي قليلاً لتظهر مكانها طريقة أخرى أكثر ملاءمة للصحافة ؛ وهي الطريقة التي سلكها صحفي ممتاز في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ؛ ونعني السيد علي يوسف . وسيأتى الحديث عن هذا الأخير في جزء خاص به .

* * *

(وبعد) فلست أدري كيف يكون أمر هذا الكاتب العظيم لو أنه تثقف بثقافة أجنبية عميقة ؟ إنني أستطيع أن أقول إن الميличи لو أصاب قدراً عظيماً وعميقاً من هذه الثقافة الأوروبية من جهة ، ومن الفلسفة القديمة أو الحديثة من جهة ثانية لظهر أثر ذلك واضحاً في كل ما كتب من فضول قيمة في الأدب ، ومقالات جيدة في الصحف .

أجل - لست أنكر على الميличи أنه كان يعرف الفرنسية والتركية . وربما كانت له معرفة كذلك بالإنجليزية . ولكن الذي أستطيع أن أجزم به

أن معرفته لجميع هذه اللغات كانت سطحية في جملتها ، أو على الأقل كانت معرفة لا تعين صاحبها على تعمق واضح في هذه الثقافات الأجنبية تعمقاً يترك ظلاً واضحاً في الأدب .

لقد رأيت هذا الكاتب يرد أحياناً — في جريدته مصباح الشرق — على بعض كتاب صحيفة الفيجارو الفرنسية . ولكن هذا الرد كان يتخذ لنفسه في الجريدة صفة العموم لا الخصوص ، وكنت تلمح فيه صفة العارف بفحوى المقال لا الدارس لتفصيلاته ودقائقه .

من أجل ذلك نقرأ مقالات المويلحي فنفتقد فيها عنصر التحليل النفسى الأحداث والأشخاص على السواء ولنضرب ذلك مثلاً واحداً : مقالات ما هنالك ، فقد كان في استطاعة المويلحي أن يتخذ منها وسيلة لشرح نفسية السلطان ، أو لشرح العقد النفسية الكثيرة التي تكونت عند هذا السلطان أو العقد النفسية التي يصدر عنها الكثيرون من الرجال الذين كانوا على صلة دائمة به .

ولكن أنى للمويلحي أن يفعل شيئاً من ذلك ، ولا علم له بالفلسفة أو غلم النفس ، أو هذه الثقافات الحديثة التي تعين الكتاب والأدباء وأصحاب القصص الزائفة ومن إليهم ؟

الحق أن كتابة المويلحي لاحظ لها من الغمق وإن كانت موفورة الخلق من الجمال أو الحسن . ولو قد تنوعت ثقافة الرجل ، وازدادت هادته من العلم الأجنبي كما ازدادت أسفاره إلى البلاد الأجنبية لربحنا به كاتباً لا يشق له غبار ، ومصوراً لا تعجز ريشته عن تصوير النفس الإنسانية في أعق أغوارها ، بل في أعقد حالاتها ، وفي الرجل استعداد كبير لبلوغ هذه المكانة الرفيعة كما رأينا .

ومع هذا وذاك فربما كنا نتجنى على الرجل بعض الشيء في هذا المأخذ الذي نأخذه به ؛ لأنه لا ينبغي للناقد أن يقيس الكتاب والشعراء بمقياس العصر الذي يعيش فيه ، وإنما بمقياس العصور التي عاشوا هم فيها . وعلم النفس

كغيره من العلوم الحديثة — وليد القرن العشرين . والفلسفة الشرقية العميقة لم تصل كاملة أو كالسكاملة إلى عصر المويلحي . ومن ثم كان له العذر كل العذر فيما رميناه به من العجز عن تحليل الحوادث والأشخاص على النحو الذى لا يقوى عليه غير أديب حذق هذه العلوم الحديثة . ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

* * *

رحم الله السيد رشيد رضا ، فقد جمع لنا كل مقالات الأستاذ الإمام محمد عبده من بطون الصحف ، ووفر علينا وعلى الباحثين جهداً كبيراً فى البحث عن هذه المقالات . واستطعنا بفضل ذلك أن نتتبع الإمام فى مراحل الأدبية المختلفة ، وأن نكون لأنفسنا صورة من أسلوبه الكتابى ؛ كيف نشأ ، وكيف نمى وارتقى ، وما مراحل هذا النمو والارتقاء ؟

أما المويلحي فلم يرزق بمن يجمع له هذه الفصول التى كتبها فى شتى الصحف ، ولا رزق حتى بمن يجمع له هذه الصحف . ومن ثم لم نلتق بهذا الصحفى الكبير إلا فى آخر مرحلة من مراحل . وفيها — أى فى تلك المرحلة — كان المويلحي قد تم نضجه من ناحية الأسلوب . فلم نفعل أكثر من أن نصف هذه المرحلة الأخيرة التى تمثلها جريدة (مصباح الشرق) من جهة ، ومقالات (ما هنالك) من جهة ثانية .

أما المراحل السابقة لهذه المرحلة فلم يرق إليها علمنا بعد كما بينت . ولعل من الباحثين بعدنا من يظفر بالصحف الكثيرة التى نشرها المويلحي فى مصر وأوربا ، بل لعل من الباحثين من يعثر على جهود المويلحي الأدبية قبل عهده بتلك الصحف . وإذ ذاك يستطيع هؤلاء الباحثون أن يصفوا لنا التطور الأدبى لهذا الكاتب البليغ ، من حيث عجزنا نحن عن أن نكون لأنفسنا رأياً فى هذه المسألة .

الفصل — اذ ج

النموذج الأول :

وعنوانه هكذا :

رأينا من الإصلاح في مصر نوعه وسوف نرى سودانها مثل ما نرى
فما هبطت حمر الثياب ببلدة وكان لذر الأرض قوت من الثرى (١)
نعم هذا السودان الذي تنقل وتقلب بين أيدي ملوك المصريين جيلا
فجيلا ، من فراعنتهم ، وعجمهم ، وعربهم ما زال منذ فرغت منه يد الطبيعة على
حالة واحدة إلى اليوم . فأقام كالسبخة لا يجف ماؤها ، ولا يرجى نباتها . وقد
تغيرت البلاد ومن عليها على مر العصور وكر الدهور ، وهو باق على عهده
لا يتغير . وحتى تغيرت تلك الجزيرة جزيرة القوم بعد أن كانت تقسم معه
سهمه من جفوة الطبيعة وقسوة الإقليم : هذا يذيب أواره دماغ الضب
وتتوارى فيه الحرباء عن قرص الغزالة ، فترغب عن عاداتها ؛ وترتد عن
عباءتها . وتلك لقرها وشدة بردها يصطلي فيه القوس ربها ، وينتصر فيها
المجوسى لعبادة النار ، فينبعث متغنياً بقول بشار :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار
فاتقلت بنعمة الجد والاجتهاد وفضل السعى ، والإقدام درة البحر وغرة
العصر ، واستعان أهلها عليها بكثرة الدأب وشدة الطلب وكد القريحة ،
وكدح الفكر ، فخرجوا من ظلمة الانعزال والانكماش إلى الانتشار
والانبعاث ، ومن ضعف الأيد وقلة الحول إلى بسطة الحكم وعرض الجاه
ومن ضيق الرزق وشدة الحرمان وضعف الجناح إلى سعة الغنى وغبطة
الحال وصعود الجدد وخفض العيش .

وما زالوا منذ فرغوا من استصلاح بلادهم ، واستثمار أرضهم يرتادون
بلاد العالم يصلحونها لأنفسهم ويفلحونها لمنفعتهم ، حتى انتهى بهم الدور
اليوم في مجاهل أفريقيا إلى هذه البقعة التي طالما ذاقوا معها مرارة البأساء

(١) انظر العدد ٥٦ من جريدة مصباح الفرق .

وغضاضة الضراء ، فبدأوا بنصب مصائد الإصلاح وحبائل التمدن ونفاخ الترقى
الإنسانى . وكأننا بالسودان إذا انبسط فيه بساط هذه المدنية الغربية ، فاشتت
من طرق حديدية وأسلاك برقية وتخطيط للرى وتشديد للصانع وتأسيس
للمعامل وإنشاء للمدارس وتكوين للشركات ، وقد خلعت عنه تلك الأيادى
البیضاء لباس السواد ، ونزعت عنه ثوب الحداد ، فأثبت فيه الصخر ،
ولفظ رغامه التبر ، وانسابت جداول الماء على وجه الدهماء ، وغدت العظاة
فى غرض القطاة فى قفرها كالسمكة فى نهرها لا تنشد مواقع السماء ، وأورقت
عمد الأطناب وأعشبت شعب الأقطاب ، وارتقى الظلم بعد الجلاميد ، وأنبات
العناقيد ، وجرى سليل البخار جرى الأيام فى الأعمار والآجال فى الآمال .
فألقت الآبال عصا الترحال ، والتفت ظمأ العشر فى هجير الفقر ، ودجن
فيه الأخدرى ، وأنس البقر الوحشى ، فذلك للركوب . وتلك للسواقى
والغروب ، واكتنست الغزلات حدائق القصور ، وهجرت تلك الربى وتلك
الصخور ، وأصبح الفيل مركباً للزينة فى الخرطوم . يحظر محطم الناب موسوم
الخرطوم . وغدا العبد اتقن حبراً فى كل علم وفن ، وترقى ذوا الجلدة السوداء
إلى البحث فى غوامض الكيمياء والكهرباء . وسما الزنجى من مبارك الأنعام
إلى مرصد الأجرام وانقلب يد من خريطة الزاد إلى خريطة البلاد واعتاض
من زئير الليوث فى الغابات بحفيف الألحان فى حافظة الأصوات ومن رؤية
الوحوش فى المسارح بمشاهدة الصور المتحركة فى المراسج ، ومن الدخن
والأعشاب بالغالوذج والكباب ، وطبق ریح الإصلاح آفاق السودان ،
وسخر كل ما فيه للبصلح ؛ يقتطف ثمرته يلتقف منفعته فيحمل ما يحمله
إلى خزائن الأرض فى بلاده ويجلس فوقها منشداً :

وأرض بت أقرى الوحش زادى بها ليثوب لى منهن زاد
فأطعمها لأجعلها طعمى ورب قطيعة جلب الوداد
وما يدريك بعد ذلك أن يكون هذا الانقلاب من داعيات الخراب ،

وأن يكون الخروج من باب الشقاء دخولا في باب المحنة والبلاء ، والانسلاخ من المعيشة الفطرية إلى المعيشة المدنية اندماجا في ثنايا الأسواء والأرزاء .
فإن صدق الطير وقضى الأمر فلا أحب إلا أن يأتي يوم يتمنى فيه العبد عيش الأب والجد، ونشهى لو تنقلب به الأيام إلى مراعى الأنعام ، ويؤثر ظليم أكل المرد والهبير على معسول تلك العناقيد ؛ وثود تلك الدواجن من الماشية لو عادت طعاما للأسود الضاربة .

فإن فطن السودانيون — ولما يقع التقيص في الشرك — إلى مجازاة القوم ومباراتهم في جدهم ونشاطهم ، وحسن تقليدهم فضائل المدنية ، مع التحرص بما يدخلونه عليهم من فضولها ، ثم الاتفاف بعلمهم والتغلب عليهم بفضائل تلك العلوم ، وإن لم يجلس في صدورهم داء التدابر والتقاطع والتشاحن والتضاغن والتحاسد وحب الإثرة ، ولم يحتدم فيهم ضرم الفتن ولهب الشغب ولشد ما لقينا من هذه الأدواء ، أفلتوا من تلك المصائد ، وأوشكوا أن يعتدوا إلى الشرق رونقه الأسنى ، ويمحوا من صفاته كلمة التوحش التي ليس للمؤلف الغربي محيد عنها عند وصف الأمم الشرقية .

وإن كانت الأخرى ونام السودانيون نومة المصريين في ظلال الاحتلال؛ يتقيأونها وأغفلوا الحزم ، وأخطأوا منافع الرأي ، وضلوا موارد التدبير ، واعتروا من المدنية بالظاهر المموه دون النظر إلى الباطن المشوه ، وأجالوا النظر في أمورهم على الغد ، وتعلقوا بجبال المحال في التسويف بالاستقبال ، فما أشبه الحال بالحال ، وما أعجل أن تقوم بينهم نوادب الجرائد تستصرخ وتستنجد وتستغيث وتستعدي ، ولا سامع للشكوى . ولا كاشف للبلوى ، وقد حلم الأديم وبلى الرديم . هذا إذا لم ينسلخ من أرضه الجلد الأسود كما انقرض من أمريكا الجلد الأحمر . هنالك يبكي الهندي للمصري ، ويبكي المصري للزنجي ، والقوم رابضون في أرضهم ربوض الآساد في آجامها محلقيين فوق رؤوسهم تحليق الأجادل والنسور في سمائها .

وأعجب العجب أن الاثكليزى يسقط من منطقة الجليد إلى تلك المنطقة المحترقة ، ويخرج مما كان فيه من رفاهية المدنية ورفاهية العيش ، ويهبط من أفق النعيم إلى درك الجحيم ، تلفحه الرمضاء ، وتلوحه الشمس ، ويرنجه التعب ، وينهكه الآين والكلال لينتفع بما قضى به لنفسه من حق الاشتراك في السودان . وترى شريكه المصرى منزوياً في بلاده فاقداً للقوت ، محروماً من الرزق ، قد أضناه العسر والبؤس ، وأذابه الفقر والعدم ، وبات يتملبل من آلام المعيشة تملبل السليم من لدغ الحية ، فلا ينشط أبداً ولا يهتزل الخروج من هذا الضيق ، وسلوك ما يتسع أمامه من مسالك الأزراق . وهذا السودان قد صار منه على رمية سهم ، وفواق ناقة ، وهو أقرب الناس إلى الانتفاع منه ، وأدناهم إلى أهله لوحدة الدين ، ووحدة اللغة ، وتناسب الطباع ، وتآلف العادات وتوافق الإقليم ، فينام عنه بملء جفونه ، ويفضل التسلى بالآئين والشكوى عما هو محيط به من الآلام والمحن .

فإذا كان مارسخ في النفوس من الفزع والجزع عند ذكر السودان أيام كان مهبطاً للنفي ، وسجنناً للتعذيب ، وما كان يهول المصرى من بعد المشقة ومشقة السفر ، ومخاوف البيداء قد بعد به عن قصد تلك البلاد ، والانتفاع منها طول تلك الأزمنة الماضية ، فما عذره اليوم وقد كادت الحرب تشتعل والقتال يستعر بين دولتين من أكبر دول العالم ، فيهدم ماشيده العلم ، وأنشأه التمدن قرونا عديدة في لحظة واحدة للتنافس بينهما على تلك البلدة التى كانت معدة عندنا لنفى المجرمين في أقصى بلاد السودان . وبماذا يقنع المصرى نفسه في هذا القعود وقد أصبح السفر إلى السودان أيسر طريقاً ، وأقرب مسافة وأخف مؤونة من السفر إلى مثل البرلس أو الواحات .

أفلا ينظر المصرى نظرة واحدة إلى اليونان الذى سبقه إلى الانتفاع والارتزاق في أنحاء السودان ، فيراه يسير وراء الجيوش ، حتى إذا حطت رحالها ، وانتشب القتال ، وعلا القتام ، وتزلزلت الأقدام ، واشتبكت الأسنة

واشتجرت الرماح ، وسالت الدماء حط اليونانى أيضاً رحله ، وعرض بضاعته لمن يشتريها في هول هذا الموقف ، وحر ذلك الموقع ، ثم يعود بعد ذلك إلينا فيعيش بيننا بما جمعه من مال عيشة تغبطه عليها الخاصة ، وتحسده العامة . ومع هذا كله فالإنكليزى بحكم الطبيعة إنسان واليونانى إنسان والمصرى إنسان .

* * *

لعل هذا المثال الأول من الأمثلة التى نسوقها لكتابة المويلحى الكبير يعتبر نموذجاً كاملاً لفن الكتابة عنده . فهو رجل تغلب فيه نزعة الآداب نزعة الصحافة ، ويرتفع بالمقال الصحفي إلى الدرجة التى لا يطمع المقال الأدبى نفسه فى أبعد منها .

فن تقطيع موسيقى للعبارات ، إلى إثارة لجزالة الألفاظ ، بل حرص شديد على هذه الجزالة ، إلى إتيان بالموازانات اللفظية والمعنوية إلى سمو فى العبارة ، إلى مهارة عظيمة فى تبكيث المصريين لتكاسلهم عن مسابقة الإنجليز فى عمارة السودان ، وعن منافسة اليونان فى استجلاب الرزق . وهو تبكيث قوي انتهى منه الكاتب بهذه العبارة اللطيفة وهى قوله :
« ومع هذا كله فالإنكليزى بحكم الطبيعة إنسان ، واليونانى إنسان ، والمصرى إنسان » .

النموذج الثاني :

الترك والعرب^(١)

لم يكن فضل الترك في حفظ السلام ، وتشجيع دعائمه ، ونشر دعوته ، وتأيد صولته، والدفع عن حرمة وحرمته ، بالشئ الحديث والأمر الجديد، ولا هو مبدوء فيه يبدء الدولة العثمانية ، ولا نشأ في نفوسهم بنشأتها . فهم الحماة له ، والكفاة فيه ، والذادة عنه ، والأنصار لدين الله منذ العهد البعيد والدهر القديم . دخلوا في خدمته، وقاموا بنصرته في صدره وشباب عصره . أدخلهم المعتصم بالله ثامن الخلفاء العباسيين، فجعلهم جنده وأعوانه ووزراءه وقادته . وأخذ الخلفاء من بعده بما أخذ فيهم ، فكانوا لديهم العدة في الشدة، والعمدة في فتوحاتهم وغزواتهم؛ ينتصرون بهم ويدفعون عن الدين بحمهم . وصفحات التاريخ بين أيدينا تشهد لهم بأنهم ما زالوا ينفعون بخدمتهم نفع اليد للقم والدم للجسم منذ الأعصر الأولى إلى اليوم ، فلهم الفضل الظاهر في الأول والآخر .

وكانما الدهر لا يدور، والزمان لا يحول ، والأشياء فيه تتجدد ، والنظائر تتعدد ، والحوادث فيها يبدئها وبعيدها ، والكتاب كلما نفذت نسخة تجدد طبعه . فقد عثرنا على رسالة كتبها أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى الفتح ابن خاقان وزير المتوكل في مناقب الترك وعامة جند الخلافة يقول في صدرها:

« فإن السلطان لا ينفك مُتَسَاوِلَ نَاقِمٍ، ومن محكوم عليه ساخط، ومن معزول عن الحكم زارٍ، ومن متعالي متصفح، ومن معجب برأيه ذى خطل في بيانه مولع بتهجين الصواب وبالاعتراض على التدبير ، حتى كأنه رائد لجميع الأمة ، ووكيل لسكان جميع المملكة ، يضع نفسه في مواضع الرقباء

(١) نشر بالعدد السادس من مجلة « مصباح الشرق » بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٢٩٨ .

وفي مواضع التصفّح على الخلفاء والوزراء ، لا يحدّث ، وإن كان مجاز ولا يقف فيما يكون للشك محتملاً ، ولا يصدّق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنه لا يعرف مصادر الرأى من لم يشهد موارده ومستديره من لم يعرف مستقبله .

إلى آخر ما تراه مسطوراً من هذه الرسالة في الصفحة الثالثة من هذا العدد. فتعجب معنا ويحق لك العجب كيف أن ما كان يكتب ويقال في القرن الثانى أصبح ينطبق على حال القرن الرابع عشر في اعتراض المعارضين وانتقاد المنتقدين ، وفي الرد عليهم ، وفي بيان الرابطة التي تربط العربى بالتركي والتركي بالعربى ، حتى كأن الجاحظ وهو يلى أقواله فى المسجد يكتب معنا اليوم فى الجريدة بعد مرور القرون وكرور العصور .

فما الرأى الأحزم لجساعة المعارضين والمنتقدين على ما لا يوجب الاعتراض والانتقاد فى أعمال الدولة إلا أن يكفوا ويرتدوا عن أمر قد سجل بزمه وعدم جدواه من عهد القرون السالفة ، وأن يتعاونوا على ما هو الأنفع والأصلح الأمة الإسلامية والدولة العثمانية ، وذلك أن يتركوا الأمر لصاحبه ومن يضع الهناء مواضع الجرب فهو بالنافع أدرى وبالصالح أخبر . وقد قال على بن أبى طالب لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما وقد أشار عليه فى شىء لم يوافق رأيه : لك أن تشير على بالرأى ، فإذا عصيتك فأطعنى . وقالوا الإمام أفضل من الرعية رأياً وتديراً . فالواجب على من يشير عليه بأمر ولا يقبله أن يطيع ويسلم ويعلم أن الإمام قد عرف من المصلحة ما لم يعرف . وقال أبو إسحق الصابى فى بعض فصوله : ولولا فضل الرعاة على الرعايا فى بعد مطرح النظرة ، واستشفاف عيب العاقبة لتساوت الأقدام ، وتقاربت الأفهام ، واستغنى المأموم عن الإمام .

اللهم اجمع قلوبنا على الحق الأبلج والصراط الأقوم ، وقنا عواقب التفرق والتشتت والتحزب والتشعب ، واسلك بنا طريق الهداية فى كل حال ،

المؤزج الثالث :

مصر وحدها

كيف يتداخل المحتلون^(١)

ذكرنا فيما مضى للقراء الكرام في كلامنا عن الشرق وحده أن الشرقي واسع الخيال ، حديد الذهن ، مشتعل الذكاء ، لطبيعة الأقاليم الشرقية ، يكاد يسبق ذهنه إلى النتيجة عند بدء المقدمة ، ويعجل بمصادر الأمر قبل بواذره. والمصري من بين جمهور الشرقيين أوسعهم خيالا ، وأحدهم ذهناً ، وأوقدهم ذكاء ، وهو أكثرهم تشعباً في الفكر ، وأطوعهم انقياداً للوهم ، وأسماهم عن المقدمات ، وأسبقهم إلى النتائج ، وأسرعهم في الحكم . فلو تكلمت مع مصري مثلاً على عمل يعمل له لربح يربحه لاخترق بفكره الثاقب جميع مقدمات العمل ، واحدة إثر أخرى ، ولننفذ فكره منها كما تنفذ الكهرباء إلى الأجسام ، لشغفه بالوصول إلى النتيجة ، فيأخذ في تعداد وجوه الإتفاق من ذلك الربح الموهوم ، قبل الشروع في العمل ، ويفوته حينئذ التأمل فيما عسى أن تحتوى عليه المقدمات من الأغراض التي تعكس عليه النتيجة بتامها ، كالناسك الذي كان يجرى عليه من بيت رجل تاجر في كل يوم رزق من السمن والعسل ، وكان يأخذ منه حاجته ، ويرفع الباقي في جرة ، فيعلقها في وتد من ناحية البيت حتى امتلأت . فبينما الناسك ذات يوم مستلق على ظهره ، والعكاز في يده ، والجرة معلقة على رأسه ، تفكر في غلاء السمن وانعسل فقال : سأبيع ما في هذه الجرة بدينار وأشتري به عشرة أعنز ، فيجبلن ويلدن في كل خمسة أشهر بطناً ، ولا تلبث إلا قليلاً حتى تصير غنماً كثيرة . ثم حرر على هذا النحو بضع سنين ، فوجد ذلك أكثر من أربعائة أعنز فقال : أنا أشتري مائة من البقر بكل أربعة أعنز ، ثوراً أو بقرة ، وأشتري أرضاً وبذراً ، وأستأجر

(١) مصباح العرق — عدد ١٩ السنة الأولى بتاريخ ٢٥ أغسطس ١٩٩٨ .

أكرة ، وأزدهج على الثيران ، وأنتفع بالبان الإناث ونأجها ، فلا يأتي على خمس سنين إلا وقد أصبت من الزرع ما لا كثيراً ، فأبني بيتاً فاخراً ، وأشتري إماء وعبيداً ، وأتزوج امرأة جميلة ذات حسن وأدخل بها فتحمل ، ثم تأتي بغلام سرى نجيب ، فأختار له أحسن الأسماء . فإذا ترعرع أدبته وأحسنات تأديبه ، وأشدد عليه في ذلك ، فإن يقبل مني وإلا ضربته بهذه العكازة ، وأشار بيده إلى الجرة فكسرها ، فسأل ما كان فيها على وجهه .

فقد رأيت أن الناسك مر على ما ترى من المقدمات فلم يقف عند واحدة منها ، بل جعل همه كله في الانصراف إلى النتائج . وهذا معنى قلة التبصر ثم إن المصري لتوزع فكره ، وتشعبه وتوجهه بكليته إلى النتيجة لا يتمكن من الوقوف هنيئة على علاقات الأعمال ببعضها (١) ، فتبقى أعماله منفصلة غير مرتبطة ، ويتعذر عليه ترتيبها على نسق مخصوص ، وتوجيهها إلى غرض مقصود . وهذا معنى قلة التروى .

والإنكليزي بما لم تهيه الطبيعة من قوة الذكاء واتساع الخيال تراه بطيء التصور بطيء القياس قادراً بذلك على التأمل ، والتدبث ، والتروى ، والإمعان فان عمد إلى أمر انصرف بجميعه أولاً إلى النظر في المقدمات ، وأخذ يقلبها بطناً لظهر ، فلا ينتهي حتى يقتلها علماً ، ثم ينبري للقياس فلا يخطئ إلا بما كسبه الحدثنان ، وصروف الزمان التي لم تكن في قدرته أن يحيط بها . وله من تلك الآناة وذلك الإمعان ما يسهل عليه الوقوف على علاقات الأعمال بعضها ببعض على قدر الطاقة البشرية . ولما كان النجاح في الأعمال يتوقف على العلم بارتباطها ببعضها اجتهد الإنكليزي في ممارسة هذا الباب حتى صار عنده في منزلة الدرس يتلقاه ويحفظه . ومن أمثلة ذلك تلك القاعدة التي تجرى عليها وزارة الخارجية الإنكليزية ، فان كل سفير لها في الخارج يرسل

(١) هذا خطأ في استعمال بعض ، والصواب أن يقول : علاقات الأعمال بعضها ببعض . وهو خطأ شائع في كتاب الترن المأخوذ بوجه عام .

إليها في ختام كل شهر تقريراً يحتوى على جميع ما يراه في الدولة المقيم بها ؛ فتجتمع الوزارة هذه التقارير ؛ وتبحث بنسخها إلى جميع سفرائها : فسفيرها في الصين يعلم ما يعلمه سفيرها في مراكش ، وسفيرها في العجم يعلم ما يعلمه سفيرها في أمريكا ، والكل يعلمون ما عند الكل ، فلا ترد على سفير منهم حادثة إلا وهو مطلع على متعلقاتها من جميع الجوانب والأطراف . وهذا سر تغلب الإنكليز على الممالك الشرقية بالرأى لا بالقوة .

فإذا اجتمع مصرى مع إنكليزى على عمل غاب المصرى لاضطرابه وعجلته ، ونجح الإنكليزى لسكوته ولتدته . ولا يزال هذا نصيبهما إن لم يتعود المصرى على الثبوت والتأمل ليرى ما وضع له في طريقه من الحبائل والإشراك . ولا يكن المصرى مع الإنكليزى كالمسافرين يؤمان منزلاً واحداً ، أحدهما راكب متعجل ، والآخر راجل متمهل . فان وصلا فقد فات المتعجل ما اطلع عليه المتمهل من معالم السفر ومواقف النظر . وربما وصل الراجل وضل الراكب ، فانقطع به طريقه . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إن المنبت^(١) لا أرضا قطع ولا ظهراً أبق » .

وتاريخ الاحتلال يشهد لنا بكل ما تقدم . فانك ترى المصرى يتسرع عند كل حادثة إلى التمسك بكل سبب ، والتعلق بكل طرف ، فيضطرب في الأمر ، ويختلط في الرأى ، وهو ذاهل عما يضعه له الإنكليزى في المقدمات من دقائق الأغراض التى تعكس عليه النتيجة .

وما زال المحتلون ينتفعون بصوابهم وخطئنا معا ، وينالون أغراضهم ياغفالنا الحزم في أمورنا ، وانتباههم وتبصرهم في أمورهم ، حتى تمسكوا من التداخل في إدارات الحكومة المصرية ، ولم يبق في أيدينا منها إدارة سالمة من تداخلهم إلا إدارة الأوقاف التى دبروا لها مآدبروا لوقوعها في أيديهم أيضاً . وقد رأينا أن نبسط تاريخ تداخلهم فيها شاهداً على ما قدمنا ، ونموذجاً لما بيننا . فنقول .

(١) المنبت الذى يتطلع من أخوانه في السفر ، يجهد ذاته ليسبق أخوانه ليهلك هو وواجه .

كان ديوان الأوقاف نظارة معدودة من نظارات الحكومة إلى أواخر رئاسة نوبار (باشا) لمجلس النظارة سنة ٨٤ . وفي ذلك الحين قرر مجلس النظارة فصل تلك النظارة عن هيئة الحكومة ، ووضعها تحت نظر الحضرة الخديوية مباشرة . وكان ذلك على أثر التلغراف المشهور الذي أرسله اللورد جرايفيل ناظر خارجية انكلترا في وقتها إلى المرحوم شريف (باشا) رئيس مجلس النظارة قبل استعفائه : بأنه مادامت الجيوش الانكليزية مقيمة في القطر المصري فعلى رجال الحكومة المصرية أن يأتمروا بما تشير به الدولة الانكليزية عليهم من الآراء . فارتأى المغفور له توفيق (باشا) أن يفصل هذا الديوان عن هيئة الحكومة ليكون بئامن من تداخل المحتلين ، وليسلم من الدخول تحت نص هذا التلغراف ، فأعانه دولة نوبار (باشا) على رأيه في فصله ليشغله به عن الحكومة ، ويستبد هو مع المحتلين بجميع أعمالها . وبقي الحال على ذلك إلى حين نظارة دولة رياض (باشا) ، فسعى في إرجاع ديوان الأوقاف إلى الحكومة كما كان عليه لما اعتاده من حب التفرد بمباشرة أعمال الحكومة كلها . فلم يسع المرحوم توفيق (باشا) إلا التسليم له في أن يجعله تحت مراقبته الشخصية فقط مع تعيين أحمد حمدي (باشا) مديراً له ليأتمر بما يأمره به رياض (باشا) ، ويكون دولته واسطة بين الأوقاف والمنعمة . ورأى أن هذه المراقبة تقوم مقام إعادة الديوان إلى هيئة الحكومة ، مادام هو رئيساً باقياً فيها . ثم استشعر الحاجة إلى سن لائحة يسير عليها الديوان في إدارته ، فكلف لجنة بإنشائها . ولما انتهت اللجنة منها سقطت نظارة رياض (باشا) ، وخلفتها وزارة سعادة مصطفى (باشا) فهمي ، فاسترجع المرحوم توفيق (باشا) وكالته التي أعطاهها لدولة رياض (باشا) في مباشرة أعمال الأوقاف ، فرجع الديوان كما كان مرتبطاً بالمنعمة رأساً ، وحفظت اللائحة المذكورة في محفوظات مجلس النظارة لا يحركها إلا من ينقض الغبار عنها .

وفي عهد الجناب العالي عرضت مسألة من المسائل لها مساس بالأوقاف

ودارت المذاكرة فيها بين الحكومة ومجلس شورى القوانين ، فذكر المجلس الحكومة بتلك اللائحة التي وضعتها ، وما كادت تعرضها عليه حتى سقطت نظارة مصطفى (باشا) فهمى . واشتد النفور بين الحكومة والمحتلين . فكان المحتلون يعيرونها ويسكتونها في كل آن بفساد الأمور في المصالح التي لا تدخل للمحتلين فيها ، ويضربون النمل بديوان الأوقاف ، واختلال أعماله ، وقيموته حجة على أن كل ما كان في أيدي المصريين خالياً عن مراقبتهم يكون على مثل ذلك الاختلال . وأكثروا من هذا التعيير ، والتنديد ، حتى اضطروا المعية أن تطلب بنفسها النظر في لائحة الأوقاف ، ولما كانت تلك اللائحة موجودة في مجلس النظار ، ولا بد لتنفيذها من رأى مجلس شورى القوانين ، ولا سبيل لعرضها عليه مباشرة من المعية ، بل لابد من توسط مجلس النظار أمرت المعية رئاسة المجلس بإخراج تلك اللائحة والنظر في أمرها ، ورئيسه يومئذ نوبار (باشا) ، فانتهر هذه الفرصة ليأخذ من المعية ما كان أعطاها لإياه لغرضه الذي أغتته الحوادث عنه ، ويرده إلى الحكومة ، فيدخل تحت مداخلته المحتلين . فلم تشعر المعية إلا وقد أضيف إلى تلك اللائحة فقرة تجعل النظارة المالية واجب المراقبة على حسابات الأوقاف ولما كان ديوان الأوقاف من المصالح ذوات الإيراد والتفقات ، وكله حساب في حساب كانت المراقبة الحسابية عليه مراقبة على جميع أعماله ، وتدخل في كافة شؤونه وضار المحتلون بهذا ، إذا ذكروا أمور الأوقاف ذكروها بغير اهتمام ولا عناية ، ليستروا ما وضعوه من الأغراض . وداموا على هذا الحال سنة كاملة اقتصر فيها على إرسال موظف من المالية إلى الأوقاف في بعض الأحيان ، حتى جعلوا رجال الأوقاف أنفسهم في مقدمة المستخفين بتلك المراقبة ، والزاعمين بعدم وجودها ، واعتقدوا أن المحتلين لا يتجاوزون في مراقبتهم إلى غير ذلك القدر ، ولأنهم لا يتعدون حدود تلك المداخلات الخفيفة في المستقبل كما يعملون في بقية النظارات ، لأن الأوقاف يحميها منهم اسمها .

وبعد أن مضت سنة أخرى على هذه المراقبة الخفيفة حان لمندوب المالية أن يصرحا بأنهما عاجزان عن مراقبة الحسابات وترتيبها إذا استمر الديوان على طريقته الأولى في الحساب ، ولم يوحده ، فعضدت المالية رأى مندوبيها ، فشعرت المعية والأوقاف بما أخفى لهما ، وأحسا بثقل النتيجة التي كانا يستخفان بمقدماتها .

وهنا نقول أن القارئ لهذه السطور كأنما يقرأ قصيدة من شعر شاعر بليغ ، فينبأ هو يلهم بنسبها إذا انقل به إلى مديحها لحسن التخلص ، وحسن التخلص هنا هو الاستيلاء على الأوقاف بعد ذلك الاستخفاف .

ولما انكشف السر للمعية والأوقاف هالهم الأمر ، وكثرت المداولات مع العلماء في مجالس متعددة لسد هذا الباب بعدم الإفتاء بتوحيد الحسابات ، حتى قال سعادة إبراهيم (باشا) نؤاد ناظر الحقانية في بعض تلك المجالس كلمته المشهورة عنه : إذا كانت الشريعة لا تبيح توحيد الحساب فالحكومة المصرية لا تقيد نفسها . وبعد جدال طويل تقررت الطريقة التي ترومها المالية بعد تخفيف في ظاهرها .

ثم قال المكاتب بعد كلام طويل :

والقلم واللسان عاجزان عن وصف التدرج الذي يتداخل به المختلون وابتدائهم بالصغير لينتهوا منه إلى الكبير . وما يماثله إلا تلك الندادة من نوادر أبي دلالة الشاعر : فقد مدح الخليفة السفاح ، فقال له سلتى حاجتك . قال أبو دلالة حاجتى كلب أتصيد به . قال أعطوه إياه . قال ودابة أتصيد عليها . قال أعطوه . قال : وغلام يصيد المكب ويقرده . قال : أعطوه غلاما . قال : وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه . قال : أعطوه جارية . قال يا أمير المؤمنين : هؤلاء عبيدك فلا بد لهم من ذار يسكنونها . قال :

أعطوه داراً تجمعهم . قال : فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون ؟ قال
قد أعطيتك مائة جريب عامرة ومائة جريب غامرة . قال وما الغامرة : قال
مالاً نبات فيها . فقال : قد أقطعتك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب
غامرة من فيافي بني أسد . فضحك وقال : اجعلوها كلها عامرة . قال فأذن
لي أن أقبل يدك . قال أما هذه فدعها . قال : والله ما منعت عيالي شيئاً أقل
ضرراً عليهم منها .

فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها ابتداءً بكلمة فسهل القصة به ، وجعل
يأتى بما يليه على ترتيب وفكاهة ، حتى نال ما لو سأله بديهة لما وصل إليه .
ولو أن أبا دلامة أزال مسترسلاً في هذا النحو لانتهى بالوزارة يطلبها
والأمارة يخطبها !

النموذج الرابع :

العزة في القوة (١)

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي المجد لل سيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبدا بعد الكتاب به فانما نحن للأسياف كالخدم
استنناضك الرجل وهو في أرضه ومزرعته بين زوجته ، وولده ، وأنسابه
وأقربائه ، وخلاته وجيرانه ، ومعالم دياره ، وأعلام دينه ، وحملك له على
التدجج بالسلاح ، والتحصن بالدروع ، ليدفع عن حماه العدو المفاجيء ،
ويذود عن حرمة المغير الطاريء ، فينهض فيرميه بسهم أو يطعنه برمح ،
فيلقيه إلى الأرض صريعاً للدين وللقم ، فيسلم له أهله وماله - ذلك حقيقة
معقولة وأمر حاصل يعمل به .

وقعودك بالرجل عن الأخذ بأسباب الدفاع ، واختيارك له في حفظ
حوزته ، والعدو محيط به من كل مكان أن يضع ابنه في المكتب . ثم في
المدرسة ، ثم في الكلية ، فيتلقى هناك ما نشئت من علوم التمدن والتهديب ،
وما تفرق من وجوه العلوم والمعارف ، وما اختلف من أبواب الصناعات
والحرف ، ثم ينتقل إلى المطالب العالية من البحث في الطبيعيات
والرياضيات ، فيخترع الآلات ، وابتدع الأدوات ، ثم يرجع من البحث في
ما وراء الطبيعة وقد تساوت عنده الأديان ، وأصبحت لديه الديانات كلها
إحناً ، والمذاهب كلها فتناً ، وخلص من تلك الغلطة الموروثة ، فلانت عريكته
وانبسطت نفسه للناس على اختلاف مذاهبهم وبقائهم عليها ، فرآهم كلهم له
إخواناً ، واعتبرهم له أعواناً . فإذا وصل إلى هذه الدرجة المطلوبة ، وأمهله
العدو تلك السنين الطوال ، قام يدفع العدو عن حوزة أهله ويبيضة قومه -
ذلك هو الطيران على أجنحة الخيال في جو المجال .

وقد بحث الباحثون في اختيار الوجهة التي تتخذها الدولة العلية لدفع ما يستدير بها من الملل والخطوب ، ويحفظ مركزها في الوجود بما يحقق بها من المكائد والمكاريه ، فذهبوا مذاهب شتى ، وانصرفوا إلى أغراض مختلفة . ومنهم صاحب تلك الرسالة التي طلعت من أفق المشرق على « المصباح » فأوضح فيها أن الوجهة القويمة للدولة العلية في حفظ مركزها من مخالب الأعداء المحيطة بها هي التحصن بالقوة ووسائل المنعة ، وأن ذلك هو الدواء النافع الذي يقتضيه حالها في وجوب الإسراع في التوقي لعدم احتمال المدة وجها من الوجوه الأدوية الأخرى . فوكت أقواله أحسن الوقع من نفوس الذين يدركون تلك الحقيقة ، ويحسون بموضع ذلك النضوب ، واستيقنتها قلوبهم ، وحلت محل الاستكراه من غيرهم ، واستنكرتها قلوبهم ، فاعترضوا عليها بأن الدولة لو عملت بقول أولئك المنادين لها بالتحصن بأطراف الرماح ، والتوقى بالدروع لتصد عنها المهاجم ، وترد المنازل لاجتمعت الدول الأخرى عليها ومزقتها تمزيقاً ، وتقاسمت أملاكها في أسبوع من الزمان ، ولأحدثت بها من كل جانب براً وبحراً ، ولأوردتها ختفها قبل أن تدرج من مهدها شبراً .

وهو وهم وخيال دفع إليه شدة التسرع في فهم المقصود من كلام كاتب الرسالة . فإنه لم يطلب من الدولة العلية أن تحشد الجنود ، وتحش الجوع ، وتدعو الدعوة العامة لغزو الغزوات وفتح الفتوح ، وأن تقف في موقف القتال ، وتقول لكل الدول: نزال نزال . لأن كل إنسان يعلم أن مثل هذه الدعوة لو قامت بها أقوى دولة في العالم لانتفقت الدول على التنكيل بها ، ولقامت كلهن في وجهها صوتاً لوجودهن . وإنما دعا كاتب الرسالة الدولة العلية إلى الأخذ بأسباب القوة لدفع الطاريء ، وصد الطامع على ما تقتضيه حاجتها ، وتهدي إليه مصلحتها . واتمس من الخليفة أمير المؤمنين أن يهتج هذا المنهج الذي هو ناهجه في الحقيقة ، واجتات الدولة من باكورة

ثمرته ما اجتنته . وقد رأيناها تزيد في عدد العساكر ، وتجتلب الأسلحة وتعد المعدات الحربية ، فتستحضر السلاح من النمسا وألمانيا ، وتصلح السفن الحربية على الطراز الجديد ، وتنشئ المدرعات في معامل إيطاليا ، وترسل بضابطها للتعليم الحربي والبحري إلى ألمانيا وانكلترا وأمريكا ، وتنشئ الطرق الحديدية في البلاد التي تحتاج إلى قرب المواصلات لسهولة نقل المعدات الحربية عند الحاجة إليها . ولم نسمع بعد ذلك كله أن دولة من الدول غضبت من هذا الاستعداد . أو عارضت فيه ، أو اتحدت مع غيرها من الدول على منع الدولة العلية من تحصين بلادها ، ولم يهتز للبرق سلك بالإشارة إلى شيء من هذا القبيل ، ولم تجتمع به حروف أوربية في جريدة .

والاستعداد للقوة على ما تقدم لا يمنع الدولة العلية من مداومة المسير على نظام التمدن والتقدم في العلوم الجديدة النافعة والعلوم المفيدة الحادثة ، مما هي آخذة في أسبابه أيضاً . وكما أن كاتب الرسالة نبه المسلمين إلى العمل بكتابهم في التذرع بالقوة ، كذلك يجب على كل مسلم أن ينبه المسلمين إلى ما بكتابهم وسنة نبيهم وسيرة أسلافهم من التأدب بأدب الدين والاجتهاد في طلب العلم والتعليم واستخلاص اللب وبند القشور . ولما كان الدين الإسلامي ديناً يتناول أمور الدنيا كما يتناول أمور الآخرة كانت الدعوة للقوة أو للهدنة من طريق الدين أقرب وأدنى ، وأوقع وأنفع . وعز الدولة ومنعتها ورسوخ مركزها ، وتقدمها في العلوم والمعارف من هذا الطريق لا تقتصر منفعته على فئة من رعيته دون فئة ولا ملة دون ملة ، فإن الدين الإسلامي دين يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويجب في العمل ، ويغض في الكسل ، ويرشد إلى حسن المعاملة وجميل المعاشرة ، ويرفع من قلوب المسلمين العداوة والبغضاء ، ويحض على إكرام الجار ، ويوجب حفظ الحقوق والمساواة في القضاء بين المسلم وغير المسلم . ولن يفعل في المسلمين نداء مناد مثل ما يفعل نداء من يناديهم من طريق دينهم للعمل بالفضيلة ، ولذلك

تقبل المسلمون هذه الرسالة قبولاً حسناً ، وأجلوا قدرها في صدورهم ،
واطمأنت لها قلوبهم ، وارتاحت لها نفوسهم .

وقد غيرت الدهور وكرت العصور والفرق المختلفة مقيمون تحت حكم
المسلمين في عيشة راضية ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، فعاش الفريقان في
اتفاق ووافق وسلام وونام ، لم يقل منهم للآخر : إني أكن لك الحقد ،
وأحرق عليك الأرم ، وأبطن لك السوء ، وأربص بك الدوائر ، وأتهب
عليك عداوة ، وأتميز منك غيظاً . ولا يغرنك ما يجري بيننا من ألفاظ
المجاملة فإنما هي الظاهر المموه من تحتها الباطن المشوه . وإني أختار لك
شكلاً للحكم ، فإن لم ترض به فبلم فاخرج من ديارك التي فتحتها بحد السيف ،
واستوطنها مئات من الأعوام ، وحكمت فيها قروناً طويلة من السنين ،
ودونك البوادي والقفار فاتخذها لك سكناً وداراً .

فإن كانت تغيرت اليوم الأحوال وتبدلت الأمور ، فالمسلمون لا يزالون
متمسكين بأداب دينهم ؛ لا يختارون إلا ما يختار لهم حكمه . فمنه قوتهم ، وفيه
مدنيتهم ، وبه هدايتهم ، قل إن هدى الله فهو الهدى ، وإن اتبعت أهواءهم بعد
الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير .

هذا وأما ما تذهب إليه أفكار بعض كتبة المسلمين من اجتماع أئمة
المسلمين في دار الخلافة العلية لعقد مؤتمر ينظر فيما يجمع كلمة المسلمين ويلم
شعثهم ، فهو رأى مقبول . إلا أن مثل هذا العمل في الوقت الحاضر بما
يشوش على السياسة العامة . والامر فيها موكول إلى نظر أمير المؤمنين ؛
يسير فيها بحكمته ، وليس من وراء هذا المشروع كبير فائدة . ويكفي لهذا
الآن الاجتهاد في نشر الجرائد الإسلامية للبحث على جمع الكلمة وتأييف
القلوب ، ومبادلة الأفكار التي تنفع الإسلام بين المسلمين في أنحاء الأرض .
ولمثل ذلك المؤتمر وقت يحين بعد . ولا عبرة بما يقال أن الدول تألبت
على الدولة العلية بعد حرب روسيا ، وأخرجت من يدها تونس ، وهصر ،

بسبب اجتماع المصري والمراكشي والتونسي وغيرهم في الآستانة . فإننا لم نسمع عن اجتماع سياسى على هذا الشكل فى تلك الأيام ، ولم نسمع أن الدول تكلمت فى شأنه .

وليس المطلوب من جماعة المسلمين الذين تحت حكم الدل الأجنبية أن يتفقوا فيما بينهم للظاهرة على من يحكمهم ، والوقوف فى وجهه والخروج عليه . وإنما المطلوب منهم أن يساعدوا الدولة العلية اليوم بأفكارهم ، وأموالهم لصيانة الإسلام . وقد شهدت الحرب اليونانية بأن المسلمين لا يتأخرون برهة عن بذل أموالهم فى إعانة الدولة العلية . واتفاقها فى سبيل الدفاع عن حمى الدين ، والذود عن دمار المسلمين . وهم كلهم على تنائى ديارهم فى يدهم كتاب الله يقرأون فيه تلك التجارة الراجعة فى الآية الشريفة « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، الآية ، ويتلون فيه تلك الأرباح المضاعفة فى الآية الكريمة « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء » .

التموزج الخامس :

مصر وحدها (١)

العادات المصرية

لم يكن شيء في الوجود إلا وضعه البارئ سبحانه وتعالى تحت حكم التغيير والانتقال ، وهو الذي يغير من حال إلى حال ، وينقل من وضع إلى وضع ، ولا يختص التغيير والانتقال بالماديات ، بل يتناول المعنويات أيضاً ، فمنها ما يتغير تغيراً يدركه الحس ، ومنها ما يظهر تغيره على مرور الأزمان وكرور الأعصار .

وليس التغيير في الشيء الواحد يكون على نمط واحد من السرعة والبطء ، بل يكون التغيير تارة سريعاً ، ثم يتغير سيره فيصير بطيئاً . وبما يدخل تحت التغيير عادات الأمن وأخلاقيها ، والرسوم والتبوت في وصفها نسبي . ففي تغيير وانتقال على الدوام ، وربما تعودت الأمة عادة ، ودامت عليها أزماناً ، ثم تحولت عنها إلى أخرى ، وبعد هذا التحول بزمان طويل أو قصير عادت إلى عاداتها الأولى مرة ثانية .

فمن ذلك عادة المصافحة ، وهي من السنة الشريفة النبوية . كانت شائعة بين المصريين ، ثم زالت أو كادت . وقد أدركنا الناس لا يصفح بعضهم بعضاً إلا أرباب الطرق من أهل التصوف ، فإنهم بقوا على السنة . وأما التحية بين طبقات الناس فإنها كانت باللسان ، وإشارات اليد ، أو بتقبيل اليد ، أو بغير ذلك من لثم الأذيات ، وهو مما أوجبه على الناس كبرياء كبرائهم حتى بلغ ببعض آل البيت النبوي الذين لا ينبغي إلا أن يكونوا قدوة للناس في تعليم مكارم الأخلاق أنه كان إذا قبل يده أحد حضر الخادم في الحال بالماء فغسل ابن النبي يده أنفة واستقذاراً من لمس يد أخيه المسلم . !

ولما اختلط المصريون بالغريين عادوا إلى السنة النبوية ، والعادة المصطفوية ، ولكن من طريق التقليد الأجنبي . وصار العظيم يصافح من دونه وأخذت التحية بالإشارات في التلاشى . ولا شك أن هذا من محاسن الأخلاق التي تستوجب مدح صاحبها ، ولكن لو كان الرجوع إليها من باب الرجوع إلى الاقتداء بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم لكان المدح أعظم والثناء أوفر . ومن التناهي في تكلف التقليد أن بعض من تراهم من المتكلفين إذا صاحك رفع كوعه حتى يكاد يساوى به رأسه ، وأمال جسمه ، وحتى ظهره ، وأخذ يدك ثم هزها هزاً متتابعاً . وانتفض كما انتفض العصفور بالله القطر . وذلك لأنهم أخذوا على أنفسهم أن يرضدوا حركات الأجنبي وسكناته في كل ما يعمله ، فيأخذوا عنه ما قبح وما حسن بلا ترو ولا تبصر !

ومن ذلك عادة الاستئذان قبل الدخول ، وهي من آداب القرآن . وقد نهى الله عن دخول البيوت بغير إذن من أهلها فقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسألوا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون » ، والزخشرى يقول بعد تفسيرها : « وكم من باب من أبواب الدين هو عند الناس كالشريعة المنسوخة ، فقد تركوا العمل به . وباب الاستئذان من ذلك . بينا أنت في بيتك إذ رجع عليك الباب بواحد من غير استئذان ولا تحية من تحايا إسلام ولا جاهلية ، وهو من سمع ما أنزل الله فيه وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن أين الأذن الواعية ؟ وقد جرى المسلمون على هذه العادة زمناً ، ثم زالت من بينهم . وشاهدنا الناس يدخل بعضهم على بعض بلا استئذان . ثم جدد فيهم تلك السنة النبوية اختلاطهم بالأجانب ، فأخذوها عنهم ، وقلدوهم فيها ، وبلغت بهم سماجة التقليد إلى طلب الإذن بالنقر على الباب وإجابته بأمر الدخول باللفظ الأجنبي . وربما نطق به من لا يعرف من اللغة الأجنبية غيره ، ولو كان

الرجوع إلى هذه العادة رجوعاً إلى آداب الدين لكان أولى بأمة أديها الله في كتابه أحسن تأديب .

وقد كانت اللغة العربية انحطت في جميع طبقات الناس بعد ارتقائها انحطاطاً تستك منه المسامع، وتنفر منه الطباع، وتبدلت أحرف منها بغيرها، فكننت ترى الشيخ الجليل والكهل النليل قد تخنث في حديثه ، فأبدل جميع ما في كلامه من حرف القاف بالهمزة ، وأبدل الجيم العربية بجيم لا تعرفها العرب ، وأبدل الصاد بالذال ، والظاء بالضاد ، والثاء بالسين والذال بالزاي ، ثم يساعد لسانه بيده من العي ، فيكثر من الإشارات والحركات والالتفاتات أيضاً حتى يملأ سامعه، ويستثقله ناظره وهذا كان يتناول العلماء أيضاً ، فإن العالم كان لا ينطق بالقذف إلا في نقل ما في الكتاب في درسه ، فإذا خرج عن الدرس فكلامه لا يفترق عن كلام العامة في شيء . ولا يسلم من هذه الركاكة والرخاوة منهم إلا من كان من أهل الصعيد . فإنه يبدل القاف جيماً مصرية، فيخفف بها هذا الأذى بعض التخفيف. وربما أراد بعض المتعاملين أن يهجر هذه الهمزة هجر ابن عطاء حرف الراء ، فيقلب من جهله كل همزة عشر بها لسانه في الكلام قافاً . ولو سمعت الآن بعض من ذكرنا ، وهو يتكلم ذلك الكلام ، وينطق ذلك النطق ويشير تلك الإشارات ، ويطيل في حديثه ذلك التطويل لبكيت على اللغة العربية الشريفة التي نزل بها القرآن، ولرايتهم قد أهانوها واتقموها منها لصعوبة تعلمها الناشئة عن تقصيرهم في أساليب التعليم ، فضربوها بسيطا ألسنتهم حتى خلطوا بعضها في بعض ، وصار الأجنبى إذا سمعها ينفر منها سمعه لرخاوتها . كما وصفها الأجانب في كتبهم . وسمع غربي مصرياً من شبان هذا الزمان يتكلم باللغة العربية على قواعد فاصغى إليه طرباً ، وأنصت لحديثه معجباً من حسن اللغة، وقال إن الغربيين ظلموا هذه اللغة فقال له الشاب إن المصريين هم الذين ظلموها بما فعلوا بها . ومن العجب أن بعض الذين يعرفون هذه اللغة حق معرفتها لا يتكلمون

إلا باللغة المستهجنة ، ويتركون لغة تكسو مقاصد المتكلم حسن القبول في القلوب . وكنت ترى الكاتب الشهير لا يعرف للحروف رسماً ، ولا تعرف لغظه حداً . وله أيضاً من عى القلم حمل يكررها بلا معنى ولا فائدة ، واستعارات باردة تقشعر منها الأبدان وتستنكرها الأذواق . كقول بعضهم لأمير في الدعاء له (والله يبقى الأمير وأنجاله مسلسلين بقيود النعمة في أوتاد الدوام) . وربما كانت هذه الجملة وأمثالها هي التي شهرته بالبلاغة بين أقرانه . أما الآن فقد تغير الحال ، وأخذت اللغة العربية في الرجوع إلى جمال رونقها ، والكتابة في العودة إلى بهاء بهجتها . فترى الغلام التلميذ يتكلم بالآلفاظ الفصحى ، ويكتب الكتابة مزدانة بالمعاني الجزلة ، منطبقة على قواعد الرسم ، خالية من الحشو . وترى كثيراً من رجال النيابة والمحامين يقفون في موقف الخصام والدفاع ، فيمثلون لك ما كنت تسمعه عن سحبان وقس بن ساعدة ، وأمثالها من فصاحة الألفاظ ، وجزالة المعاني ، وحسن التشبيه ، ولطف الأسلوب ، وبراعة الإلقاء ، مما يكون له وقع في النفوس ، ومزلة في القلوب . وقد أخذ هذا يمتد في جميع الطبقات . ويشتد بينها على قدر مداركها واستمدادها : فتغير أسلوب الكلام في المجتمعات ، فأصبح أقرب إلى العربية الفصحى منه إلى العامية العجمي . ولو دام هذا الترقى في اللغة لوضع هذا العصر فوق عصر الجاحظ وأبي تمام في النثر والنظم . والفضل في ذلك للدارس والمطالع والجرائد . ولو خلت الجرائد من عبارات الشتم والسباب كما هو الواجب عليها لكان لها النصيب الأوفر من ذلك الفضل ؛ لأنها دروس يومية في الإنشاء والسياسة تشترك جميع الأمة في تلقيها ، وتربى في ملكاتها بالأخذ عنها . ولكننا نرى بعضها قد خرجت عن حد ما وضعت له وأصبح ما يكتب بها يخالف شرط الاشتراك فيها ، لأن المشترك فيها لم يعط ثمنها إلا لاستفادته من نقل الأخبار . وإبداء الأفكار . فإذا خالفت هذا ، وجاءت إلى المشترك في حجرته بين أهله وأولاده حاملة من

أنواع السباب والشتائم ما يكرم نفسه عن المرور بقائله والناظر به ، فقد أضاعت وقته ، وسلبت ماله ، وأقرأته ما كان ينفر من سماعه ، وأدخلت في حجرته ما يستعيز له بالله من هجر القول وفحشه .

فان كانت الجرائد تفيد الناس من جهة فانها تضر بأدبهم من جهات . فيجب على الحكومة التي بيدها الحل والعقد في شؤون الرعية في أن تبحث لإيجاد طريقة لحفظ الآداب بمنع الجرائد عن وقفها موقف الساب ، والشتائم ، والقاذف . وأعراض الناس وديعة في يد الحكومة فينبغي أن تحافظ عليها . ومن الغريب أن أرباب الجرائد يجعلون أنفسهم في منزلة الرادع ، والوازع ، والواعظ ، والناصح ، ويشتمون لمنع الشتم ، ويسبون لمنع السب .

فان لم تفعل الحكومة ما يجب عليها في هذا الباب لم يبق إلا أن يقوم فضلاء الأمة وأهل الشأن فيها لحفظ الآداب ، ودفع هذا الشر بتأليف جمعية تقف أمام الجرائد وقفة المراقب الوازع بسلطة معنوية .

* * *

(وبعد) فقد كنا نريد أن نسوق أمثلة من كتابة المويلحي في الصحف أكثر من ذلك ؛ ولعنا نمكث في هذا القدر الضئيل . ولعلك مدأيها القارئ الكريم - حين تتأمل هذه النصوص تتفق معنا فيما ذهبنا إليه من هذه النتائج التي أهمها :

أولا : أن الأدب والصحافة خلقا في كل لغة من لغات العالم نوعين من الأساليب . أولهما النوع الممتاز ، وهو خاص بالأدب الخالص . وثانيهما النوع غير الممتاز ؛ وهو الأسلوب القريب من العامة بعد تهذيبها والعناية بحركات إعرابها عناية كاملة . وقد كان المويلحي خير من يمثل النوع الأول في القرن الماضي وأوائل القرن الذي نعيش فيه . ولم يكن قد حان الوقت بعد الظهور النوع الثاني الذي اقترن بظهور الصحافة اليومية المنظمة ، كصحافة السيد علي

يوسف وأمثاله ، ومن ثم كان هذا الأخير — كما سذكر ذلك في الجزء
التالى بمشيئة الله — أول زعيم حقيقى للكتابة الصحفية بالمعنى المراد من
هذه الكلمة عند إطلاقها .

ثانيا : إن المستشرقين نظروا إلى المويلحى الكبير على أنه من زعماء
المحافظين ، ونظرنا نحن إليه على أنه من المجددين المعتدلين . والواقع أننا
نلتقى مع المستشرقين فى نقطة واحدة ؛ هى أن تجديد المويلحى كان قائما على
إحياء السنة . ولقد جاء النموذج الخامس والأخير شاهداً على ذلك ، وموضحاً
طريقة المويلحى فى الإصلاح ؛ وهى طريقة سبقه إليها النديم ، ومن ثم
نظرنا إلى المويلحى على أنه تلميذ لهذا الأخير ، والرجلان معاً من أصدق
تلاميذ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، كما سبق أن أوضحنا .

ثالثا : إن القومية الإسلامية كانت سائدة فى أذهان الكتاب والمفكرين
على القومية المصرية ، وذلك إلى عهد المويلحى ومن إليه من حكتاب تلك
الجيل ، فإذا اتجه أحدهم إلى التفكير فى أى ناحية من نواحي الإصلاح ؛
وخاصة الإصلاح السياسى فأنما يوجه كلامه إلى الدولة العلية ، ويحصر
جهوده فى إصلاح عيوبها بوصف أنها زعيمة العالم الإسلامى الذى يبق متماسكا
إلى ذلك الوقت ، وكان ينظر إلى السلطان العثمانى إذ ذاك على أنه يمثل
الإسلام ، وحامى الشعوب التى انطوت تحت لوائه . وفى النموذج الذى عنوانه
(العزة فى القوة) ما يدل دلالة صريحة على هذه الفكرة .

رابعا : أن جميع النكتاب المصريين فى ذلك الحين — وفيهم المويلحى
الكبير — كانوا يغضون الاحتلال الإنجليزى من صميم قلوبهم ، وكانوا
ينظرون إليه على أنه أضاع استقلالهم ، وأفقدهم السودان وسلطه من أيديهم
ثم لم تقف مساوئ الاحتلال فى نظرهم عند هذا الحد ، بل تجاوزته إلى
الدين الإسلامى الذى تعرض لسخرية الأوربيين ، وإلى القوميتين الشرقية

والمصرية اللتين تعرضتا لأذى أولئك الساخرين المعتدين ، وإلى الحضارة الشرقية الإسلامية التي أحست بشيء من الحياء والاستخدام من الحضارة الأوروبية الحديثة ، منذ أصبحت الغلبة لهذه الأخيرة وهنا انبرى كتابنا المصريون والشرقيون للدفاع عن حضارتهم ، كما دافعوا من قبل عن لغتهم وديانتهم . . والحق أن اللغة العربية مدينة بالفضل لأولئك الكتاب الذين حاطوها بعنايتهم ورعايتهم حيطة الأم الرؤوم والآب الشفيق . ولو لذلك لكنا - نحن المصريين - نتكلم الإنجليزية في حياتنا اليومية ، بل في حياتنا العلمية أو الأدبية . وفي ذلك ضياع لقوميتنا ، ونقدان لشخصيتنا ، وعدوان على تاريخنا القديم . وتراثنا المجيد ؟

تم بحمد الله الجزء الثالث من كتاب

أدب المقالة الصحفية في مصر

ويليه الجزء الرابع بمشيئة الله تعالى

وفيه الكلام عن علي يوسف صاحب المؤيد

محتويات الكتاب

صفحة	
٧	• • مصر بين الاحتلال الفرنسي والاحتلال الانجليزي
٣١	• • • الفصل الأول : حياة إبراهيم المويلحي
٦٧	• • الفصل الثاني : المويلحي وجريدة مصباح الشرق
٨٣	الفصل الثالث : نموذج من المقال في جريدة مصباح الشرق
٩٨	• • الفصل الرابع : القصة في جريدة مصباح الشرق
١٢٣	• الفصل الخامس : إبراهيم المويلحي في مقالات ما هنالك
١٥٢	الفصل السادس : الخصائص الفنية لأسلوب إبراهيم المويلحي
١٦٥	• • • • • النمذج
١٦٦	• النمذج الأول : رأينا من الإصلاح في مصر.نوعه
١٧١	• • • • النمذج الثاني : الترك والعرب
١٧٣	• النمذج الثالث : مصر وحدها ، كيف يتداخل المحتلون
١٨٠	• • • • • النمذج الرابع : العزة في القوة
١٨٥	• النمذج الخامس : مصر وحدها ، العادات المصرية

